مَسطُورُ الإفَادَةِ
بمَا يُعِينُ
عَلَى الحُضُورِ في العِبَادَةِ

تصنيف

الإمَامِ العَلَّامَةِ الفَقِيهِ الزَّاهِدِ

جَمَال الدّين مُحَمَّد بن الحُسَين بنِ إبْرَاهِيمَ الأسِيلَافي

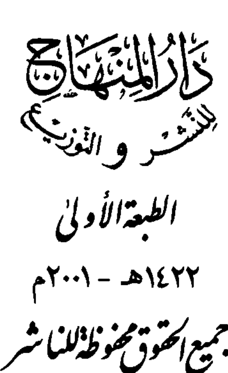
رحمه الله تعالى

اعتنى به

محمّد نور عبد الرحمن كنجو

محمّد غسّان نصوح عزقول





دار المنهاج للنشر والتوزيع

جدة - هاتف: ٦٣٢٢٤٧١ - ٦٣١١٧١٠ - فاكس: ٦٣٢٠٣٩٢

الموزعون المعتمدون

● السعودية: دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة
هاتف: ٦٣١١٧١٠ - فاكس: ٦٣٢٠٣٩٢
مكتبة دار كنوز المعرفة - جدة
هاتف: ٦٥١٠٤٢١ - فاكس: ٦٥١٦٥٩٣
مكتبة المأمون - جدة - هاتف: ٦٤٤٦٦١٤
مكتبة المؤيد - جدة - هاتف: ٦٨٧٧٠١٤
مكتبة الإيمان - المدينة المنورة - هاتف: ٨٢٢٥٨١٧
مكتبة العبيكان - الرياض
هاتف: ٤٦٥٠٠٧١ - ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩
دار أطلس - الرياض - هاتف: ٤٢٥٧٩٠٦
مكتبة الرشد - الرياض - هاتف: ٤٥٩٣٤٥١
المكتبة التدمرية - الرياض - هاتف: ٤٩٢٤٧٠٦
مكتبة المتنبي - الدمام - هاتف: ٨٤١٣٠٠٠

● الإمارات العربية المتحدة: مكتبة دبي للتوزيع - دبي
هاتف: ٢٢١١٩٤٩ - ٢٢٢٤٠٠٥ - فاكس: ٢٢٢٥١٣٧
مكتبة الجامعة - أبو ظبي
هاتف: ٦٢٧٢٧٩٥ - ٦٢٧٢٧٢٦ - فاكس: ٦٢٧٠٧٢٩

● قطر: مكتبة الثقافة - قطر
هاتف: ٤١٣١٨٠ - ٤١٣٤٧١ - فاكس: ٤١٨١٢٠

● الكويت: دار البيان - الكويت
هاتف: ٢٦١٦٤٩٠ - فاكس: ٢٦١٦٤٩٠

● البحرين: المكتبة الوطنية - البحرين
هاتف: ٢٩٣٨٤٠ - فاكس: ٢٩٣٧٩٩

● مصر: دار السلام - القاهرة
هاتف: ٢٧٤١٥٧٨ - فاكس: ٢٧٤١٧٥٠

● الأردن: مكتبة دانديس - عمان
هاتف: ٤٦١٠٦١٠ - فاكس: ٤٦٣٣٢٤٥

● سوريا: دار الفكر - دمشق
هاتف: ٢٢١١١٦٦ - ٢٢٣٩٧١٦ - فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
دار السنابل - دمشق
هاتف: ٢٢١٢٧٨٨ - فاكس: ٢٢١١٣٧١

● المغرب: دار الأمان - الرباط
هاتف: ٧٢٣٢٧٦ - فاكس: ٢٠٠٠٥٥

● جمهورية اليمن: مكتبة تريم الحديثة - تريم (اليمن)
هاتف: ٤١٧١٣٠
مكتبة الثقافة - عدن - هاتف: ٢٥٩٣٢٤
مكتبة الإرشاد - صنعاء - هاتف: ٢٧١٦٧٧

● ليبيا: مكتبة طرابلس العلمية العالمية - ليبيا
هاتف: ٣٦٠١٥٨٤ - ٣٦٠١٥٨٣ - فاكس: ٣٦٠١٥٨٥

● لبنان: الدار العربية للعلوم - بيروت
هاتف: ٧٨٥١٠٨ - ٧٨٥١٠٧ - فاكس: ٧٨٦٢٣٠

● فلسطين: مكتبة اليازجي - فلسطين
هاتف: ٢٨٦٧٠٩٩ - فاكس: ٢٨٦٧٠٩٩

● السودان: الدار السودانية - السودان
هاتف: ٧٨٠٠٣١ - فاكس: ٧٧٠٣٥٨

انترنت - النيل والفرات
WWW.neelwafurat.com
e-mail: info@neelwafurat.com



اعتنى به

محمد نور عبد الرحمن كنجو   محمد غسان نصوح عزقول

راجعه وصححه

أحمد محمد بركات

المقابلة والتصحيح: صلاح الحمصي

تخريج الأحاديث: قاسم النوري

مَسْطُورُ الإِفَادَةِ

بِمَا يُعِينُ

عَلَى الحُضُورِ فِي العِبَادَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة الناشر

اَلْحمدُ للهِ وليِّ ٱلصَّالحينَ ، وٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ علىٰ سيِّدِ ٱلْخَلْقِ أَجمعينَ ، وعلىٰ آلهِ وصحبهِ وٱلتَّابعينَ . .

أَمَّا بعدُ :

فقد أَخبرني أَحدُ إِخوانِنا ٱلصَّادقينَ . . ممَّنَ شارَكَ في إِعداد هٰذا ٱلكتابِ ٱلمباركِ ـ وٱلَّذي يُعَدُّ بحقٍّ زبدةَ كتابِ « إِحياءِ علوم ٱلدِّينِ » للإِمامِ ٱلْغزَّاليِّ عليهِ ٱلرَّحمةُ وٱلرِّضوانُ . . لقد أَخبرني هٰذا ٱلأَخُ أَنَّ تصنيفَ مثلَ هٰذا ٱلكتابِ لايتأَتَّىٰ إِلاَّ لرجلٍ يجري كتاب « ٱلإِحياءِ » في دمِهِ . .

بهٰذهِ ٱلعِبارَةِ ٱلعفويَّةِ ٱلصَّادقةِ تذكَّرتُ وتوقَّفتُ معَ ما يُروىٰ في كتبِ ٱلتَّراجمِ وٱلطَّبقاتِ لعلماءِ ٱليمنِ وحضرموتَ ، ٱلذينَ أَعطوا كتاب « ٱلإِحياء » مكانةً ساميةً ورتبةً عاليةً لا يكادُ يُشاركُه فيها غيرُهُ . . ومِنْ ذلكَ ٱلْحثُّ علىٰ دوامِ مطالعتِهِ وٱلنُّصحُ باقتنائِه وٱلْحرصُ علىٰ صُحبتهِ ؛ وٱلِاهتمامُ باستكتابِهِ سيَّما قبلَ ظهورِ ٱلطِّباعةِ وٱنْتشارِ وسائِلها .

وتمثَّلَ ذلكَ أَيضاً في قراءَةِ كتابِ « ٱلإِحياءِ » وتدارُسِهِ . . بقراءةِ تمحيصٍ وتدقيقٍ وتحقيقٍ . . حتى صارَ مِنْ مشاهيرِ ٱلْكتبِ ٱلَّتي يعتنىٰ بتكرار قرائتها في ٱلْمجالسِ ٱلْخاصَّةِ وٱلْعامَّةِ ولا عجبَ في ذلكَ فقدْ

قيل[1]: (لو ذهَبتْ كتبُ ٱلإسلام وبقي «ٱلإحياءُ» . . لأَغنىٰ عَمَّا ذهبَ).

وكثيراً ما نسمعُ أَو نقرأُ في سيَرِ بعضِ أَهلِ ٱلعلمِ : أَنَّهُ قرأَ كتابَ « ٱلإحياءِ » خمسينَ مرَّةً . . وأَنَّهُ قُرِىءَ عليهِ ستِّينَ مرَّةً . .

وتسلسلَ ذلكَ بحمدِ ٱللهِ إلىٰ هـٰذهِ ٱلعصورِ ٱلمتأَخِّرةِ . . بل ولا يزالُ نفعُ هـٰذا ٱلكتابِ ٱلعظيمِ يَفيضُ ويُفيضُ . . وهـٰذا فضلُ ٱللهِ يُؤْتيهِ من يشاءُ . .

ومؤلِّفُ هـٰذا ٱلكتابِ ممَّنَ أَخذَ مِنْ كتابِ « الإحياءِ » حظّاً وافراً حتَّىٰ ٱنتقىٰ هـٰذهِ ٱلخُلاصةَ ٱلمباركةَ مِنْ ذلكَ ٱلمعينِ ٱلثَّرِّ . .

ويتجلَّىٰ إبداعُ ٱلمؤلِّفِ في أَنَّهُ أَخذَ كتابَهُ هـٰذا من مواضعَ متفرِّقةٍ مِنَ « ٱلإحياءِ » بدونِ مراعاةٍ لتسلسلِ كتابِ « ٱلإحياءِ » ، فتارةً يأتي بٱلعبارةِ مِنْ أَولِّ ٱلكتابِ ويُلْحِقُها بأُخرىٰ مِنْ وَسَطِهِ أَو مِن آخرِهِ ، وهـٰكذا . . ولتوضيحِ هـٰذا الأَمرِ ولإظهارِ هـٰذا ٱلإبداعِ وضعنا بينَ معكوفتينِ عزو ٱلعبارةِ منِ كتابِ « ٱلإحياءِ » .

وهـٰذا ٱلْكتابُ ٱلْمباركُ يتناولُ جانباً مِنْ أَهمِّ ٱلْجوانبِ ٱلتَّربويَّةِ وٱلأخلاقيَّةِ ، ومنهجاً مِنْ أَهمِّ مناهجِ ٱلصِّلةِ بينَ ٱلْعبدِ وخالقهِ . . وهوٱلْحضورُ في ٱلْعبادةِ عامَّةً لا سيَّما ٱلصَّلاة خاصَّةً ، وٱلَّذي هو محورُ ٱلصِّلةِ وٱلدُّخولِ إلىٰ حضرةِ ملكِ ٱلْملوكِ جلَّ جلالهُ .

وكذلكَ عن سيَر وقصصِ ٱلصَّالحينَ معَ ٱلصَّلاةِ ٱلَّتي تنهىٰ عن ٱلْفحشاءِ وٱلْمنكرِ . . إنَّها ٱلصَّلاةُ ٱلَّتي هي أَوَّلُ ما يُسألُ ٱلْعبدُ عنه في قبرِهِ . .

---

(١) إتحافُ ٱلسَّادةِ ٱلْمتَّقينَ صفحة ٢٧ .

وكيفَ لا وقدْ أَوْلاها سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ مكانَتها ٱلسَّامية مِنْ نفسه ٱلشَّريفةِ حيثُ قالَ ﷺ : « وجُعلتْ قرَّةُ عيني في ٱلصَّلاةِ »[١] . . بلْ لا عليكَ أن تحلِّقَ في هٰذا الإدراكَ وأَنتَ تستجلي معنىٰ قوله ﷺ : « أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلاَلُ »[٢] . .

بعدَ هٰذا أَلا يَجدرُ أَن تكونَ ٱلصَّلاةُ راحةً للنَّفسِ وأُنساً للقلبِ وروضةً للرُّوحِ . .

ثمَّ تأَمَّل معي كيفَ أنه ﷺ كان إذا حزَبهُ أَمرٌ فزعَ إلىٰ ٱلصَّلاةِ[٣] .

وليستِ ٱلصَّلاةُ هيَ ٱلْمجالُ ٱلرُّوحيُّ ٱلَّذي عالجهُ ٱلْمؤلِّفُ في هٰذا ٱلْكتابِ فحسبُ ، ولٰكنَّها أَهمّ أَركانِ ٱلإسلامِ وأَهمُّ مباني ٱلْعبادةِ ؛ فلذا سلَّطنا عليها ٱلضَّوْءَ بٱلإشارَةِ لِنتْرُكَ تفَصيلَ ٱلْكلامِ عنها وعن غيرِها إلىٰ صفحات هٰذا ٱلْكتابِ ٱلْمباركِ .

ولكن لابدَّ أَنْ نشيرَ إلىٰ أُمورٍ أُخرىٰ يقفُ ٱلمرءُ أَمامها بخشوعٍ .

أُنظُر معي ـ رحمَكَ ٱللهُ ـ إلىٰ ٱلمؤلِّفِ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ حيثُ يقولُ في مقدِّمتهِ :

(لَمَّا قلتُ لَهُ ـ يعني لشيخهِ ـ: أَنا لا أُحسنُ أَن أُصلِّي ولا معيْ حضورٌ . . فقالَ لي : طالعِ « ٱلإحياءَ » ، فلمَّا طالعتُ « ٱلإحياءَ » بدا لي جوابُ سؤالي ، فنظمتُ منهُ هٰذه ٱللآلىءَ علىٰ حَسَبِ غَرَضي ودواءِ مَرَضي) .

---

(١) أخرجه عن أنس أحمد في «المسند» (٣/ ٢٨٥) .

(٢) أخرجه بنحوه أبو داوود في «سننه» (٤٩٨٦) .

(٣) أخرجه بنحوه عن حذيفة أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٨) .

من هٰذه ٱلكلماتِ ٱلصَّادقاتِ ٱلمعبِّراتِ ٱلنَّابعةِ مِنَ لسانٍ طاهرٍ. . يتجلَّىٰ لنا صدقُ ٱلمؤلِّفِ في كلماته ، وأَنَّهُ صادقٌ في بحثِهِ عَنِ ٱلحقيقةِ ، وصادقٌ في عَرْضِهِ لمرضِهِ ، وصادقٌ في طلبهِ ٱلجادِّ لعلاجِ هٰذا ٱلمرضِ ، وٱلمريضُ لا يستفيدُ منَ ٱلطَّبيبِ إذا لَمْ يصدُقْ في عَرْضِ مرضِهِ علىٰ ٱلطَّبيبِ .

وهٰذا ٱلمرضُ ٱلَّذي يُشيرُ إِليهِ ٱلمؤلِّفُ لا يكادُ يخلو منهُ أَحدٌ في زمانِنا ، إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ ٱللهُ . . وقليلٌ ما هُم . .

ولن نتكلَّمَ عَنِ ٱلعلاجِ فهوَ موجودٌ في ثنايا ٱلكتاب . . وٱلعافيةُ ليست مِنَ ٱلدَّواءِ ، ولٰكنَّها مِنَ ٱللهِ . . ولذا فلا يكون ٱلعلاجُ إلاَّ بٱلاستعانةِ ٱلصَّادقةِ بٱللهِ ؛ لأَنَّهُ هوَ ٱلشَّافي وحدَهُ سبحانَهُ وتعالىٰ .

وكم كانَ ٱلمؤلِّفُ موفَّقاً حينَما ٱختارَ لفظ (يعينُ) في ٱلعنوانِ ؛ لأَنَّ ٱلكلَّ بتوفيقِ ٱللهِ تعالىٰ وفضلِهِ . .

وأَخيراً . . نسأَلُ ٱللهَ تعالىٰ أَنْ يباركَ للأُمَّةِ ٱلمحمَّديَّةِ في هٰذا ٱلكتابِ .

وأَنْ يجعلَ منهُ غِراساً طيِّباً يظهرُ في أَنفُسنا وأَهلينا وأَصحابنا وديارنا وسائر المسلمين ، ونرجوه سبحانَهُ أَنْ يجعلَ خدمتنا لهٰذا ٱلكتابِ ٱلمباركِ مفتاحاً وطريقاً نعبر منه إِلىٰ خدمةِ كتاب « إِحياءِ علوم ٱلدِّين » . . خدمةً مباركةً نَصِلُ بها إِلىٰ شيءٍ ممَّا يجبُ علينا مِنْ خدمةِ هٰذا ٱلدِّينِ ٱلْحنيفِ وما في هٰذا ٱلْكتابِ مِنْ إِحياءِ عُلومهِ ، إِنَّهُ سميعٌ مجيبٌ .

وأخيراً . . إِلىٰ صفحاتِ هٰذا ٱلكتابِ ٱلمباركِ . .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

لقد بلغتْ دعوةُ ٱلإمامِ ـ شيخِ ٱلإسلامِ عبدِ ٱللهِ بنِ علويٍّ ٱلحدَّادِ ٱلحُسينيِّ ٱلحضرميِّ التَّريميِّ ٱلمتوفَّىٰ بها سنةَ : (١١٣٢هـ) ـ الآفاقَ ، وٱنعقدَ ٱلإجماعُ علىٰ إمامتهِ وولايتهِ ٱلرُّوحيَّةِ منذُ ذلكَ ٱلوقتِ وإلىٰ أيَّامنا هـٰذهِ .

وما هـٰذا ٱلكتابُ ٱلَّذي بينَ أَيدينا إلاَّ أَحدُ نماذجَ ذاتِ دِلالةٍ تحقِّقُ هـٰذهِ ٱلمكانةَ وٱلمنزِلةَ لذلكَ ٱلإمامِ في قلوبِ أَتباعهِ وسالكي سبيلهِ ومقتفي آثارهِ .

لقد كانَ ـ رحمَهُ ٱللهُ ـ صاحبَ مدرسةٍ سلوكيَّةٍ علميَّةٍ فريدةٍ ، كانَ بحقٍّ مجدِّداً للدِّينِ في عصرهِ ، وليسَ لَهُ طريقةٌ خاصَّةٌ معيَّنةٌ . . بل شأْنُهُ ودأْبُهُ وحضُّهُ دوماً علىٰ أَخذِ ٱلعلمِ وٱلعملِ وٱلزُّهدِ وٱلخوفِ وٱلورع ، هـٰذهِ ٱلمعالمُ هيَ أُصول منهجهِ ، كما أَنَّها طريقةُ أَسلافهِ : السَّادةِ آلِ أَبي علويٍّ بـ (حضرموتَ) .

لقدِ ٱعتنىٰ ٱلإمامُ ٱلحدَّادُ بتزكيةِ ٱلتَّربيةِ ٱلرُّوحيَّةِ ٱعتناءً كبيراً ، ولَمْ يفتْهُ أَنْ يُخرِّجَ تلامذةً علماءَ ، دعاةً أَفاضلَ ، جهابذةً نُجباءَ ، يُعَدُّ أَحدُهُم مدرسةً ، بل جَامِعةً ، ولا غروَ ؛ فقد كانوا علىٰ نهجِ شيخِهِم في ٱلرُّسوخِ وٱلمعرفةِ ؛ فهوَ كما يُقالُ : أُمَّةٌ في رجلٍ .

ومصنِّفُ هٰذا ٱلكتابِ : العلاَّمةُ ٱلأَسلافيُّ ـ هوَ أَحدُ ٱلغِراسِ ٱلَّذينَ تمَّ نُضجُهُم ونفعهم ، مَدِينٌ في تصنيفِ كتابهِ هٰذا ـ الماثلِ بينَ أَيدينا ـ لذلكَ ٱلإمامِ ، ولتلاميذهِ ٱلكِرامِ ، ٱلَّذينَ نشروا عِلمَهُ ودعوتَهُ في ٱلبقاعِ ، وكانَ لـ (تهامةِ ٱليمنِ) نصيبٌ وافرٌ ، وحظٌّ كبيرٌ مِنْ رعايتهِ .

فلا ريبَ ولا عجبَ لِمَنْ نالتْهُم ٱلدَّعوةُ ٱلمحمَّديَّةُ كما في قولِهِ عليهِ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ : « **أَتَاكُمْ أَهْلُ ٱلْيَمَنِ ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً ، وَأَلْيَنُ قُلُوْباً ، الإِيْمَانُ يَمَانٍ ، وَٱلْفِقْهُ يَمَانٍ ، وَٱلْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ** »(١) .

وأَهلُ (تهامةِ ٱليمنِ) مِنْ أَرَقِّ ٱلنَّاسِ أَفئدةً ، وذلكَ معروفٌ عنهُم ، كما هوَ معروفٌ عن أَهلِ (حضرموتَ) .

لقد أَخذَ ٱلأَسلافيُّ عن رجلٍ مِنْ أَهلِ ٱلمعرفةِ هوَ : ٱلشَّيخُ

---

(١) أَخرجهُ عَن أَبي هريرةَ رضيَ ٱللهُ عنهُ بأَلفاظٍ متقاربةٍ ٱلبخاريُّ (٤١٢٧) ، في ٱلمناقبِ ؛ ومسلمٌ (٥٢) في ٱلإيمانِ ، وأَحمدُ (٢/ ٤٨٠ و٤٨٨) ، وغيرُهم . أَرقُّ : أَخشعُ . أَفئِدةً : قلوباً .

ٱلصَّالحُ ٱلمُرشدُ أَحمدُ بنُ حَسَنٍ المُوقَريّ ٱلزَّبيديّ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (١٢٠١هـ) بـ (زبيدَ) ، وٱلَّذي بدورهِ تلقَّىٰ وأَخَذَ : عنِ ٱلشيخِ ٱلعالِمِ ٱلمرشدِ ٱلعارفِ محمّدِ بنِ ياسينَ باقيسٍ ٱلمُتوفَّىٰ ببلدَةِ : (حلبونَ) مِن بُلدانِ (وادي دَوعن) ٱلأَيمنِ بـ (حضرموتَ) سنةَ : (١١٨٣هـ)[1] .

وٱلشَّيخُ باقيس هـٰذا أَخذَ عَن جُملةٍ كاثرَةٍ مِن أَربابِ ٱلعلمِ وٱلسُّلوكِ ، وهوَ أَحدُ كبارِ تلامذَةِ شيخِ ٱلإسلامِ عبدِ ٱللهِ بنِ علويٍّ ٱلحدَّادِ .

فَمِن هنا نعرفُ مدىٰ ٱنتشارِ تلكَ ٱلدَّعوة ٱلحدَّاديَّةِ ٱلإسلاميَّةِ ٱلمباركةِ ، وصلةَ مؤلِّفنا ـ ٱلأَسلافيِّ ـ بذلكَ ٱلرَّجلِ ٱلمصلحِ وٱلدَّاعيةِ ٱلإسلاميِّ ٱلكبيرِ . . رحمَهُمُ ٱللهُ تعالىٰ .

* * *

(١) كما أَنَّ لهُ شيوخاً آخرينَ أَجلاَّءَ تَخرّجَ بهم علميّاً وسلوكيّاً ، منهُم :
ٱلإمامُ ٱلعلاَّمَةُ يحيىٰ بنُ عمرَ مقبولٍ ٱلأَهدلُ ٱلمتوفَّىٰ بـ (زبيدَ) سنةَ : (١١٤٧هـ) ، وهوَ أَجلُّ شيوخِهِ ، كمَا ذكرَ صاحِبُ « ٱلنَّفَسِ » (ص/ ٤٧ ـ وما بعدها) .

ترجمة المؤلف

هوَ ٱلعلاَّمةُ ، ٱلجليلُ ، ٱلقاضي ، ٱلشَّيخُ محمَّدُ بنُ ٱلحسينِ بـنِ إِبـراهيـمَ ، ٱلأَسـلافـيُّ ، ٱلجبلـيُّ ، ٱليمنـيُّ ، ٱلشَّـافعـيُّ ، ٱلزَّبيديُّ .

ٱلمنسوب إِلىٰ قَريةِ (ٱلأَسلافِ) ، مِن ناحيَةِ (جَبَلَةَ) ، في بلادِ (ٱليمنِ) ، وهيَ لواءٌ معروفٌ وكبيرٌ[1] .

أَحدُ رجالاتِ ٱلقرنِ ٱلثَّاني عَشَرَ ، تلقَّىٰ ٱلعلمَ أَوَّلاً علىٰ يدِ والدِهِ ٱلعلاَّمةِ ٱلمعمَّرِ ٱلصَّالحِ ٱلحسينِ بنِ إِبراهيمَ ، وتربَّىٰ علىٰ يَديهِ تربيةً صالحةً مستقيمةً[2] .

طلبُهُ للعلمِ وجدُّهُ وٱجتهادُهُ :

قالَ تلميذُهُ ٱلإمامُ وجيهُ ٱلدِّينِ عبدُ ٱلرَّحمـٰنِ بنُ سليمانَ

---

(١) « نشرُ ٱلعرفِ » : (٣/ ١١٠) ، ويُنظَرُ : « هِجَرُ ٱلعلمِ ومعاقِلُهُ في ٱليَمَنِ » لشيخنا ٱلعلاَّمةِ ٱلأَكوعِ ، و« معجم بلدان اليمن وقبائلها » لشيخ شيوخنا القاضي الحجْري الصنعاني .

(٢) « ٱلنَّفَسُ ٱليمانيُّ » : (ص/ ١٤٣) ، و« نشرُ ٱلعرفِ » : (٣/ ١١٠) .

ٱلأَهدلِ : أَخذَ ٱلعلومَ عَن والدِهِ ٱلمذكورِ ، وٱجتهدَ وأَلزمَ نفسَهُ ٱلعملَ بٱلآدابِ ٱلشَّرعيَّةِ في عباداتِهِ وعاداتِهِ ، حتَّىٰ صارَ ٱلأَدَبُ سجيَّةً لهُ ـ وٱلمحاولاتُ وٱلمزاولاتُ للعلومِ ٱلنَّافعَةِ وٱلأَعمالِ ٱلصَّالحَةِ وٱلأَخلاقِ ٱلفاضلَةِ تُصيِّرُها مَلَكاتٍ وسجيَّاتٍ ، كما أَفادَ ذلكَ ٱلعلاَّمةُ ٱلبيضاويُّ وغيرُهُ ـ حتَّىٰ فاقَ ٱلأَقرانَ وصارَ غُرَّةً في جبينِ ٱلزَّمانِ ، كما قالَ الشاعرُ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَلَيْسَ يَسُوْدُ ٱلْمَرْءُ إلاَّ بِنَفْسِهِ ... وَإِنْ عَدَّ آبَاءً كِرَاماً ذَوِيْ حَسَبْ
إِذَا ٱلْغُصْنُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ ... مِنَ ٱلْمُثْمِرَاتِ ٱعْتَدَّهُ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلْحَطَبْ

رحلتُهُ لطلبِ ٱلعلمِ وذِكرُ بعضِ شيوخِهِ :

قالَ ٱلأَهدلُ : وَلمَّا برعَ في ٱلعلومِ . . ٱستأْذَنَ والدَهُ ٱلمذكورَ في ٱلارتحالِ إِلىٰ مدينةِ (زَبيدَ) ؛ ليأْخُذَ عَن علمائِها ، ويستجيزَ منهم ، ويأْخذَ ٱلطَّريقةَ عَنِ ٱلشَّيخِ ٱلكبيرِ أَحمدَ بنِ حسنِ ٱلموقريِّ[1] ، ٱلَّذي أَخذَها عَن شيخِهِ ٱلصَّالحِ ٱلكبيرِ مُحمَّدِ بنِ ياسينَ ٱلحضرميِّ[2] ،

---

(١) الشَّيخُ ٱلموقريُّ : وُلِدَ بـ (زبيدَ) ، وتُوُفِّيَ بها سنةَ : (١٢٠١هـ) ، كانَ كما وصفَهُ ٱلوجيهُ ٱلأَهدلُ : مِنَ ٱلعلماءِ ٱلعاملينَ ، لهُ ٱليدُ ٱلطُّولىٰ في علمِ ٱلسُّلوكِ . اهـ « ٱلنَّفَسُ » : (ص/٤٧) . أَخذَ عَنِ ٱلعلاَّمَةِ يَحيىٰ بنِ عُمرَ ٱلأَهدلِ المتوفىٰ سنة (١١٤٧هـ) ، وٱلشَّيخِ مُحَمَّدِ بن ياسين باقيسٍ وغيرِهما .

(٢) الشَّيخُ محمَّدُ ياسين باقيس ٱلحضرميُّ توفِّي سنةَ : (١١٨٣هـ) كما في « إدامِ=

أَحدِ مُريدي ٱلسَّيِّدِ عبدِ ٱللهِ ٱلحدَّادِ باعلويٍّ ، نفعَنا ٱللهُ بٱلجميعِ .

فلمَّا وصلَ إِلىٰ (زبيدَ) . . نزلَ علىٰ ٱلشَّيخِ أَحمدَ بنِ حسنٍ ٱلمذكورِ ، وأَكرمَهُ إكراماً عظيماً ، وأَتاهُ علماءُ ٱلبلدِ إِلىٰ منزلِ ٱلشَّيخِ ، ووقعَتْ بينَهُم وبينَهُ إِفاداتٌ وٱستفاداتٌ ، ومذاكراتٌ ومراجعاتٌ .

وكانَ مِمَّنْ أَخذَ عنهُ ٱلشَّيخُ مُحمَّدٌ ٱلمذكورُ ٱلإِجازَةَ : شيخُنا ٱلوالدُ[1] ، وٱلشَّيخُ ٱلعلاَّمةُ عبدُ ٱلخالقِ بنُ عليٍّ ٱلمِزْجاجيُّ .

قالَ ٱلسَّيِّدُ ٱلأَهدلُ : ولَمَّا أَخذَ ٱلطَّريقةَ[2] عَنِ ٱلشَّيخِ أَحمدَ بنِ حسنٍ ٱلموقريِّ . . أَقبلَ عليهِ إِقبالاً عظيماً ، ولازَمَهُ ، وٱنتفعَ بهِ حتَّىٰ بلغَ بذلكَ كُلَّ أُمنيَّةٍ ، ثُمَّ عادَ إِلىٰ بلدِهِ إِلىٰ حضرةِ والدِهِ . اهـ .

ومنهم : ٱلعلاَّمةُ أَبو ٱلزَّينِ عبدُ ٱلخالقِ بنُ عليٍّ بنِ ٱلزَّينِ

= ٱلقوتِ » لابنِ عُبيدِ ٱللهِ ٱلسَّقَّافِ ، عندَ ذِكرِهِ علماءَ (حلبونَ) مِن (وادي دَوعنَ) ص / ٧٠ (مخطوط) .

(١) هُوَ ٱلسَّيِّدُ سليمانُ بنُ يحيىٰ بنِ عمرَ ٱلأَهدلُ ٱلزَّبيديُّ ، ٱلمُتوفَّىٰ بها سنةَ : (١١٩٣هـ) « ٱلنَّفَسُ ٱليمانيُّ » لِوَلَدِهِ (ص/ ٣٠ـ٤٠) .

(٢) تقدَّمَ في « ٱلتَّمهيدِ » آنفاً قولُنا : إِنَّ ٱلإمامَ ٱلحدَّادَ لَمْ تكُن لَهُ طريقةٌ خاصَّةٌ ذاتُ رسومٍ معيَّنةٍ ؛ بل هيَ تمثِّلُ ٱلسُّلوكَ ٱلإسلاميَّ ٱلعامَّ ، وتقدَّمَ أيضاً ذِكرُ أُصولها ٱلخمسةِ ٱلَّتي يهتمُّ شيوخُ حضرموتَ بها ٱهتماماً خاصّاً وبالغاً . . فليحرر .

المِزْجاجيُّ[1] ، صاحبُ : « **نُزهةِ رياضِ ٱلإجازَةِ ٱلمستطابَةِ بذِكرِ ٱلمشايخِ أَهلِ ٱلرِّوايَةِ وٱلإصابَةِ** »[2] ؛ فقد ذَكَرَ ٱلعلاَّمةَ ٱلأَسلافيَّ ضِمنَهُ عندَ سردِهِ أَسماءَ مَن أَخذَ عنهُ ومقروءاتِهم ، فقالَ : ومنهم : القاضي ٱلجليلُ ٱلنبيلُ مُحمَّدُ بنُ حسينٍ ٱلأَسلافيُّ ، صحبَني وٱستجازَ مِنِّي في ٱلحديثِ ، وكتبتُ لهُ وصايا ، وأَجبنا لهُ علىٰ سؤَالٍ في ٱلزَّكاةِ ، وأَخذَ ٱلطَّريقةَ علىٰ شيخِنا ٱلعارفِ أَحمدَ بنِ حسنٍ ٱلموقريِّ ، وهوَ ٱلآنَ علىٰ ٱستقامةٍ تامَّةٍ ، وجاهٍ عظيمٍ ، ومعرفةٍ بٱلطِّبِّ . اهـ[3] .

شيء من أدبياته :

كانَتْ بينَهُ وبينَ ٱلسَّيِّدِ ٱلعلاَّمةِ نفيسِ ٱلدِّينِ سليمانَ بنِ يحيىٰ بنِ عُمَرَ مقبولٍ ٱلأَهدلِ المتوفىٰ سنة : (١١٩٣هـ) مراسلاتٌ أَدبيَّةٌ ، مِنها هـٰذانِ ٱلبيتانِ للأَسلافيِّ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

---

(١) وُلِدَ سنةَ : (١١٤١هـ) ، وتُوفِّيَ سنةَ : (١٢٠٧هـ) ، وترجمتُهُ في كتابِهِ ٱلمذكورِ بقلمِهِ ، ويُنظرُ ٱلمقدمةُ بقلمِ ٱلسَّيِّدِ ٱلبحَّاثةِ عبدِ ٱللهِ مُحمَّدٍ ٱلحبشيِّ حفظَهُ ٱللهُ تعالىٰ .

(٢) طُبعَ هـٰذا ٱلكتابُ ٱلنَّفيسُ سنةَ : (١٤١٨هـ) ، وصدرَ عَن دارِ ٱلفكرِ بـ (بيروتَ) ، بتحقيقِ ٱلعلاَّمَةِ ٱلبحَّاثَةِ ٱلسَّيِّدِ عبدِ ٱللهِ ٱلحبشيِّ وآخرَ .

(٣) « نُزهةُ رياضِ ٱلإجازةِ » : (ص/ ٣٤٠) .

مَتَىٰ يَرْجِعُ ٱلْجَمْعُ ٱلَّذِيْ شَتَّ شَمْلُهُ   بِأَحْسَنِ حَالٍ فِيْ أَعَزِّ ٱلْمَجَالِسِ
مَجَالِسِ ذِكْرٍ مَعْ حُضُوْرٍ وَحِكْمَةٍ   وَرَفْعِ سُتُوْرٍ وَٱجْتِلَاءِ ٱلْعَرَائِسِ

مصنَّفاتُهُ :

١ـ شرحَ أَبياتاً لشيخِهِ ٱلموقريِّ في ٱلتَّصوُّفِ وهيَ :

نَـزِّهْ فُـؤَادَكَ عَـنْ خَيَـالٍ أَوْ مِثَـالْ   أَطْلِقْ جَوَادَكَ لاَ تُقَيِّدْ بِٱلْمُحَالْ
أَبْـدِلْ نُعُـوْتـاً بِـٱلتَّضَـرُّعِ وَٱلـدُّعَـا   قُلْ رَبِّ أَبْدِلْ نَقْصَ ذَاتِيْ بِٱلْكَمَالْ
اَللهُ يَقْضِـيْ حَـاجَـةَ ٱلْعَبْـدِ ٱلَّـذِيْ   يَدْعُوْ إِلَيْهَا مَا تَضَرَّعَ بِٱلسُّؤَالْ
بَيْـنَ ٱلـرَّجَـالَـةِ وَٱلْبَطَـالَـةِ خَصْلَـةٌ   صِدْقُ ٱلتَّعَلُّقِ بِٱلْمُهَيْمِنِ ذِيْ ٱلْجَلاَلْ[١]

٢ـ « جَمَعَ رسائِلَ شيخِهِ ٱلموقريِّ في مجموعٍ » ، ضمَّنَهُ قصائِدَ ومقاطيعَ ووصايا[٢] .

٣ـ « **عقدُ اللُّؤْولِ في أقيال ٱلأَولياءِ ٱلفُحولِ** » ، منهُ نسخةٌ بمكتَبةِ جامعِ (صنعاءَ ٱلغربيَّةِ) برقمِ (٣٣٦) مجاميع[٣] .

---

(١) الأَبياتُ أَوردَها كاملةً العلاَّمَةُ ٱلمُؤَرِّخُ ٱلسَّيِّدُ مُحَمَّدُ زبارةُ في « نشرِ ٱلعرفِ » : (٣/ ١١١ـ١١٢) ، وٱنظر « ٱلنَّفَسَ » (ص/ ١٤٥) .
(٢) المصدرُ ٱلسَّابقُ .
(٣) « مصادرُ ٱلفكرِ ٱلإسلاميِّ في ٱليَمَنِ » للسَّيِّدِ عبدِ ٱللهِ ٱلحبشيِّ : (ص/ ٣٣٣) (ط . العصرية) .

٤ـ « **مسطورُ ٱلإفادَةِ فيما يعينُ علىٰ ٱلحضورِ في ٱلعبادَةِ** » التقطه مِن بينِ دفَّتي كتابِ « **إحياءِ علومِ ٱلدِّينِ** » للإمامِ ٱلغزاليِّ معَ تعليقاتٍ لطيفَةٍ تدلُّ علىٰ عُمقِ ٱلتَّفكُّرِ وشفافيّةِ ٱلتدبُّرِ ، مخطوطٌ بمكتبَةِ ٱلأَحقافِ (جامعِ تريمِ) بـ (حضرموتَ) ولعلَّها ٱلوحيدةُ ، وهيَ نفيسةٌ ؛ لكَونِها قُرِئَتْ علىٰ مصنِّفِها ، وهوَ هـٰذا ٱلكتابُ ٱلَّذي بينَ يديِ ٱلقارىءِ ٱلكريمِ .

وقد نسبَها ٱلسَّيِّدُ عبدُ ٱللهِ ٱلحبشيُّ للموقريِّ شيخِ ٱلمصنِّفِ وهوَ وهَمٌ ، ولعلَّهُ تبعَ « **فهارسَ ٱلأَحقافِ** » في هـٰذا ٱلوَهَمِ وٱلخطأ[1] .

تعظيمه واحترامه لشيخه :

كانَ صاحبُ ٱلتَّرجمةِ معظِّماً لشيخِهِ ٱلعلاَّمَةِ ٱلموقريِّ جدّاً ، وكانَ مبالغاً في ٱلتَّأَدُّب معَهُ .

وكانَ إذا جاءَ منهُ كتابٌ ـ أَي رسالَةٌ ـ لا يمسُّهُ إلاَّ وهوَ علىٰ

---

(١) « مصادرُ ٱلفكرِ ٱلإسلاميِّ » ، للحبشيِّ : (ص/ ٣٣٣) ، ويبدو أَنَّهُ ٱعتمدَ ما جاءَ في فهارسِ ٱلمكتبَةِ ٱلمذكورَةِ ، ومنشأُ ٱلوهَمِ أَنَّ ٱلمصنِّفَ ذكرَ في مقدِّمَةِ ٱلكتابِ أَنَّهُ صنَّفَهُ بعدَ أَنِ ٱستشارَ شيخَهُ ٱلموقريَّ وصرَّحَ بٱسمِهِ في ديباجَةِ ٱلكتابِ فظَنَّ واضعو ٱلفهرسِ أَنَّ ٱلموقريَّ هوَ ٱلمصنِّفُ ، معَ أَنَّهم لَو كلَّفوا أَنفسَهُم عناءَ ٱلبحثِ . . لتبيَّنَ لَهم وجهُ ٱلصَّوابِ بٱلنَّظَرِ إِلىٰ ٱلصَّفحَةِ ٱلأَخيرةِ مِنَ ٱلكتابِ وفيها تصريحٌ بأَنَّ ٱلمصنِّفَ هوَ ٱلأَسلافيُّ ٱلمترجَمُ ، وليسَ شيخُهُ ٱلموقريُّ ، فليُعلَم .

طهارةٍ ، ولا يقرؤُهُ إلاَّ وهوَ مستقبلَ ٱلقبلَةِ!! .

فإذا كانَ هـٰذا فعلُهُ معَ شيخِهِ. . فكيفَ يا ترىٰ ستكونُ عبادتُهُ وصلاتُهُ وٱستحضارُهُ ٱلوقوفَ بَينَ يديِ ٱلجبَّارِ ، لا شَكَّ أَنَّهُ كانَ في حالٍ يفوقُ ٱلوصفَ. . وما هـٰذا ٱلكتابُ ٱلَّذي بينَ أَيدينا إلاَّ شاهدُ حالٍ لهـٰذا ، وهوَ ٱلمطلوبُ ظَنُّهُ وٱعتقادُهُ فيهِ إِحساناً للظَّنِّ في عبادِ ٱللهِ ٱلصَّالحينَ .

ويعلِّلُ ذلكَ ٱلوصفَ وٱلحالَ ـ ٱلَّذي ذُكرَ آنفاً ـ تلميذُهُ ٱلعلاَّمةُ ٱلوجيهُ ٱلأَهدلُ مفتي (زبيدَ) ـ رحمهُ ٱللهُ ـ بقولِهِ : ولا خفاءَ أَنَّ ٱلأَدَبَ بابٌ كبيرٌ مِنْ أَبوابِ ٱلتَّصوُّفِ ، ولهم فيهِ مقالٌ طويلٌ . وقد أَتىٰ ٱلإمامُ ٱبنُ ٱلقيِّمِ في « شرحِ منازلِ ٱلسَّائِرينَ » فيهِ بما أَشفىٰ ٱلغليلَ وأَروىٰ ٱلعَليلَ ، جزاهُ ٱللهُ خيراً .

وممَّا ذكرَهُ : أَنَّ حقيقةَ ٱلأَدَبِ رياضَةُ ٱلنَّفسِ ، وتأْديبُ ٱلجوارحِ ، وتركُ ٱلشَّهواتِ ، وثمرةُ ذلكَ : طهارةُ ٱلقلبِ ، وتهيئَتُهُ لِقَبولِ فيضِ ٱلربِّ . انتهى[1] .

طُلاَّبُ ٱلأَسلافيِّ :

منهُم : مفتي (زبيدَ) وعالِمُها ومسنِدُها في ٱلقرنِ ٱلثَّالثَ عشرَ ٱلهجريِّ ٱلسَّيِّدُ ٱلإمامُ وجيهُ ٱلدِّينِ عبدُ ٱلرَّحمـٰنِ بنُ سليمانَ بنِ

---

(١) « ٱلنَّفَسُ ٱليمانيُّ » : (ص/ ١٤٥) .

يحيىٰ بنِ عُمَرَ مقبولٍ ، ٱلأَهدَلُ ، ٱلحُسينيُّ ، ٱلزَّبيديُّ ، ٱلشَّافعيُّ ، ٱلمتوفَّىٰ بـ (زبيدَ) سنةَ : (١٢٥٠هـ) .

فقد قالَ في « ٱلنَّفَسِ » : وفي هـٰذهِ ٱلمدَّةِ[١] وَقَعَتْ منهُ لي إجازَةٌ فيما تجوزُ روايتُهُ وتصحُّ درايتُهُ ، وٱستجازَ لي مِنْ والدِهِ ٱلمعمَّرِ مُلْحِقِ ٱلأَحفادِ بٱلأَجدادِ ٱلشيخِ ٱلعلاَّمةِ ٱلعارفِ حسينِ بنِ إبراهيمَ ٱلمذكورِ جَزاهما ٱللهُ خيراً .

ثُمَّ إنَّ ٱلشيخَ مُحَمَّداً ـ صاحبَ ٱلتَّرجمَةِ ـ وَفَدَ إلىٰ مدينَةِ (زبيدَ) سنةَ : (١١٩٨هـ) ؛ لمزاوَرَةِ شيخِهِ ٱلشَّيخِ أَحمدَ ٱلمذكورِ ، وأَقبلَ ٱلنَّاسُ عليهِ إقبالاً عَظيماً ، يستفيدونَ منهُ دواءَ ٱلقلوبِ ودواءَ ٱلأجسامِ ؛ لأَنَّهُ كانَ طَبيباً ماهراً في ٱلعِلمَينِ[٢] .

ثُمَّ قالَ : ٱستعدتُ منهُ ٱلإجازَةَ ، فأَجازني إجازةً مطلقَةً ، وكتبَ لي ذلكَ بخطِّهِ جزاهُ ٱللهُ خيراً[٣] .

---

(١) أَي مُدَّةَ زيارتِهِ لشيخِهِ ٱلموقريِّ في أَواخرِ ٱلمئةِ ٱلحاديةَ عشرةَ للهجرةِ ، إذ تكرَّرتْ زياراتُ ٱلمترجَمِ لشيخِهِ ٱلمذكورِ .

(٢) قولُهُ ٱلعلمَينِ ، فيهِ إشارةٌ للمقولَةِ ٱلشَّهيرَةِ للإمامِ ٱلشَّافعيِّ رضيَ ٱللهُ عنهُ : العلمُ علمانِ ؛ عِلمُ ٱلأَديانِ وعلمُ ٱلأَبدانِ . وقد رواها عنهُ ٱلحافظُ ٱبنُ عبدِ ٱلبَرِّ بإسنادِهِ إليهِ ، كما في « ٱلانتقاءِ » : (ص/١٣٨) ط . مكتبِ المطبوعاتِ ٱلإسلاميَّةِ . بتحقيقِ فضيلَةِ مولانا ٱلعلاَّمَةِ عبدِ ٱلفتاحِ أَبو غدةَ رحمهُ ٱللهُ تعالىٰ .

(٣) يعني في زورتَهُ سنةَ : (١١٩٨هـ) أُنظرِ « ٱلنَّفَسَ » (ص/١٤٦) .

حليتُهُ وصفتهُ :

قالَ ٱلأَهدلُ : كانَ رحمهُ ٱللهُ ـ أَي صاحبُ ٱلتَّرجمَةِ ـ ذا حِلمٍ وأَناةٍ عظيمةٍ ، وهما خصلتانِ يحبُّهما ٱللهُ ، كما وردَ في ٱلحديثِ ٱلصَّحيحِ[١] .

فكانَ عظيمَ ٱلتَّأنّي في أُمورِهِ ، طويلَ ٱلتَّفكُّرِ في ٱلسُّؤَالِ وٱلجوابِ وإِنْ كانَ في غايةِ ٱلظُّهورِ ، عاملاً بما قيلَ في منثورِ ٱلحِكَمِ : مَن قَلَّتْ فكرَتُهُ . . ٱشتدَّتْ عثرتُهُ ، ومَنِ ٱمتطىٰ ٱلعَجَلةَ . . لم يَأْمنْ ٱلكبْوَةَ ، ومَن لَمْ يتأَمَّلْ ما سُئِلَ عنهُ كَما ينبغي . . لم يُجِبْ كَما يَجبْ[٢] . اهـ .

أُسرتُهُ :

والدهُ : ٱلشَّيخُ ٱلحسينُ بنُ إِبراهيمَ ، كانَ رجلاً معمَّراً ، عالماً صالحاً ، ولَم يوردِ ٱلمترجِمُ لَهُ ذكرَ أَحدٍ مِن شيوخِهِ ، أَو حتَّىٰ وفاتَهُ .

أَخوهُ : مُحمَّدٌ ٱلصَّغيرُ ، كانَ فاضلاً أَديباً ، أَوردَ لهُ صاحبُ

---

(١) كَما روىٰ ذلكَ مسلمٌ (١٧) في كتابِ ٱلإيمانِ أَنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ قالَ للأَشَجِّ ـ أَشجِّ عبدِ ٱلقيسِ ـ : « إِنَّ فِيْكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا ٱللهُ وَرَسُوْلُهُ : ٱلْحِلْمُ وَٱلأَنَاةُ » .

(٢) « ٱلنَّفَسُ » : (٢/ ١٤٥ـ١٤٦) .

« ٱلنَّفَسِ » بيتينِ عارضَ بِهِما بيتَي أَخيهِ ٱلسَّابقَينِ ، وهما قولُهُ :

مَتَىٰ يَجْمَعُ ٱللهُ ٱلشَّتَاتَ وَنَلْتَقِيْ بِأَحْسَنِ حَالٍ فِيْ أَعَزِّ ٱلْمَجَالِسِ
وَتَحْيَا نُفُوْسٌ بِٱلْوِصَالِ وَتَرْتَوِيْ وَتَرْتَاحُ أَرْوَاحٌ بِرَوْحِ ٱلْمَدَارِسِ[1]

وفاةُ ٱلمُؤَلِّفِ رحمهُ ٱللهُ :

لَمْ يُؤَرِّخِ ٱلمترجِمونَ لوفاتِهِ ، كما أَنَّهم لَم يُؤَرِّخوا لمولِدِهِ ، ولٰكنْ يُمكنُ تقريبُ ذلكَ بِأَنَّهُ وُلِدَ في ٱلنِّصفِ ٱلثَّاني مِنَ ٱلقرنِ ٱلثَّاني عَشَرَ ٱلهجريِّ ، وعاشَ مُدَّةً إِلىٰ بِدايَةِ ٱلقرنِ ٱلثَّالِثَ عَشَرَ .

فإِذا كانَ أَخذُهُ عَنِ ٱلشَّيخِ ٱلموقريِّ في أَواخِرِ ٱلقرنِ ٱلثَّاني عَشَرَ ، وٱلموقريُّ تُوُفِّيَ سنةَ : (١٢٠١هـ) .. فلعلَّ مَولِدَ ٱلأَسلافيِّ كانَ في حدودِ عام : (١١٧٠هـ) ، ووفاتَهُ لعلَّها كانَتْ قريباً مِن وفاةِ ٱلسَّيِّدِ ٱلأَهدلِ ٱلَّذي تُوُفِّيَ سنةَ : (١٢٥٠هـ) .

وٱلحمدُ للهِ ربِّ ٱلعالمينَ ، وصلَّىٰ ٱللهُ وسلَّمَ علىٰ أَشرفِ بريَّتِهِ ، وسيِّدِ أَنبيائِهِ ورُسُلِهِ ، سيِّدِنا وحبيبِنا مُحَمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبهِ أَجمعينَ . آمينَ .

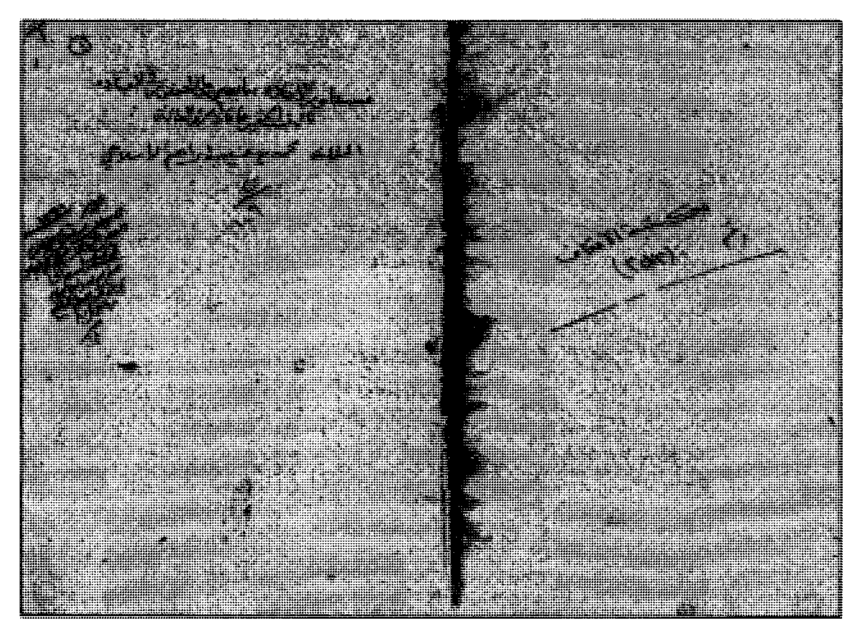
جمعها

محمد أبو بكر عبد الله باذيب

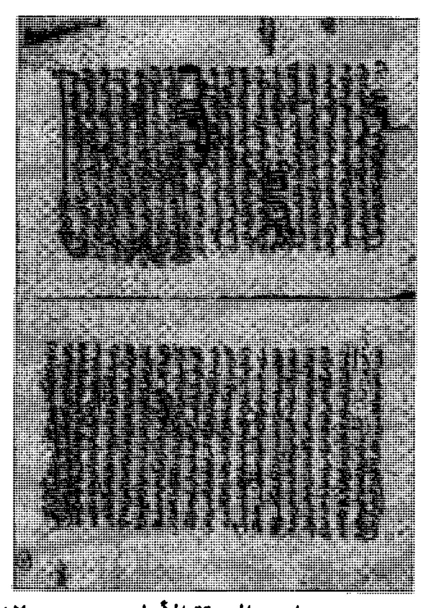
جدَّة ـ في شهرِ ربيعِ ٱلثَّاني من عام (١٤٢٢هـ)

---

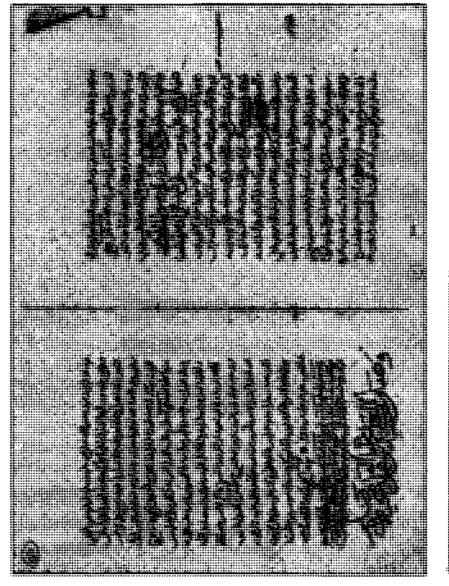
(١) « ٱلنَّفَسُ ٱليمانيُّ » (ص/ ١٤٤) .



راموز ورقة العنوان



راموز الورقة الأولى



راموز الورقة الأخيرة

مَسطورُ الإفادَةِ
بما يُعينُ
على الحضورِ في العبادةِ

تصنيف

الإمامِ العلّامةِ الفقيهِ الزّاهدِ

جمالِ الدّينِ محمّدِ بنِ الحُسينِ بنِ إبراهيمَ الأسلافي

رحمه الله تعالى

اعتنى به

محمّد نور عبد الرحمن كنجو   محمّد غسّان نصوح عزقول

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[مقدمة المصنّف]

اَلحَمدُ للهِ ربِّ ٱلعالَمينَ ، حَمْداً يوافي نِعَمَهُ ، ويُدافِعُ نِقمَهُ ، ويُكافِىءُ مَزيدَهُ ، وأَشهدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أَنَّ سيِّدَنا مُحمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ ، صلَّىٰ ٱللهُ وسلَّم عليهِ بلا تحديدٍ ولا تعديدٍ ، وعلىٰ آلهِ وصحبهِ ، صلاةً وسلاماً دائِمَينِ بدوامِ ٱلمَلِكِ ٱلمَجيدِ[1] .

أَمَّا بعدُ :

فهٰذهِ فوائِدُ جمعتُها ، ودُرَرٌ ٱستخرجتُها مِنْ بحرِ « ٱلإحياءِ »[2] ببركةِ سيِّدِنا ٱلشَّيخِ ، ٱلكامِلِ ، ٱلفَردِ ، ٱلغَوْثِ ، ٱلجامِعِ ، قُطْبِ ٱلأَقطابِ ، ومركزِ دائرةِ ٱلأَحبابِ ، جَليِّ ٱلهُدىٰ : والدِي[3] أَحمدَ بنِ ٱلحَسَنِ ٱلموقريّ ـ أَعادَ ٱللهُ علينا مِنْ

---

(١) وفي هٰذا كنايةٌ عَن دوامِهما أَبداً .

(٢) كتابُ « إِحياءُ علومِ ٱلدِّينِ » مِنْ أَعظمِ ما أُلِّفَ في ٱلتَّربيةِ وتهذيبِ ٱلنَّفسِ ، للإِمامِ حجَّةِ ٱلإِسلامِ أَبي حامدٍ محمَّدِ بْنِ محمَّدٍ ٱلغزاليِّ ، صاحبِ ٱلمؤلَّفاتِ ٱلشَّهيرةِ ، ٱلمتوفَّىٰ بـ(طوسٍ) سنة (٥٠٥ هـ) . رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ .

(٣) الآباء ثلاثة : أبُ ولدك ؛ وأبُ زوجك ؛ وأبُ علمك . . وهو الأفضل . . والمراد بٱلوالدِ هُنا : ٱلوالدُ الرُّوحيُّ ؛ أَي : ٱلمعلِّمُ ، وفضلُهُ ـ كما هوَ معلومٌ =

بركاتِهِ ، ومتَّعَ بحياتِهِ ـ لَمَّا قلتُ لَهُ : (أَنا لا أُحسِنُ أَنْ أُصلِّيَ ، ولا معيَ حضورٌ)[1] ، أَو ما هـٰذا معناهُ . . فقالَ لي : (طالِع « ٱلإِحياءَ ») ، فلمَّا طالعتُ « ٱلإِحياءَ » . . بدا لي جوابُ سؤالي ، فنظمتُ منهُ هـٰذهِ ٱللآلِيءَ علىٰ حَسَبِ غَرضي ، ودواءِ مَرَضي .

* * *

فمِنْ بابِ ٱلعِلْمِ[2] :

ٱلخاصِّيَّةُ ٱلَّتي يتميَّزُ بها ٱلإِنسانُ عَنْ سائِرِ ٱلبهائِمِ . . [هيَ] ٱلعِلمُ .

وٱلإِنسانُ إِنسانٌ بما هوَ شريفٌ لأَجلِهِ ، وليسَ ذلكَ لقوَّةِ شخصِهِ ؛ فإِنَّ ٱلجَمَلَ أَقوىٰ منهُ . ولا لعِظَمِهِ ؛ فإِنَّ ٱلفيلَ أَعظمُ منهُ . ولا لشجاعتِهِ ؛ فإِنَّ ٱلسَّبُعَ أَشجَعُ منهُ . ولا ليأْكُلَ ؛ فإِنَّ

= أَعظَمُ مِنْ فضلِ ٱلأَبِ ؛ لأَنَّ ٱلأَبَ يسعىٰ لإِسعادكَ في ٱلحياةِ ٱلفانيةِ ، وهوَ سببُ وجودِكَ في هـٰذهِ ٱلدَّارِ ٱلدَّنيَّةِ . أَمَّا ٱلمعلِّمُ : فإِنَّهُ يسعىٰ لإِسعادك في ٱلحياةِ ٱلأُخرويَّةِ ٱلباقيةِ ، ولولاهُ لانساقَ كلُّ ما حصلَ مِنْ جهةِ ٱلأَبِ إِلىٰ ٱلهلاكِ وٱلشَّقاءِ . « الإحياء » (١/ ٩٣) بتصرُّفٍ وزيادةٍ .

(١) أُنظُر ـ بصَّرنا ٱللهُ وإِيَّاكَ ـ كيفَ يلجأُ ٱلسَّالكونَ ٱلصَّادِقونَ إِلىٰ أَهلِ ٱلمعرفةِ وٱلصَّلاحِ ؛ لمعالجةِ قلوبهم ، كما يلجأُ ٱلنَّاسُ إِلىٰ ٱلأَطبَّاءِ لمعالجةِ أبدانهم ، علماً أَنَّ مرضَ ٱلقلبِ أَخطَرُ مِنْ مرضِ ٱلبدنِ ، وعلاجُهُ أَصعبُ .

(٢) كما في « الإحياء » (١/ ١٣) .

ٱلثَّورَ أَوسعُ بطناً منهُ . ولا ليُجامِعَ ؛ فإِنَّ أَخسَّ ٱلعصافيرِ أَقوىٰ علىٰ ٱلسِّفادِ(١) منهُ ؛ بل لَمْ يُخْلَقْ إِلاَّ للعِلمِ(٢) .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/٦٥] :

وأَمَّا ٱلقِسمُ ٱلمحمودُ إِلىٰ أَقصىٰ غاياتِ ٱلاستقصاءِ : **فهوَ ٱلعِلمُ بٱللهِ تعالىٰ** ، وبصفاتِهِ ، وأَفعالِهِ ، وسُنَّتِهِ في خَلْقِهِ ، وحِكْمتِهِ في ترتيبِ ٱلآخرَةِ علىٰ ٱلدُّنيا ؛ فإِنَّ هٰذا عِلْمٌ مطلوبٌ لذاتِهِ ، وللتَّوصُّلِ بِهِ إِلىٰ سعادَةِ ٱلآخِرَةِ .

وبذلُ ٱلمقدورِ فيهِ ـ إِلىٰ أَقصىٰ ٱلجُهْدِ . . قصورٌ عَنْ حَدِّ ٱلواجِبِ ؛ فإِنَّهُ ٱلبحرُ ٱلَّذي لا يُدْرَكُ غَوْرُهُ ، وإِنَّما يجوزُ ٱلمحبُّونَ علىٰ سواحلِهِ وأَطرافِهِ بقَدْرِ ما يُسِّرَ لَهُم .

---

(١) السِّفادُ : نزوُ ذَكَرِ ٱلطَّائِرِ علىٰ أُنثاهُ . لذا قيلَ : أَنْهَمُ ٱلحيواناتِ ٱلثَّورُ ، وأَسْبقُها ٱلذُّبابُ .

(٢) أَي : لَمْ يُخْلَقِ ٱلإِنسانُ إِلاَّ للعلمِ بٱللهِ تعالىٰ ، ومعرفتِهِ ، وتوحيدِهِ ، وعبادتِهِ ؛ لقولِهِ تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] .
فبهٰذهِ ٱلخاصِّيَّة يتميَّزُ بها ٱلإنسانُ عَنْ غيرِهِ مِنَ ٱلمخلوقاتِ ٱلأُخرىٰ ، فإِذا عَدِمَ ٱلعِلمَ بٱللهِ تعالىٰ . . بقيَ ٱلقَدْرُ ٱلمشتركُ بينَهُ وبينَ ٱلبهائِمِ ، وهٰذا ٱلقَدْرُ هوَ ٱلحيوانيَّةُ ٱلمَحضَةُ ، فلا يبقىٰ فيهِ فضلٌ عليهم ، بَلْ يكونُ شرّاً منهُم ، كما قالَ تعالى في هٰذا ٱلنَّوعِ مِنَ ٱلنَّاسِ : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [سورة الفرقان : ٤٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٢] .

وإنَّما ٱلأَهمُّ ٱلَّذي أَهملَهُ ٱلكُلُّ . . **عِلْمُ صفاتِ ٱلقلبِ** ، وما يُحمَدُ منها وما يُذَمُّ ؛ إِذْ لا ينفَكُّ بَشَرٌ عَنِ ٱلصِّفاتِ ٱلمذمومَةِ ، مثلِ : (ٱلحِرصِ ، وٱلحسدِ ، وٱلرِّياءِ ، وٱلعُجْبِ ، وٱلكِبْرِ ، وَأَخواتِها) ، وجميعُ ذلكَ مُهلِكاتٌ ، وإِهمالُها مِنَ ٱلواجباتِ ، معَ أَنَّ ٱلاشتغالَ بٱلأَعمالِ ٱلظَّاهِرَةِ يُضاهي ٱلاشتغالَ بطلاءِ ظاهرِ ٱلبَدَنِ عندَ ٱلتَّأَذِّي بٱلجَرَبِ وٱلدَّماميلِ ، وٱلتَّهاونِ بإِخراجِ ٱلمادَّةِ بٱلفَصْدِ[1] وٱلإِسهالِ .

وحشويَّةُ ٱلعُلماءِ[2] يُشيرونَ بٱلأَعمالِ ٱلظَّاهرةِ كما يُشيرُ ٱلطُّرُقيَّةُ مِنَ ٱلأَطباءِ[3] بطِلاءِ ظاهِرِ ٱلبَدَنِ . وعُلماءُ ٱلآخرةِ لا يُشيرونَ إِلاَّ بتطهيرِ ٱلباطِنِ ، وقطعِ موادِّ ٱلشَّرِّ بإِفسادِ منابِتِها ، وقلعِ مغارِسها [مِنَ] ٱلقلبِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ٤٠] :

وما فَضَلَ أَبو بكرٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ ٱلنَّاسَ بكثرَةِ صيامٍ

---

(١) الفصدُ : هوَ إِخراجُ ٱلدَّمِ ، وفي معناهُ ٱلحجامةُ . « إتحاف السَّادة المتَّقين » (١/ ٢٦٩) .

(٢) حشويَّةُ ٱلعلماءِ : هُمُ ٱلَّذينَ يقتنعونَ بٱلقِشْرِ دونَ ٱللُّبِّ ، وينظرونَ إِلىٰ ٱلظَّاهرِ دونَ ٱلاهتمامِ بٱلباطنِ . « إتحاف » (١/ ٢٦٩) بتصرُّفٍ .

(٣) وهُمُ ٱلَّذينَ يجلسونَ على ٱلطُّرقِ ويداوونَ ٱلنَّاسَ علىٰ جهلٍ منهُم . « إتحاف » (١/ ٢٦٩) .

ولا صلاةٍ ، ولا بكثرةِ روايَةٍ ، ولا فتوىٰ ، ولا كلام ؛ ولٰكنْ بشيءٍ وَقَرَ في ٱلصَّدْرِ . كما شَهدَ لَهُ سيِّدُ ٱلمرسلينَ[1] صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

وليكُنْ حِرصُكَ في طلبِ ذلكَ ٱلسِّرِّ ؛ فهوَ ٱلجَوْهَرُ ٱلنَّفيسُ ، وٱلدُّرُّ ٱلمكنونُ . وَدَعْ عنكَ ما تطابقَ أَكثرُ ٱلنَّاسِ عليهِ ، وعلىٰ تفخيمِهِ وتعظيمهِ لأَسبابٍ ودَواعٍ يطولُ تفصيلُها .

فلقد قُبِضَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَنْ آلافٍ مِنَ ٱلصَّحابَةِ كلُّهُم عُلماءُ بِٱللهِ ، أَثنىٰ عليهِم رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ولَمْ يكُنْ فيهم مَنْ يُحْسِنُ صنعَةَ ٱلكلامِ ، ولا نَصَّبَ نفسَهُ للفُتيا منهُم أَحدٌ إِلاَّ بضعَةَ عشرَ رجُلاً[2] .

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (لا أَصل لهٰذا مرفوعاً ، وإِنَّما يُعرفُ في قولِ بكرِ بْنِ عبدِ ٱللهِ ٱلمُزَنيِّ) ، كذلك رواهُ ٱلحكيمُ ٱلتِّرمذيُّ في « نوادره » [ص/ ٣١-٣٢] ، وبكرٌ هٰذا ثقة توفِّي سنة (١٠٦هـ) روى لَهُ ٱلجماعةُ .
ولفظ الحكيم : (مَا فَضَلَ أَبُوْ بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَلاَةٍ وَلاَ بِكَثْرَةِ صِيَامٍ ، وَلَـٰكِنْ بِسِرٍّ وَقَرَ فِيْ صَدْرِهِ) . « إتحاف » (١/ ١٨٧) .

(٢) مثلَ : ٱبنِ عبَّاسٍ ، وٱبنِ مسعودٍ ، وأَبي ٱلدَّرداءِ ، وعليٍّ ، وحذيفةَ ، ومعاذٍ ، وأَبي هُريرةَ ، وأَنسٍ ، وزيدِ ابنِ ثابتٍ ، وعمرَ بنِ ٱلخطَّابِ ، وعائشةَ ٱلصِّدِّيقةِ ، رضوانُ ٱللهِ تعالىٰ عليهِم أَجمعين .
وأَمَّا ٱلَّذينَ كانوا يُفتُونَ في عهدِ رسولِ ٱللهِ ـ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ فهُم أَهلُ ٱلخلافةِ ، ومعاذٌ ، وأُبَيٌّ ، وٱبنُ عوفٍ ، وٱبنُ ثابتٍ رضيَ ٱلله تعالىٰ عنهُم . « إتحاف » (١/ ١٨٨) بتصرُّفٍ .

ولقد كانَ ٱبنُ عُمَرَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُما منهُم ، وكانَ إذا سُئِلَ عَنِ ٱلفُتيا . . يقولُ للسَّائِلِ : (اِذهَبْ إِلىٰ هٰذا ٱلأَميرِ ٱلَّذي تَقَلَّدَ أُمورَ ٱلنَّاسِ ، وضَعها في عُنُقِهِ) . إِشارةً إِلىٰ أَنَّ ٱلفُتيا في ٱلقضايا وٱلأَحكامِ مِنْ توابِعِ ٱلوِلايةِ وٱلسَّلطنَةِ[1] .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/٣٦] :

وأَمَّا ٱلقسمُ ٱلثَّاني[2] ـ وهوَ عِلْمُ ٱلمعاملَةِ ـ : **فهوَ عِلمُ أَحوالِ ٱلقلبِ** .

أَمَّا ما يُحْمَدُ منها : فكٱلصَّبرِ ، وٱلشُّكرِ ، وٱلخوفِ ، وٱلرَّجاءِ ، وٱلرِّضا ، وٱلزُّهدِ ، وٱلتَّقوىٰ ، وٱلقَناعةِ ، وٱلسَّخاوةِ ، ومعرفَةِ ٱلمِنَّةِ للهِ تعالىٰ في جميعِ ٱلأَحوالِ ، وٱلإِحسانِ ، وحُسْنِ ٱلظَّنِّ ، وحُسْنِ ٱلخُلُقِ ، وحُسْنِ ٱلمُعاشَرَةِ ، وٱلصِّدقِ ، وٱلإِخلاصِ .

---

(١) وذلكَ لقولِ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فيما أَخرجهُ ٱبنُ ماجه رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ (٣٧٥٣) عن عبدِ ٱللهِ بنِ عَمرِو بْنِ ٱلعاصِ رضيَ ٱللهُ عنهُما : « لاَ يَقُصُّ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ إِلاَّ أَمِيرٌ ، أَوْ مَأْمُوْرٌ ، أَوْ مُرَاءٍ » .

(٢) أَي : مِنْ علومِ طريقِ ٱلآخرةِ ، وهيَ كما ذَكَرَ ٱلإِمامُ ٱلغزاليُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « ٱلإِحياء » (١/ ٣٤) قسمانِ :
١ـ ٱلأَوَّلُ : علمُ ٱلمكاشفةِ ، وهوَ علمُ ٱلباطنِ .
٢ـ ٱلثَّاني : هوَ ٱلمذكور هاهنا .

فمعرفَةُ حقائِقِ هٰذِهِ ٱلأُمورِ ، وحدودِها ، وأَسبابِها ٱلَّتي تُكْتَسَبُ بِها ، وثمراتِها ، وعلاماتِها ، ومعالجَةِ ما ضَعُفَ منها حتَّىٰ يقوىٰ ، وما زالَ حتَّىٰ يعودَ . . مِنْ عِلْمِ ٱلآخرَةِ .

وأَمَّا ما يُذَمُّ : فخوفُ ٱلفقرِ ، وسَخَطُ ٱلمقدورِ ، وٱلغِلُّ ، وٱلحسدُ ، وٱلحِقدُ ، وٱلغِشُّ ، وطلبُ ٱلعُلوِّ ، وحبُّ ٱلثَّناءِ ، وحبُّ طولِ ٱلبقاءِ في ٱلدُّنيا للتَّمتُّعِ ، وٱلكِبْرُ ، وٱلرِّياءُ ، وٱلغضبُ ، وٱلأَنَفَةُ ، وٱلعداوةُ ، وٱلبغضاءُ ، وٱلطَّمعُ ، وٱلبُخلُ ، وٱلرَّغبةُ ، وٱلبَذَخُ ، وٱلأَشَرُ[1] ، وٱلبَطَرُ ، وتعظيمُ ٱلأَغنياءِ ، وٱلاستهانَةُ بِٱلفقراءِ ، وٱلفَخْرُ ، وٱلخُيَلاءُ ، وٱلتَّنافُسُ[2] ، وٱلمباهاةُ ، وٱلاستكبارُ عَنِ ٱلحقِّ ، وٱلخوضُ في ما لا يَعني ، وحبُّ كثرةِ ٱلكلامِ ، وٱلصَّلَفُ[3] ، وٱلتَّزيُّنُ للخَلْقِ ، وٱلمداهنَةُ ، وٱلعُجْبُ ، وٱلاشتغالُ عَنْ عيوبِ ٱلنَّفْسِ بعيوبِ ٱلنَّاسِ ، وزوالُ ٱلحُزْنِ مِنَ ٱلقلبِ ، وخروجُ ٱلخشيةِ منهُ ، وشدَّةُ ٱلانتصارِ لِلنَّفْسِ إِذا نالَها ٱلذُّلُّ ، وضَعْفُ ٱلانتصارِ للحقِّ ، وٱتِّخاذُ إِخوانِ ٱلعلانيَةِ علىٰ عداوَةِ ٱلسِّرِّ ، وٱلأَمنُ مِنْ مكرِ ٱللهِ

---

(١) **ٱلأَشَرُ** : كُفرُ النِّعمةِ .

(٢) **ٱلتنافُسُ ٱلممقوتُ** : ٱلَّذي يُصاحِبُهُ عداوةٌ بينَ ٱلمتنافسينَ ، أَمَّا ٱلمحمودُ : ففي ٱلأَعمالِ ٱلحميدةِ ولا يُصاحبُها عِداءٌ .

(٣) **الصَّلَف** : مجاوزةُ القَدْرِ في الظَّرفِ وٱلبراعةِ ، وٱلادِّعاءُ فوقَ ذلكَ تكبُّراً . « لسان العرب » (٩/ ١٩٦) .

تعالىٰ في سَلْبِ ما أَعطىٰ ، وٱلاتِّكالُ علىٰ ٱلطَّاعةِ ، وٱلمكرُ ، وٱلخيانَةُ ، وٱلمخادعَةُ ، وطولُ ٱلأَملِ ، وٱلقسوةُ ، وٱلفَظاظَةُ ، وٱلفَرَحُ بٱلدُّنيا ، وٱلأَسَفُ علىٰ فواتِها ، وٱلأُنسُ بِٱلمخلوقينَ ، وٱلتَّوحُّشُ لفِراقِهِم ، وٱلجَفاءُ ، وٱلطَّيْشُ ، وٱلعَجَلَةُ ، وقِلَّةُ ٱلحياءِ ، وقِلَّةُ ٱلرَّحمةِ .

فهٰذهِ ـ وأَمثالُها مِنْ صفاتِ ٱلقلبِ[1] ـ **مغارِسُ ٱلفواحِشِ ، ومنابِتُ ٱلأَعمالِ ٱلمحظورَةِ .**

وأَضْدادُها ـ وهيَ : ٱلأَخلاقُ ٱلمحمودَةُ ـ **منبَعُ ٱلطَّاعاتِ وٱلقُرُباتِ .**

فٱلعِلْمُ بحدودِها ، وأَسبابِها ، وحقائِقِها ، وثمراتِها ، وعلاجِها . . **هُوَ عِلْمُ ٱلآخرَةِ** . وهو فرضُ عينٍ في فتوىٰ عُلماءِ ٱلآخرَةِ .

وٱلمُعْرِضُ عنها . . **هالِكٌ بسطوَةِ مَلِكِ ٱلملوكِ في ٱلآخرةِ .**

كما أَنَّ ٱلمُعرِضَ عَنِ ٱلأَعمالِ ٱلظَّاهِرَةِ . . هالِكٌ بسيفِ سَلاطينِ ٱلدُّنيا بِحكمِ فتوى فُقهاءِ ٱلدُّنيا .

---

(١) مثل : ٱلحرصِ ، وٱللُّؤمِ ، وسوءِ ٱلخُلُقِ ، وٱتِّباعِ الهوىٰ ، وٱلرُّكونِ إلىٰ ٱلدُّنيا ، وٱلتَّجبُّرِ ، وٱلظُّلمِ ، وٱلعِنادِ ، وٱلبَغيِ ، وٱلغِيبةِ ، وٱلنَّميمةِ ، وطلبِ ٱلمغالبةِ بٱلباطِلِ ، وٱلإنكارِ علىٰ أَهلِ ٱللهِ ، وٱلاعتراضِ في ٱلمقاديرِ . « إتحاف » (١/ ١٦٨) بتصرُّفٍ .

ولو سُئِلَ فقيهٌ عَنْ معنىً مِنْ هـٰذهِ ٱلمعاني ـ حتَّىٰ عَنِ ٱلإخلاصِ مثلاً ، أو عَنِ ٱلتَّوكُّلِ ، أَو عَنْ وجهِ ٱلاحترازِ عَنِ ٱلدُّنيا ـ . . لتوقَّفَ فيهِ ، معَ أَنَّهُ فَرْضُ عينِهِ ؛ ٱلَّذي في إِهمالِهِ هلاكُهُ في ٱلآخِرَةِ .

ولو سأَلْتَهُ عَنِ ٱللِّعانِ وٱلظِّهارِ ، وٱلسَّبَقِ وٱلرَّمي ، وٱلسِّيَرِ ، وٱلدِّماءِ . . لسَرَدَ عليكَ مجلَّداتٍ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/٦٩] :

فكُنْ مِنْ شياطينِ ٱلجنِّ في أَمانٍ ، وٱحترِزْ مِنْ شياطينِ ٱلإنسِ[١] ؛ فإِنَّهُم أَراحوا شياطينَ ٱلجنِّ مِنَ ٱلتَّعَبِ في ٱلإغواءِ وٱلإضلالِ .

وبٱلجُملَةِ : فٱلمَرْضيُّ عندَ ٱلعُقلاءِ . . أَنْ تُقَدِّرَ نفسَكَ في ٱلعالَمِ وحدَكَ معَ ٱللهِ ، وبينَ يديكَ ٱلموتُ ، وٱلعَرْضُ ، وٱلحِسابُ ، وٱلجَنَّةُ وٱلنَّارُ .

وتأَمَّلْ فيما يَعنيْكَ ممَّا بينَ يديكَ ، وَدَعْ عنكَ ما سواهُ[٢] وٱلسَّلامُ علىٰ أَهلِ ٱلتَّسليمِ .

---

(١) وهُم علماءُ ٱلسُّوءِ ، ٱلَّذينَ يُدفَعونَ عَنِ ٱلمرءِ بٱلإعراضِ وٱلابتعادِ عنهُم ، بينما شياطينُ ٱلجنِّ يُدفَعونَ بٱلاستعاذةِ بٱللهِ . « إتحاف » (١/ ٢٧٦) .

(٢) وهـٰذه ٱلعبارة جامعةٌ لمحاسنِ الأخلاق . . وفيها تحقيق لقوله ﷺ : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ، فلتُفهم .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/٧٦] :

اِعلَمْ وتحقَّقْ : أَنَّ ٱلمُناظَرَةَ ٱلموضوعَةَ لقصدِ ٱلغَلَبَةِ ، وٱلإفحامِ ، وإظهارِ ٱلفَضْلِ وٱلشَّرَفِ عندَ ٱلنَّاسِ ، وقصدِ ٱلمُباهاةِ ، وٱلمُماراةِ ، وٱستمالَةِ وجوهِ ٱلنَّاسِ . . هيَ منبعُ جميعِ ٱلأَخلاقِ ٱلمذمومَةِ عندَ ٱللهِ ، ٱلمحمودَةِ عندَ عدوِّ ٱللهِ إبليسَ لعنَهُ ٱللهُ .

ونِسبَتُها إلىٰ ٱلفواحِشِ ٱلباطِنَةِ مِنَ ٱلكِبْرِ ، وٱلعُجْبِ ، وٱلحَسَدِ ، وٱلمُنافَسَةِ ، وتزكيَةِ ٱلنَّفْسِ ، وحُبِّ ٱلجاهِ وغيرِها . . كنسبَةِ شُرْبِ ٱلخَمرِ إلىٰ ٱلفواحِشِ ٱلظَّاهِرَةِ مِنَ ٱلزِّنا ، وٱلقتلِ ، وٱلقَذْفِ ، وٱلسَّرِقَةِ .

* * *

ومِنْ بابِ آدابِ ٱلمتعلِّمِ وٱلتَّعليمِ(١) :

ٱلعلمُ عبادَةُ ٱلقلبِ ، وصلاحُ ٱلسِّرِّ ، وقربَةُ ٱلباطِنِ إلىٰ ٱللهِ تعالىٰ ، وكما لا تصحُّ ٱلصَّلاةُ ٱلَّتي هيَ وظيفةُ ٱلجوارحِ ٱلظَّاهِرَةِ إلاَّ بتطهيرِ ٱلظَّاهِرِ عَنِ ٱلأَحداثِ وٱلأَخباثِ . . فكذلكَ لا تصِحُّ عبادَةُ ٱلباطِنِ ـ وهيَ عبادَةُ ٱلقلبِ بٱلعلمِ ـ إلاَّ بعدَ طهارَتِهِ عَن خبائِثِ

---

(١) كما في « الإحياء » (١/ ٨٢) .

ٱلأخلاقِ ، وأنجاسِ ٱلأوصافِ .

قـالَ صلَّـىٰ ٱللهُ عليـهِ وآلـهِ وسلَّـمَ : « بُنِـيَ ٱلـدِّيْـنُ عَلَـىٰ ٱلنَّظَافَةِ »[1] . وهوَ كذلكَ ظاهِراً وباطناً .

وقالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ .. إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ .. ﴾[2] تنبيهاً للعقولِ علىٰ أَنَّ ٱلطَّهارَةَ وٱلنَّجاسَةَ غيرُ مقصورَةٍ علىٰ ٱلظَّواهِرِ ٱلمُدْرَكَةِ بِٱلحِسِّ .

فٱلمُشرِكُ قد يكونُ نظيفَ ٱلثَّوبِ ، مغسولَ ٱلبَدَنِ ، ولـٰكنَّهُ نَجسُ ٱلجَوْهَرِ ؛ أَي : باطنُهُ مُلَطَّخٌ بِٱلخَبائِثِ ، قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لاَ تَدْخُلُ ٱلْمَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيْهِ كَلْبٌ »[3] .

---

(١) قالَ ٱلحافظُ ٱلعِراقيُّ : لَمْ أَجِدْهُ ، وكذا نقلَهُ عنِ السَّخاوي في « ٱلمقاصدِ ٱلحسنةِ » (٣٠٢) .
لـٰكن أَخرجَ نحوَهُ عن سعيدِ بنِ ٱلمسيَّبِ ٱلتِّرمذيُّ (٢٧٩٩) في ٱلأَدبِ ، وقالَ : هـٰذا حديثٌ غريبٌ . وهوَ عندَ ٱلبزَّارِ (١١٤) ، وبلا عزوٍ ذكرَهُ الحكيمُ ٱلتِّرمذيُّ في « نوادرِ ٱلأُصولِ » (ص/٣٤٨) ، وعندَ ٱلتِّرمذيِّ عقَّبَهُ بحديثِ عن عامرِ بنِ سعدٍ ، عن أَبيهِ رفعَهُ مثلَهُ إِلاَّ أَنَّهُ قالَ : « نَظِّفُوْا أَفْنِيَتَكُمْ » .
وأَخرجَ ٱبنُ حبَّانَ في « ٱلمجروحينَ وٱلضُّعفاءِ » (١/ ٢٧٩) عن عامرِ بنِ سعدٍ ، عن أَبيهِ مرفوعاً : « إِنَّ ٱللهَ نَظِيْفٌ يُحِبُّ ٱلنَّظَافَةَ » .
(٢) سورة التوبة : (٢٨) .
(٣) أَخرجَهُ عن أَبي طلحةَ الأَنصاريِّ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلبخاريُّ (٣٠٥٣) ومسلمٌ (٢١٠٦) .

والقلبُ بيتٌ هوَ مَنزِلُ الملائِكَةِ ، ومهبِطُ أثَرِهِم ، ومحلُّ استقِرارِهِم .

والصِّفاتُ الرَّديئَةُ مثلُ : الغضبِ ، والشَّهوةِ ، والحِقدِ ، والحَسَدِ ، والكِبْرِ ، والعُجْبِ ، وأَخواتِها . . كِلابٌ نابِحَةٌ ، فأنَّىٰ تَدْخُلُهُ الملائِكَةُ وهوَ مَشحونٌ بِالكِلابِ ؟!

ونورُ العِلْمِ لا يقذِفُهُ اللهُ تعالىٰ فِي القلبِ إلاَّ بواسِطَةِ الملائِكَةِ .

[قَالَ اللهُ تعالىٰ] : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[1] .

وهٰكذا ما يُرسَلُ مِنْ رحمَةِ العلومِ إلىٰ القلوبِ إنَّما تتولاَّها الملائِكَةُ المُوَكَّلونَ بها ، وهُمُ المُقدَّسونَ المُطهَّرونَ المُبرَّؤُونَ عَنِ الصِّفاتِ المذموماتِ ، فلا يُلاحِظونَ إلاَّ طَيِّباً ، ولا يَعمرُونَ بما عندَهُم مِنْ خزائِنِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ إلاَّ طَيِّباً طاهِراً .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/٨٣] :

واعلَمْ : أَنَّ القلبَ المشحونَ بالغضبِ ، والشَّهوةِ ، والشَّرَهِ إلىٰ الدُّنيا ، والتَّكالُبِ عليها ، والحِرْصِ علىٰ المالِ ، والتَّمزيقِ

---

(١) سورة الشورىٰ : (٥١) .

لأعراضِ ٱلنَّاسِ . كلبٌ في ٱلمعنىٰ ، وقلبٌ في ٱلصُّورةِ .

فنورُ ٱلبصيرةِ يُلاحِظُ ٱلمعاني لا ٱلصُّوَرَ ، وٱلصُّوَرُ في هـٰذا ٱلعالَمِ غالِبَةٌ علىٰ ٱلمعاني ، وٱلمعاني باطِنَةٌ فيها ، **وفي ٱلآخِرَةِ تَتبَعُ ٱلصّورُ ٱلمعانيَ ، وتغلِبُ ٱلمعاني .**

فلذلكَ يُحشَرُ كلُّ شخصٍ علىٰ صورَتِهِ ٱلمعنويَّةِ ، فَيُحْشَرُ ٱلمُمَزِّقُ لأَعراضِ ٱلنَّاسِ كلباً ضارياً ، وٱلشَّرِهُ إِلىٰ أَموالِهِم ذِئْباً عادياً ، وٱلمتكبِّرُ عليهِم في صورَةِ نَمِرٍ ، وطالِبُ الرِّياسَةِ في صورةِ أَسدٍ ، وقد وردَتْ بذلِكَ ٱلأَخبارُ ، وشَهِدَ بِهِ ٱلاعتبارُ ، عندَ ذوي ٱلبصائِرِ وٱلأَبصارِ .

فإِنْ قُلتَ : كمْ مِنْ طالِبِ رديءِ ٱلأَخلاقِ حَصَّلَ ٱلعلومَ؟! فهيهاتَ ، ما أَبعدَهُ عَنِ ٱلعِلْمِ ٱلحقيقيِّ ٱلنَّافِعِ في ٱلآخِرَةِ ، ٱلجالِبِ للسَّعادَةِ!!

فإِنَّ مِنْ أَوائِلِ ذلكَ ٱلعِلْمِ أَنْ يظهَرَ لَهُ أَنَّ ٱلمعاصيَ سُمومٌ قاتِلَةٌ مُهلِكَةٌ ، وهل رأيتَ مَنْ يتناوَلُ شيئاً معَ عِلمِهِ بكونِهِ سُمّاً قاتلاً ؟!

إِنَّما ٱلَّذي تَسمَعُهُ مِنَ ٱلمُتَرسِّمينَ[1] حديثٌ يُلفِّقُونَهُ[2] بأَلسنتِهِمْ مَرَّةً ، ويردِّدُونَهُ بقلوبِهِم أُخرىٰ ، وليسَ ذلِكَ مِنَ ٱلعِلْمِ في شيءٍ .

---

(١) المترَسِّمونَ : هُمُ ٱلآخذونَ برسومِ ٱلعلمِ ٱلظَّاهريَّةِ .

(٢) يُلفِّقونَهُ : يزخرفونَهُ ويزيِّنونَهُ وهوَ كَذِبٌ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ٨٥] :

خطأُ مُرشِدِهِ ـ أَي : ٱلمتعلِّمِ ـ أَنفعُ لَهُ مِنْ صوابِهِ في نفسِهِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ٨٦] :

قالَ بعضُهُم : (مَنْ رآني في ٱلبدايَةِ . . صارَ صِدِّيقاً ، ومَنْ رآني في ٱلنِّهايَةِ . . صارَ زِنديقاً) ؛ إِذِ ٱلنِّهايَةُ تَرُدُّ ٱلأَعمالَ إِلىٰ ٱلباطِنِ ، وتُسْكِنُ ٱلجوارِحَ إِلاَّ عَنْ رواتِبِ ٱلفرائِضِ ، فيتراءى للنَّاظِرِ أَنَّها بَطَالَةٌ وكَسَلٌ وإِهمالٌ ، وهيهاتَ فذلِكَ مُرابطَةُ ٱلقلبِ في عينِ ٱلشُّهودِ وٱلحضورِ ، وملازمَةُ ٱلذِّكْرِ ٱلَّذي هوَ أَفضلُ ٱلأَعمالِ علىٰ ٱلدَّوامِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ٩٠] :

وٱلعلومُ أَيضاً ثلاثةُ أَقسامٍ :

قِسْمٌ يجري مَجرىٰ إِعدادِ ٱلزَّادِ وٱلرَّاحِلَةِ ، وشِراءِ ٱلنَّاقَةِ ، وهوَ عِلْمُ ٱلطِّبِّ وٱلفِقْهِ ، وما يتعلَّقُ بمصالِحِ ٱلبَدَنِ في ٱلدُّنيا .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ٩٠] :

[وقسمٌ] يجري مَجرىٰ سلوكِ ٱلبَوادي ، وقطع ٱلعَقباتِ ـ وهوَ تطهيرُ ٱلباطِنِ مِنْ كُدُوراتِ ٱلصِّفاتِ ـ وطلوع تلكَ ٱلعَقباتِ ٱلشَّامخَةِ ٱلَّتي عَجَزَ عنها ٱلأَوَّلونَ وٱلآخِرونَ إِلاَّ ٱلمُوَفَّقينَ ، فهٰذا سُلوكُ ٱلطَّريقِ ، وتحصيلُ علمِهِ كتحصيلِ عِلْمِ جهاتِ ٱلطَّريقِ ومنازِلِهِ .

وكما لا يُغني عِلْمُ ٱلمنازِلِ ، وطريقِ ٱلبَوادي دونَ سُلوكِها . . فكذلكَ لا يُغني عِلْمُ تهذيبِ ٱلأَخلاقِ دونَ مُباشرَةِ التَّهذيبِ ، ولـٰكنَّ ٱلمباشرَةَ دونَ ٱلعِلْمِ غيرُ مُمكنة .

وقسمٌ ثالِثٌ يجري مَجرىٰ نَفْسِ ٱلحجِّ وأَركانِهِ ، وهوَ ٱلعِلْمُ بٱللهِ تعالىٰ ، وصفاتِهِ ، وملائِكَتِهِ ، وأَفعالِهِ ، وجميعِ ما ذكرناهُ في تراجمِ عِلمِ ٱلمكاشَفَةِ .

وها هُنا نجاةٌ وفوزٌ بٱلسَّعادَةِ ، وٱلنَّجاةُ حاصِلَةٌ لكُلِّ سالِكٍ للطَّريقِ إِذا كانَ غَرَضُهُ ٱلمقصِدَ ٱلحقَّ وهوَ ٱلسَّلامَةُ .

وأَمَّا ٱلفوزُ بٱلسَّعادَةِ : فلا ينالُهُ إِلاَّ ٱلعارِفونَ بٱللهِ ، وهُمُ ٱلمقرَّبونَ ٱلمنعَّمونَ في جوارِ ٱللهِ تعالىٰ بٱلرَّوْحِ وٱلرَّيحانِ وجنَّةِ ٱلنَّعيمِ .

وأَمَّا ٱلمَمْنُوعونَ دونَ ذِروَةِ ٱلكمالِ : فلَهُمُ ٱلنَّجاةُ وٱلسَّلامَةُ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ٩٢] :

ولـٰكنَّهُ ـ أَي : ٱلإنسانُ ـ خُلِقَ علىٰ وجهٍ لا يُمكِنُهُ ٱلاستقلالُ بٱلسَّعيِ في تحصيلِ طعامِهِ بٱلحِراثَةِ وٱلزَّرْعِ وٱلطَّبْخِ ، وفي تحصيلِ ٱلمَلْبَسِ وٱلمَسْكَنِ ، وفي إِعدادِ آلاتِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فٱضطُرَّ إِلىٰ ٱلمخالَطَةِ وٱلاستعانَةِ ، ومهما ٱختلَطَ ٱلنَّاسُ ، وثارَتْ شهواتُهُم . . تجاذبوا أَسبابَ ٱلشَّهواتِ ، وتنازَعوا ، وتقاتَلوا ، وحصلَ مِنْ

قِتالِهِم هلاكُهُمْ بسببِ ٱلتَّنافُسِ مِنْ خارِجٍ ، كما يَحصُلُ هلاكُهُم بسببِ تضادِّ ٱلأَخلاطِ مِنْ داخِلٍ .

وبٱلطِّبِّ يُحفَظُ ٱلاعتدالُ في ٱلأَخلاطِ ٱلمتنازِعَةِ مِنْ داخِلٍ ، وبٱلسِّياسَةِ وٱلعَدلِ يُحفَظُ ٱلاعتدالُ في ٱلتَّنافُسِ مِنْ خارِجٍ .

وعِلْمُ طَريقِ ٱعتدالِ ٱلأَخلاطِ . . طِبٌّ ، وعِلْمُ طريقِ ٱعتدالِ أَحوالِ ٱلنَّاسِ في ٱلمعاملاتِ وٱلأَفعالِ . . فِقْهٌ ، وكُلُّ ذلكَ يَحفَظُ ٱلبدنَ ٱلَّذي هوَ مطيَّةٌ .

فٱلمُتجرِّدُ لِعلْمِ ٱلفِقْهِ وٱلطِّبِّ إِذا لَمْ يُجاهِدْ نفسَهُ ولَمْ يُصلِحْ قلبَهُ . . كٱلمُتجرِّدِ لشراءِ ٱلنَّاقَةِ وعَلَفِها ، وشراءِ ٱلرَّاوِيَةِ[1] وخَرْزِها ، إِذا لَمْ يسلُكْ باديَةَ ٱلحجِّ .

وٱلمستغرِقُ عُمُرَهُ في دقائِقِ ٱلكلماتِ ٱلَّتي تُحَرَّرُ في مُجادلاتِ ٱلفِقْهِ . . كٱلمستغرِقِ عُمُرَهُ في دقائِقِ ٱلأَسبابِ ٱلَّتي بِها تُستَحكَمُ ٱلخيوطُ ٱلَّتي تُخْرَزُ[2] بِها ٱلرَّاوِيَةُ للحجِّ ، ونِسبةُ هٰؤلاءِ مِنَ ٱلسَّالكينَ لطريقِ إِصلاحِ ٱلقلبِ ٱلموصِلِ إِلىٰ عِلْمِ ٱلمكاشَفَةِ . . كنسبَةِ أُولـٰئِكَ إِلىٰ سالكي طريقِ ٱلحجِّ ، أَو ملابسي أَركانِهِ .

---

(١) الرَّاويةُ : ٱلبعيرُ ، أَوِ ٱلبغْلُ ، أَوِ ٱلحمارُ ٱلَّذي يُستقىٰ عليهِ ، وٱلعامَّةُ تُسمِّي ٱلمزادَةَ : راويةً ، وهوَ جائزٌ ٱستعارةً ، وٱلأَصلُ ما ذكرناهُ . « مختار ٱلصَّحاح » (ص ١١١) .

(٢) أَي : تُخاطُ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ٩٢] :

وٱقبَلِ ٱلنَّصيحةَ مجَّاناً ممَّنْ قامَ عليهِ[١] غالِباً[٢] ، ولَمْ يَصِلْ إِليهِ[٣] إلاَّ بعدَ جُهْدٍ جَهيدٍ ، وجُرأَةٍ تامَّةٍ علىٰ مباينَةِ ٱلخَلْقِ ٱلعامَّةِ وٱلخاصَّةِ في ٱلنُّزوعِ مِنْ تقليدِهِم بمجرَّدِ ٱلتَّشهِّي .

فهٰذا ٱلقَدرُ كافٍ في وظائِفِ ٱلمتعلِّمِ .

* * *

(١) أَي : علىٰ وجدانهِ .

(٢) أَي : علىٰ نفسهِ .

(٣) أَي : إلى إصلاحِ قَلبهِ .

ومنهُ[1] :

في بيانِ وظائِفِ ٱلمُرْشِدِ

ٱعْلَمْ : أَنَّ للإنسانِ في عِلْمِهِ أَربعَةَ أَحوالٍ ، كحالِهِ في ٱقتناءِ ٱلأَموالِ ، إِذ لصاحِبِ ٱلمالِ :

ـ حَالُ ٱستفادَةٍ ؛ فيكونُ مُكْتسِباً .

ـ وحالُ ٱدِّخارٍ ؛ فيكونُ بِهِ غَنيّاً عَنِ ٱلسُّؤالِ .

ـ وحالُ إِنفاقٍ علىٰ نفسِهِ ؛ فيكونُ بهِ مُنتفِعاً .

ـ وحالُ بَذْلٍ لغيرِهِ ؛ فيكونُ بِهِ سَخيّاً مُتَفضِّلاً ، وهوَ أَشرفُ أَحوالِهِ .

وكذلِكَ ٱلعِلْمُ يُقتَنىٰ كما يقْتَنىٰ ٱلمالُ ؛ فلَهُ :

ـ حالُ طلبٍ وٱكتسابٍ .

ـ وحالُ تحصيلٍ يُغني عَنِ ٱلسُّؤالِ .

ـ وحالُ ٱستبصارٍ ، وهوَ ٱلتَّفكُّرُ في ٱلمُحَصَّلِ وٱلتَّمتُّعُ بِهِ .

ـ وحالُ تبصيرٍ ؛ وهوَ أَشرفُ ٱلأَحوالِ .

فمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ . . فهوَ ٱلَّذي يُدعَىٰ عظيماً في مَلكوتِ

---

(١) أي : كما في « الإحياء » (١/ ٩٢) .

ٱلسَّماواتِ[1] ، وأَنَّهُ كٱلشَّمسِ تُضيءُ لغيرِها وهيَ في نفسِها مضيئَةٌ ، وكٱلمِسْكِ ٱلَّذي يُطيِّبُ غيرَهُ وهوَ طيِّبٌ ، وٱلَّذي يَعْلَمُ ولا يعمَلُ بِهِ كٱلدَّفترِ ٱلَّذي يُفيدُ غيرَهُ وهوَ خالٍ ، وكٱلمِسَنِّ ٱلَّذي يَشْحَذُ غيرَهُ ولا يقطَعُ ، وكٱلإبرَةِ ٱلَّتي تكسو غيرَها وهيَ عُريانَةٌ ، وذُبالَةِ ٱلمِصباحِ تُضيءُ لغيرِها وهيَ تحترِقُ[2] .

وفي ذلكَ قيلَ :

مَـا هِـيَ إلاَّ ذُبَـالَـةٌ نُصِبَـتْ   تُضِـيْءُ لِلنَّـاسِ وَهْـيَ تَحْتَـرِقُ

---

(١) ذكرَهُ صاحبُ « ٱلإحياءِ » رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في باب (فضيلةِ ٱلتَّعليم) (١/ ١٦) فقالَ : وقالَ عيسىٰ ﷺ : « مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ . . فَذَلِكَ يُدْعَىٰ عَظِيْماً فِيْ مَلَكُوْتِ ٱلسَّمَاوَاتِ » .

(٢) أَخرجَ ٱلطَّبرانيُّ في « الكبير » ، وٱبنُ ماجه ، وٱلخطيبُ ٱلبغداديُّ في « ٱقتضاءِ ٱلعلمِ ٱلعملَ » (١/ ٤٩) عن جُندبِ بنِ عبد ٱللهِ قالَ : قالَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَثَلُ ٱلْعَالِمِ ٱلَّذِيْ يُعَلِّمُ ٱلنَّاسَ ٱلْخَيْرَ وَيَنْسَىٰ نَفْسَهُ . . كَمَثَلِ ٱلسِّرَاجِ يُضِيْءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ » .

وأَخرجَ ٱلطَّبرانيُّ أَيضاً ، وٱلبزَّارُ عن أَبي بَرْزَةَ ٱلأَسلميِّ بسندٍ فيه ضَعْفٌ : « مَثَلُ ٱلَّذِيْ يُعَلِّمُ ٱلنَّاسَ ٱلْخَيْرَ وَيَنْسَىٰ نَفْسَهُ . . مَثَلُ ٱلْفَتِيْلَةِ ٱلَّتِيْ تُضِيْءُ لِلنَّاسِ وَتَحْرِقُ نَفْسَهَا » .

وقد ترك ٱلمصنِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ قِسماً ثالثاً ذَكَرَهُ صاحبُ « ٱلذَّريعةِ » رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ، وهوَ : مَنِ ٱستفاد عِلماً ولَمْ ينتفع بهِ هوَ ولا غيرُهُ . اهـ « إتحاف » (١/ ٣٣٥) بتصرُّفٍ .

ومهما ٱشتغلَ بٱلتَّعليمِ . . فقَدْ تقلَّدَ أَمراً عظيماً ، وخطَراً جسيماً ، فليَحفَظْ آدابَهُ ووظائِفَهُ .

* * *

ومنه[1] :

اَلوظيفةُ ٱلأُولىٰ [مِنْ وظائِفِ ٱلمُرشِدِ][2] :

اَلشَّفقَةُ علىٰ ٱلمُتعلِّمينَ وجعلُ حقِّ ٱلمعلِّمِ أَعظمَ مِنْ حقِّ ٱلوالدَيْنِ .

---

(١) كما في « الإحياء » ١/ ٩٣ .

(٢) وقد ذكرَ ٱلمصنِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ وظيفتانِ مِنْ وظائِفِ ٱلمرشدِ ها هنا ، وبقيَ سِتُّ وظائفَ هيَ بإِيجازٍ :

ـ ٱلاقتداءُ بصاحبِ ٱلشَّرعِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بٱلامتناعِ عَنْ أَخذِ ٱلأُجرةِ علىٰ ٱلتَّعليمِ .

ـ أَلاَّ يدَّخِرَ من نُصحِ ٱلمتعلِّمِ شيئاً ، وذلكَ بأَنْ يمنعَهُ مِنَ ٱلتَّعرُّضِ لرتبةٍ قبلَ ٱستحقاقِها ، وٱلتَّشاغُلِ بعلمٍ خفيٍّ قبلَ ٱلفراغِ مِنَ ٱلجليِّ .

ـ أَنَّ ٱلمتكفِّلَ ببعضِ ٱلعلومِ ينبغي أَن لا يُقبِّحَ في نفسِ ٱلمتعلِّمِ ٱلعلومَ ٱلَّتي وراءَهُ .

ـ أَنْ يعطيَ ٱلمتعلِّمَ علىٰ قدرِ فهمهِ ، فلا يُلقي إِليهِ ما لا يَبْلُغُهُ عقلُهُ فينفِّرَهُ أَو يخبطُ عليهِ عقلَهُ .

ـ أَنْ يُلقيَ إِلىٰ ٱلمتعلِّمِ ٱلقاصِرِ ٱلجليَّ ٱللاَّئِقَ بهِ ، ولا يذكُرَ لَهُ أَنَّ وراءَ هـٰذا تدقيقاً وهوَ يدَّخرَهُ عنهُ .

ـ أَنْ يكونَ ٱلمعلِّمُ عامِلاً بعلمِهِ .

فإِنَّ ٱلوالِدَ سببُ ٱلوجودِ ٱلحاضِرِ ، وٱلحياةِ ٱلفانيَةِ ، ولولا ٱلمعلِّمُ . لانساقَ ما حصلَ مِنْ جهةِ ٱلأَبِ إِلىٰ ٱلهلاكِ ٱلدَّائِمِ ، وإِنَّما ٱلمعلِّمُ هوَ ٱلمفيدُ للحياةِ ٱلأُخرويَّةِ ٱلدَّائِمَةِ[1] ـ أَعني : معلِّمَ عُلومِ ٱلآخرَةِ ، أَو عُلومِ ٱلدُّنيا علىٰ قَصْدِ ٱلآخرةِ لا علىٰ قصدِ ٱلدُّنيا .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ٩٣] :

وكما أَنَّ حقَّ أَبناءِ ٱلرَّجُلِ ٱلواحِدِ أَنْ يتحابُّوا ويتعاوَنوا علىٰ ٱلمقاصِدِ كُلِّها . . فكذلِكَ حقُّ تلامِذَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلواحدِ ٱلتَّحابُّ وٱلتَّوادُدُ ، ولا يكونُ[2] إِلاَّ كذلِكَ إِنْ كانَ مقصودُهُمُ ٱلآخِرَةَ ، ولا يكونُ إِلاَّ التَّحاسُدُ والتَّباغُضُ إِنْ كانَ مقصودُهُمُ ٱلدُّنيا .

فإِنَّ ٱلعُلماءَ وأَبناءَ ٱلآخِرَةِ مُسافِرونَ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ ، وسالِكونَ إِليهِ ، وٱلطَّريقُ هوَ ٱلدُّنيا ، وسِنونُها وشهورُها منازِلُ ٱلطَّريقِ ، وٱلتَّرافُقُ في ٱلطَّريقِ بينَ ٱلمسافرينَ إِلىٰ ٱلأَمصارِ سببُ ٱلتَّوادِّ وٱلتَّحابِّ ، فكيفَ ٱلسَّفرُ إِلىٰ ٱلفِردَوْسِ ٱلأَعلىٰ ، ولا ضيقَ في سعاداتِ ٱلآخِرَةِ ؟!

* * *

---

(١) وكذلكَ ٱلمعلِّمُ هوَ ٱلسَّببُ ٱلأكبرُ للإنعامِ عليهِ بتلكَ ٱلحياةِ ، وٱلخلودِ في دارِ ٱلنَّعيمِ ، وبهـٰذا يتبيَّنُ أَنَّ أَبا ٱلإفادةِ أَقوى مِنْ أَبي ٱلولادةِ . « إتحاف » (١/ ٣٣٦) .

(٢) أَي : ٱلحالُ .

ومنه[1] :

الوظيفةُ الرَّابِعَةُ [مِنْ وظائِفِ ٱلمرشِدِ] :

وهيَ مِنْ دقائِقِ صناعَةِ ٱلتَّعليمِ ـ أَنْ يَزْجُرَ ٱلمُرشِدُ ٱلمتعلِّمَ عَنْ سوءِ ٱلأَخلاقِ بطريقِ [ٱلتَّعريضِ] ما أَمكَنَ ، ولا يُصرِّحَ . وبطريقِ ٱلرَّحمَةِ لا بطريقِ ٱلتَّوبيخِ ؛ فإِنَّ ٱلتَّصريحَ يَهْتِكُ حِجابَ ٱلهيبَةِ ، ويُورِثُ ٱلجُرأَةَ علىٰ ٱلهجومِ بِٱلخِلافِ ، وَيُهَيِّجُ ٱلحِرصَ علىٰ ٱلإِصرارِ . قالَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وهوَ مُرْشِدُ كُلِّ معلِّمٍ : « لَوْ مُنِعَ ٱلنَّاسُ عَنْ فَتِّ ٱلْبَعْرِ لَفَتُّوْهُ ، وَقَالُوْا : مَا نُهِيْنَا عَنْهُ إِلاَّ وَفِيْهِ شَيْءٌ »[2] .

ويُنبِّهُكَ علىٰ هٰذا قصَّةُ آدمَ وحواءَ عليهِما ٱلسَّلامُ وما نُهيا عنهُ ، فما ذُكِرَتِ ٱلقِصَّةُ معكَ لتكونَ سَمَراً ، بلْ لِتَتَنبَّهَ علىٰ سبيلِ ٱلعِبْرَةِ ، ولأَنَّ ٱلتَّعريضَ[3] أَيضاً يُميِّلُ ٱلنُّفوسَ ٱلفاضلةَ وٱلأَذهانَ ٱلذَّكيَّةَ إِلىٰ ٱستنباطِ معانيهِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/٩٩] :

قالَ عيسىٰ عليهِ ٱلسَّلامُ : (إِلىٰ متىٰ تَصِفونَ ٱلطَّريقَ[4]

---

(١) أي « الإحياء » (١/ ٩٥) .

(٢) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في تخريجِ أَحاديث « ٱلإحياء » : لَمْ أَجدهُ .

(٣) التَّعريضُ : هوَ عدمُ ٱلتَّصريحِ بِٱلشَّيْءِ ، وإِنَّما يُكنَّىٰ بما يدلُّ عليهِ ، وهوَ أَبلغُ مِنَ ٱلتَّصريحِ . « إتحاف » (١/ ٣٤١) .

(٤) أَي : ٱلطَّريقَ ٱلموصِلَ إِلىٰ رِضوانِ ٱللهِ تعالىٰ .

لِلْمُدْلِجينَ[1] ، وأَنتمُ مقيمونَ[2] معَ ٱلمتحيِّرينَ[3] ؟!) .

وقالَ سُفيانُ ٱلثَّوريُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (يَهتِفُ ٱلعِلْمُ بٱلعملِ ، فإِنْ أَجابَهُ ، وإِلاَّ . . ٱرتحلَ)[4] .

وقالَ ٱبنُ ٱلمُبارَكِ رحمهُ ٱللهُ تعالىٰ : (لا يَزالُ ٱلمرءُ عالِماً ما طَلَبَ ٱلعِلْمَ ، فإِذا ظنَّ أَنَّهُ قد عَلِمَ . . فقد جَهِلَ) .

وقالَ ٱلحَسَنُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (عقوبَةُ ٱلعُلماءِ موتُ ٱلقلبِ ، وموتُ ٱلقلبِ طلبُ ٱلدُّنيا بعملِ ٱلآخِرَةِ) .

* * *

---

(١) أَي : ٱلسَّائرينَ بٱللَّيلِ إِلىٰ بيوتِ ٱللهِ ، وٱلمرادُ بهمُ : ٱلزُّهَّادُ ٱلسَّالكونَ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ .

(٢) أَي : بأَعمالِكُم .

(٣) أَي : الواقفينَ .

(٤) عزاهُ صاحبُ « ٱلقوتِ » إِلىٰ سهلِ ٱلتُّسْتَريِّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ، وأَوردَهُ ٱلخطيبُ ٱلبغداديُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « ٱقتضاء ٱلعِلْمِ ٱلعملَ » (١/ ٣٦) مِنْ وجهَيْن :
ٱلأَوَّلُ : مِنْ طريقِ ٱلحارثِ بنِ عُبيدِ ٱللهِ ، قالَ : سمعتُ ٱبنَ أَبي ذئبٍ يُحدِّثُ عَنِ ٱبنِ ٱلمنكدرِ قالَ : (العلمُ يهتفُ بٱلعملِ ، فإِن أجابَهُ ، وإِلاَّ . . ٱرتحلَ) .
وٱلثَّاني : مِنْ طريقِ أَبي ٱلفَرَجِ عبدِ ٱلوهَّابِ بن عبدِ ٱلعزيزِ ٱلتَّميميِّ ، عَنْ آبائِه مُسَلْسلاً بٱلسَّماعِ عن عليٍّ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ قالَ : (هتفَ ٱلعلمُ بٱلعملِ ، فإِنْ أَجابَهُ ، وإِلاَّ . . ٱرتحلَ) .

ومنهُ[1] :

في ذمِّ عُلماءِ السُّوءِ المُريدينَ بِعِلْمِهمُ الدُّنْيَا :

قالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَرَاعِيْ ٱلشَّاةِ يَحْمِيْ ٱلذِّئْبَ عَنْهَا ... فَكَيْفَ إِذَا ٱلرُّعَاةُ لَهَا ذِئَابُ ؟!

وقالَ آخَرُ :

يَـا مَعْشَـرَ ٱلْقُـرَّاءِ يَـا مِلْـحَ ٱلْبَلَـدْ ... مَا يُصْلِحُ ٱلْمِلْحَ إِذَا ٱلْمِلْحُ فَسَدْ؟!

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/١٠٧] :

قالَ ٱبنُ ٱلسَّمَّاكِ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (كَمْ مِنْ مُذَكِّرٍ بِٱللهِ . . ناسٍ للهِ ؟! وكَمْ مِنْ مُخَوِّفٍ بِٱللهِ . . جَريءٌ علىٰ ٱللهِ ؟! وكَمْ مِنْ مُقرِّبٍ إِلىٰ ٱللهِ . . بعيدٌ مِنَ ٱللهِ ؟! وكَمْ مِنْ داعٍ إِلىٰ ٱللهِ . . فارٌّ مِنَ ٱللهِ ؟! وكَمْ مِنْ تالٍ كتابَ ٱللهِ . . مُنسلخٌ عَنْ آياتِ ٱللهِ ؟!) .

وقالَ إِبراهيمُ بْنُ أَدهمَ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (لقد أَعربنا في كلامِنا فلَمْ نَلحَنْ ، ولَحَنَّا في أَعمالِنا فلَمْ نُعْرِبْ)[2] .

---

(١) كما في « الإحياء » (١/١٠٢) .

(٢) قالَ هلالُ بنُ ٱلعلاءِ ٱلباهليُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ :

سَيَبْلَـىٰ لِسَـانٌ يُعْـرِبُ لَفْظَـهُ ... فَيَا لَيْتَهُ فِيْ وَقْفَةِ ٱلْحَشْرِ يَسْلَمُ

وَمَا يَنْفَعُ ٱلإِعْرَابُ إِنْ لَمْ يَكُنْ تُقَىً ... وَمَا ضَرَّ ذَا تَقْوَىٰ لِسَانٌ مُعَجَّمُ

وقالَ ٱلأَوْزاعيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (إذا جاءَ ٱلإعرابُ . . ذهبَ ٱلخُشوعُ) .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/١٠٨] :

وقالَ عيسىٰ عليهِ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ : (مَثَلُ ٱلَّذي يتعلَّمُ ٱلعِلْمَ ولا يَعمَلُ بِهِ . . كمثلِ ٱمرأةٍ زَنَتْ في ٱلسِّرِّ ، فحملَتْ ، فظهَرَ حَمْلُها ، فٱفتُضِحَتْ ؛ فكذلِكَ مَنْ لَمْ يعمَلْ بعلمِهِ ، يفضَحُهُ ٱللهُ تعالىٰ يومَ ٱلقيامَةِ علىٰ رؤوسِ ٱلأَشهادِ) .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/١٠٩] :

ومنها ؛ [أي : مِنْ علاماتِ ٱلعلماءِ ٱلفائزين وعلاماتِ ٱلسُّوْءِ]:

أَنْ تكونَ عنايَتُهُ بتحصيلِ ٱلعِلْمِ ٱلنَّافعِ في ٱلآخِرَةِ ، ٱلمرغِّبِ في ٱلطَّاعَةِ ، مُجتنِباً للعلومِ ٱلَّتي يَقِلُّ نفعُهَا ، ويكثُرُ فيها ٱلجدالُ ، وٱلقيلُ وٱلقالُ . . مثلَ مريضٍ بهِ عِلَلٌ كثيرةٌ وقد صادَفَ طبيباً حاذِقاً في وقتٍ ضيِّقٍ ، ويخشىٰ فواتَهُ ، فٱشتغَلَ بٱلسُّؤالِ عَنْ خاصيَّةِ ٱلعقاقيرِ وٱلأَدويَةِ ، وغرائِبِ ٱلطِّبِّ ، وتركَ مُهِمَّهُ ٱلَّذي هوَ مأْخوذٌ بهِ . وذلكَ محضُ ٱلسَّفَهِ .

وقد رُوِيَ أَنَّ رجُلاً جاءَ إلىٰ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقالَ : علِّمني مِنْ غرائِبِ ٱلعِلْمِ ، فقالَ لَهُ : « مَا صَنَعْتَ فِيْ رَأْسِ ٱلْعِلْمِ ؟ » ، فقالَ : وما رأْسُ ٱلعِلْمِ ؟ قال : « هَلْ

عَرَفْتَ ٱلرَّبَّ تَعَالَىٰ؟ » ، قالَ : نعم . قالَ : « فَمَا صَنَعْتَ فِيْ حَقِّهِ؟ » ، قالَ : ما شاءَ ٱللهُ . فقالَ : « هَلْ عَرَفْتَ ٱلْمَوْتَ ؟ » ، قالَ : نعم . قالَ : « فَمَا أَعْدَدْتَ لَهُ ؟ » ، قالَ : ما شَاءَ ٱللهُ ، قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَاكَ ، ثُمَّ تَعَالَ نُعَلِّمْكَ مِنْ غَرَائِبِ ٱلْعِلْمِ »(١) .

* * *

ومنها ؛ [أَي : مِنْ علاماتِ عُلماءِ ٱلآخِرَةِ] :

أَنْ لا يكونَ مُسارِعاً إِلىٰ ٱلفُتيا ، بل يكونَ متوقِّفاً ومحترِزاً ما وَجَدَ إِلىٰ ٱلخَلاصِ سبيلاً ، فإِنْ سُئِلَ عَمَّا يَعلَمُ تحقيقاً بنصِّ ٱلكتابِ ، أَو بنصِّ حديثٍ ، أَو إِجماعٍ ، أَو قياسٍ جَلِيٍّ . . أَفتىٰ . وإِنْ سُئِلَ عَمَّا يَشُكُّ فيهِ . . قالَ : لا أَدري .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/١١٩] :

وكانَ شُغْلُ ٱلصَّحابَةِ وٱلتَّابعينَ رضيَ ٱللهُ عنهُم في خمسةِ أَشياءَ : قراءَةِ ٱلقُرآنِ ، وعِمارَةِ ٱلمساجِدِ ، وذِكْرِ ٱللهِ تعالىٰ ، وٱلأَمرِ بِٱلمعروفِ ، وٱلنَّهيِ عَنِ ٱلمنكرِ .

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في تخريجِ أَحاديث « ٱلإحياءِ » : (أَخرجَهُ ٱبنُ ٱلسُّنِّيِّ ، وأَبو نُعيم في كتاب (الرياضةِ) لهُما ، وٱبن عبدِ ٱلبَرِّ مِنْ حديثِ عبدِ ٱللهِ بنِ ٱلمسوَّرِ مُرسلاً ، وهُوَ ضعيفٌ جداً) اهـ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ١٢٠] :

وكَمْ مِنْ مُقتصِرٍ علىٰ ٱلمُهِمِّ في ٱلتَّعلُّمِ ، ومتوفِّرٍ علىٰ ٱلعملِ ، ومراقبَةِ ٱلقلبِ . . فتحَ ٱللهُ لَهُ مِنْ لطائِفِ ٱلحِكْمَةِ ما تَحارُ فيهِ عُقولُ ذوي ٱلألبابِ ؛ ولذلِكَ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ . . أَوْرَثَهُ ٱللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(١) .

وفي بعضِ ٱلكُتُبِ ٱلسَّالِفَةِ : (يا بني إِسرائيلَ . . لا تقولوا : ٱلعِلْمُ في ٱلسَّماءِ ، مَنْ يَنزِلُ بهِ ؟ ولا في تُخومِ ٱلأَرضِ ، مَنْ يَصعَدُ بِهِ ؟ ولا مِنْ وراءِ ٱلبحارِ ، مَنْ يأتي بِهِ ؟!

ٱلعِلْمُ مَجعولٌ في قُلوبِكُمْ ، تأدَّبوا بينَ يَدَيَّ بآدابِ ٱلرُّوحانيينَ ، وتخلَّقوا بأَخلاقِ ٱلصِّدِّيقينَ ، أَظهِرُوا ٱلعِلْمَ في قُلوبِكُم حتَّىٰ يُغطِّيَكُمْ وَيغمُرَكُم)(٢) .

* * *

(١) رواهُ أَبو نُعيم رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « ٱلحلية » (١٠/ ١٥) مِنْ حديثِ أَنسٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ ، وضعَّفَهُ . وقالَ أَبو نُعيم رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : ذكرَ أَحمد ٱبنُ حنبلٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ هـٰذا ٱلحديثَ عَنْ بعضِ ٱلتَّابعينَ ، عَنْ عيسىٰ ٱبنِ مريمَ عليه ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ فظنَّ بعضُ ٱلرُّواةِ أَنَّهُ ذكرَهُ عَنِ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

ومِنْ شواهدهِ : ما أَخرجَ أَبو نُعيمٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « الحلية » (١/ ٧١) عَنْ عليِّ ٱبنِ أَبي طالبٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ وَرَفَعَهُ : « مَنْ زَهِدَ فِيْ ٱلدُّنْيا . . عَلَّمَهُ ٱللهُ بِلاَ تَعَلُّمٍ ، وَهَدَاهُ بِلاَ هِدَايَةٍ ، وَجَعَلَهُ بَصِيراً ، وَكَشَفَ عَنْهُ ٱلْعَمَىٰ » . اهـ « إتحاف » (١/ ٤٠٣) بتصرُّفٍ .

(٢) أَوردَهُ أَبو طالبٍ ٱلمكِّيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « قوتِ ٱلقلوبِ » .

ومنهُ[1] :

ومنها ؛ [أَي : مِنْ علاماتِ عُلماءِ ٱلآخرةِ] :

أَنْ يكونَ شديدَ ٱلعنايةِ بتقويةِ ٱليقينِ ، فإِنَّ ٱليقينَ هوَ رأسُ مالِ ٱلدِّينِ .

ومِنْ ذلكَ ٱليقينِ أَنَّ ٱللهَ سُبحانَهُ وتعالىٰ مُطَّلِعٌ عليكَ في كُلِّ حالٍ ، ومُشاهِدٌ لهواجِسِ ضميرِكَ ، وخفايا خواطِرِكَ وفِكْرِكَ ، وهـٰذا مُتيَقَّنٌ عندَ كُلِّ مؤمنٍ بٱلمعنىٰ ٱلأَوَّلِ .

وأَمَّا بٱلمعنىٰ ٱلثَّاني ـ وهوَ ٱلمقصودُ ـ : فهوَ عزيزٌ يَختصُّ بِهِ ٱلصِّدِّيقونَ ، وثمرتُهُ أَنْ يكونَ ٱلإنسانُ في خَلْوَتِهِ متأدِّباً في جميعِ أَعمالِهِ كٱلجالسِ بمشهَدِ مَلِكٍ مُعظَّمٍ يَنظُرُ إِليهِ ، فإِنَّهُ لا يزالُ مُطْرِقاً ، مُتَأَدِّباً ، مُتماسِكاً ، مُحترزاً عن كُلِّ حركةٍ تُخالِفُ هيئةَ ٱلأَدبِ ، ويكونَ في فِكرَتِهِ ٱلباطِنَةِ كهوَ في أَعمالِهِ ٱلظَّاهِرَةِ ، إِذ يتحقَّقُ أَنَّ ٱللهَ تعالىٰ مُطَّلِعٌ علىٰ سريرَتِهِ كما يَطَّلِعُ ٱلخَلْقُ علىٰ ظاهِرِهِ ، فتكونُ مبالغتُهُ في عِمارَةِ باطِنِهِ ، وتطهيرِهِ ، وتزيينِهِ لدِيْنِ ٱللهِ تعالىٰ ٱلكالئَةِ أَشدَّ مِنْ مبالغتِهِ في تزيينِ ظاهرِهِ لسائِرِ ٱلنَّاسِ[2] .

---

(1) أي « الإحياء » (١/ ١٢٢) .

(2) وهـٰذا مقامُ ٱلإحسانِ ٱلمشارُ إِليه بقولِ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « فَإِنْ=

وهـٰذا ٱلمَقـامُ فـي ٱليقيـنِ يُـورِثُ ٱلحيـاءَ ، وٱلخـوفَ ، وٱلانكسارَ ، وٱلذُّلَّ ، وٱلاستكانَةَ ، وٱلخضوعَ ، وجملةً مِنَ ٱلأَخلاقِ ٱلمحمودَةِ ، وهـٰذِهِ ٱلأَخلاقُ تُورِثُ أَنواعاً مِنَ ٱلطَّاعاتِ رفيعةً .

فٱليقينُ في كُلِّ بابٍ مِنْ هـٰذِهِ ٱلأَبوابِ مثلُ ٱلشَّجرةِ ، وهـٰذهِ ٱلأَخلاقُ في ٱلقلبِ كٱلأَغصانِ .

فٱليقينُ هوَ ٱلأَصلُ وٱلأَساسُ ، ولَهُ مجارٍ وأَبوابٌ أَكثرُ ممَّا عَدَّدناهُ ، وسيأتي ذلكَ في رُبْعِ ٱلمنجياتِ .

* * *

ومنها ؛ [أَي : مِنْ علاماتِ عُلماءِ ٱلآخرةِ] :

أَنْ يكونَ حزيناً ، مُنكَسِراً ، مُطْرِقاً ، صامتاً ، يَظْهَرُ أَثَرُ ٱلخشيَةِ علىٰ هيئَتِهِ ، وكِسْوَتِهِ ، وسيرتِهِ ، وحركتِهِ ، وسُكونِهِ ، ونُطقِهِ ، وسكوتِهِ ، لا يَنظرُ إِليهِ ناظِرٌ إِلاَّ وكانَ نظرُهُ مذكِّراً بِٱللهِ(1) .

= لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . أَخرجَهُ عن عمرَ رضيَ ٱللهُ عنهُ مسلمٌ (٨) ، وأَبو داوودَ (٤٦٩٥) ، وٱلتِّرمذيُّ (٢٦١٣) ، وٱبنُ ماجه (٦٣) .

(1) ومثلُ هـٰذا مَنْ يُصاحَبُ ويُتَّخذُ خليلاً . ٱللَّهُمَّ ٱرزُقنا أَخِلاَّءَ صالحينَ يُذكِّرونا بكَ . آمين .

وقد قيلَ : ما أَلبسَ ٱللهُ عبداً أَلبِسَةً أَحسنَ مِنْ خُشوعٍ في سكينةٍ ؛ فهي لِبْسَةُ ٱلأَنبياءِ ، وسِيْما ٱلصِّدِّيقينَ وٱلعُلماءِ .

وأَمَّا ٱلتَّهافُتُ في ٱلكلامِ ، وٱلتَّشدُّقِ ، وٱلاستغراقُ في ٱلضَّحِكِ ، وٱلحِدَّةُ في ٱلحركَةِ وٱلنُّطقِ ؛ فكلُّ ذلِكَ آثارُ ٱلبَطَرِ ، وٱلأَمنِ ، وٱلغَفلَةِ عَنْ عظيمِ عِقابِ ٱللهِ تعالىٰ ، وشديدِ سُخْطِهِ ، وهوَ دأْبُ أَبناءِ ٱلدُّنيا ٱلغافِلينَ .

* * *

ومنها ؛ [أَي : مِنْ علاماتِ عُلماءِ ٱلآخرةِ] :

أَنْ يكونَ أَكثرُ بحثِهِ عَنْ عِلْمِ ٱلأَعمالِ ، وعَمَّا يُفْسِدُ ٱلأَعمالَ ، ويشوِّشُ ٱلقلوبَ ، ويُهيِّجُ ٱلوَسواسَ ، ويُثيرُ ٱلشَّرَّ ، فإِنَّ أَصلَ ٱلدِّينِ ٱلتَّوقِّي مِنَ ٱلشَّرِّ ، ولأَنَّ ٱلأَعمالَ ٱلفعليَّةَ قريبةٌ ، وأَقربُها ـ بل وأَعلاها وأَقصاها ـ ٱلمواظبَةُ علىٰ ذِكْرِ ٱللهِ بٱلقلبِ وٱللِّسانِ ، وإِنَّما ٱلشَّأْنُ في معرفَةِ ما يُفْسِدُها ويُشَوِّشُها ، وهٰذا ممَّا يَكْثُرُ تَشَعُّبُهُ ، ويطولُ تفريعُه ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يغلِبُ مسيسَ ٱلحاجَةِ إِليهِ ، وتَعُمُّ بِهِ ٱلبَلوىٰ في سُلوكِ طريقِ ٱلآخِرَةِ .

وأَمَّا عُلماءُ ٱلدُّنيا : فإِنَّهم يتتبَّعونَ غرائِبَ ٱلتَّفريع في ٱلحكوماتِ وٱلأَقضيَةِ ، ويتتبَّعونَ في وضعِ صورٍ ينقضي ٱلدَّهرُ ولا تقعُ أَبداً ، وإِنْ وقعَتْ فإِنَّما تقعُ لغيرِهِم لا لَهُم ، وإِذا وقعَتْ

كانَ في ٱلقائمينَ بِها كَثْرَةٌ ، ويتركونَ ما يُلازِمُهُم ويتكرَّرُ عليهِم آناءَ ٱللَّيلِ وٱلنَّهارِ في خَواطِرِهِم ووسواسِهِم ، وأعمالِهِم .

وما أَبعدَ ٱلسَّعادَةَ عَمَّنْ يَدَعُ مُهِمَّ نفسِهِ لِمُهِمٍّ غيرِهِ ٱلنَّادِرِ!! إيثاراً للتَّقرُّبِ وٱلقَبولِ مِنَ ٱلخَلْقِ علىٰ ٱلتَّقرُّبِ مِنَ ٱللهِ تعالىٰ ، وشَرَهاً في أَنْ يسمِّيَهُ ٱلبطَّالونَ مِنْ أَبناءِ ٱلدُّنيا فاضِلاً مُحقِّقاً عالِماً بِٱلدَّقائِقِ!! وجزاؤُهُ مِنَ ٱللهِ أَلاَّ ينتفِعَ في ٱلدُّنيا بِقَبولِ ٱلخَلْقِ ، بل يتكدَّرُ عليهِ صفوُهُ بنوائِبِ ٱلزَّمانِ ، ثُمَّ يَرِدُ في ٱلقيامَةِ مُفْلِساً مُتحسِّراً علىٰ ما يُشاهِدُهُ مِنْ رِبْحِ ٱلعامِلينَ ، وفوزِ ٱلمُقَرَّبينَ ، وذلِكَ هوَ ٱلخُسرانُ ٱلمُبينُ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ١٣٢] :

وقد صارَ هـٰذا ٱلفنُّ غريباً مُندَرِساً ، وإِذا تعرَّضَ ٱلعالِمُ لشيءٍ منهُ . ٱستُغرِبَ وٱستُبْعِدَ، ويَرَوْنَ أَنَّ ٱلتَّحقيقَ في دقائِقِ ٱلمُجادَلاتِ .

ولقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ[١] [من البسيط] :

ٱلطُّرْقُ شَتَّىٰ، وَطُرْقُ ٱلْحَقِّ مُفْرَدَةٌ ... وَٱلسَّالِكُوْنَ طَرِيْقَ ٱلْحَقِّ أَفْرَادُ
لاَ يُعْرَفُوْنَ وَلاَ تُدْرَىٰ مَقَاصِدُهُمْ ... فَهُـمْ عَلَـىٰ مَهَلٍ يَمْشُـوْنَ قُصَّـادُ
وَٱلنَّاسُ فِيْ غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ... فَجُلُّهُـمْ عَـنْ سَبِيْـلِ ٱلْحَقِّ رُقَّـادُ

---

(١) نقلَ أَبو طالبٍ ٱلمكِّيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ هـٰذهِ ٱلأَبياتِ عَنْ عبدِ ٱلواحدِ بنِ زيدٍ إِمامِ ٱلزَّاهدينَ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ . « قوت القلوب » (١/ ٣١٤) .

وعلىٰ ٱلجملَةِ : لا يميلُ أَكثرُ ٱلخَلْقِ إلاَّ إِلىٰ ٱلأَسهلِ والأَوفَقِ لِطباعِهِم ، فإِنَّ ٱلحقَّ مُرٌّ ، وٱلوقوفُ عليهِ صعبٌ ، وإِدراكُهُ شديدٌ ، وطريقُهُ مُستوعَرَةٌ ، ولاسيَّما معرفةُ صفاتِ ٱلقلبِ وتطهيرُهُ عَنِ ٱلأَخلاقِ ٱلمذمومَةِ ، فإِنَّ ذلِكَ نَزْعٌ للرُّوحِ علىٰ ٱلدَّوامِ ، وصاحِبُهُ يُنزَّلُ منزِلَةَ ٱلشَّارِبِ للدَّواءِ ، يصبرُ علىٰ مرارتِهِ رجاءَ ٱلشِّفاءِ ، ويُنزَّلُ منزِلَةَ مَنْ جعلَ مُدَّةَ ٱلعُمُرِ صومَهُ ؛ فهوَ يُقاسي ٱلشَّدائِدَ ليكونَ فِطْرُهُ عندَ ٱلموتِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ١٣٥] :

وقَدِ ٱنتهىٰ ٱلأَمرُ إِلىٰ أَنَّ مُظهِرَ ٱلإنكارِ يُستهدَفُ لِنسْبَتِهِ إِلىٰ ٱلجُنونِ ، فٱلأَوْلىٰ أَنْ يَشتَغِلَ ٱلإِنسانُ بنفسِهِ ويسكُتَ .

* * *

ومنها ؛ [أَي : مِنْ علاماتِ عُلماءِ ٱلآخرةِ] :

أَنْ يكونَ شديدَ ٱلتَّوقِّي مِنْ مُحْدَثاتِ ٱلأُمورِ وإِنِ ٱتَّفَقَ عليها ٱلجمهورُ ، ولا يَغُرَّنَّهُ إِطباقُ ٱلخَلْقِ علىٰ ما أُحدِثَ بعدَ ٱلصَّحابَةِ رضيَ ٱللهُ عنهُم(١) .

---

(١) نُقل عن ٱلفُضيلِ بن عياضٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ما معناه : ٱلزَمْ سُبلَ ٱلهدايةِ ولا يغرَّنَّكَ قلَّةُ ٱلسَّالكينَ ، وإِيَّاكَ وطرقَ ٱلضَّلالةِ ولا تغترَّنَّ بكثرة ٱلهالكين .

وليَكُنْ حريصاً علىٰ ٱلتَّفتيشِ عَنْ أَحوالِ ٱلصَّحابَةِ رضيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وسيرتِهِم ، وأَعمالِهِم ، وما كانَ أَكثرَ هَمِّهِم ؟

أَفي ٱلتَّدريسِ ، وٱلتَّصنيفِ ، وٱلمناظَرَةِ ، وٱلقضاءِ ، وٱلولايَةِ ، وتولِّي ٱلأَوقافِ ، وٱلوصايا ، وأَكلِ مالِ ٱلأَيتامِ ، ومخالَطَةِ ٱلسَّلاطِينِ ومُجالَسَتِهِم ؟

أَم كانَ في ٱلخوفِ ، وٱلحُزْنِ ، وٱلتَّفكُّرِ ، وٱلمجاهَدَةِ ، ومراقبَةِ ٱلظَّاهِرِ وٱلباطِنِ ، وٱجتنابِ دقيقِ ٱلإثـمِ وجليلِهِ ، وٱلحِرصِ علىٰ إِدراكِ خفايا شهواتِ ٱلنُّفوسِ ، ومكائِدِ ٱلشَّيطانِ ؟ .

إِلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ عُلومِ ٱلباطِنِ .

وٱعلَمْ تحقيقاً : أَنَّ أَعلَمَ أَهلِ ٱلزَّمانِ وأَقربَهُم إِلىٰ ٱلحقِّ . . أَشبَهُهُم بٱلصَّحابَةِ ، وأَعرفُهُم بطرائِقِ ٱلسَّلَفِ ، فمنهُمْ أُخِذَ ٱلدِّينُ ، فلا ينبغي أَنْ تكترِثَ بمخالَفَةِ أَهلِ ٱلعَصرِ في موافقَةِ أَهلِ عَصرِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ١٣٧] :

وكذلِكَ(١) ٱلاشتغالُ بدقائِقِ ٱلجَدَلِ وٱلمناظَرَةِ مِنْ أَجلِّ عُلومِ

---

(١) أَي : مِنَ ٱلمعروفاتِ في هـٰذا ٱلزَّمانِ ، وٱلمنكراتِ في عهدِ ٱلصَّحابَةِ رضوانُ ٱللهِ تعالىٰ عليهِم أَجمعينَ .

أَهلِ الزَّمانِ ، ويزعمونَ أَنَّهُ مِنْ أَعظمِ ٱلقُرُباتِ . وقد كانَ ذلكَ مِنَ ٱلمُنكَرَاتِ(١) .

---

(١) للإمام ٱلغزاليِّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في هـٰذا تفصيلٌ ذَكَرَهُ في كتابه « ٱلاقتصادُ في ٱلاعتقادِ » ، وخلاصتُهُ : أَنَّ أَدلَّةَ عِلْمِ ٱلمنطقِ تجري مجرىٰ ٱلأَدويةِ ٱلَّتي يُعالَجُ بها مرضُ ٱلقلوبِ ، لذلكَ فقد قسَّمَ ٱلنَّاسَ إِلىٰ أَربعِ فرقٍ :

ٱلأُولىٰ : آمنتْ بٱللهِ ، وصدَّقت رسولَهُ ، وٱعتقدتِ ٱلحقَّ ، ثمَّ ٱشتغلَتْ إِمَّا بعبادةٍ أَو بصناعةٍ ، فهـٰؤلاءِ ينبغي أَنْ يُترَكوا وما هُم عليهِ ، دونَ تشويش عقائِدِهم ، خشيةَ أَنْ تعلَقَ بأَذهانِهِم مشكلةٌ ما ولا تُمحَىٰ عنها ، ولهـٰذا لَمْ يُنْقَلْ عَنِ ٱلصَّحابةِ رضوانُ ٱللهِ تعالىٰ عليهِم ٱلخوضُ في عِلْمِ ٱلمنطقِ ، بلِ ٱشتغلوا بٱلعبادةِ وٱلدَّعوةِ إِليها .

ٱلثَّانيةُ : طائفةٌ مالَت عَنِ ٱعتقادِ ٱلحقِّ ؛ كٱلكفرةِ وٱلمبتدعَةِ ، فهـٰؤلاءِ يَفعَلُ بِهمُ ٱلسَّيفُ وٱلسِّنانُ ما لا يفعلُهُ ٱللِّسانُ وٱلبُرهانُ .

ٱلثَّالثةُ : طائفةٌ ٱعتقدوا ٱلحقَّ تقليداً أَو سماعاً ، وخُصُّوا في ٱلفطرة بذكاءٍ وفطنةٍ ، لـٰكنْ طرأَتْ عليهِم بعضُ ٱلشُّبهاتِ ٱلَّتي قرعَتْ سمعَهُم ، وحاكَتْ في صدورِهِم ، فيجبُ ٱلتَّلطُّفُ بمعالجتهِم دونَ ٱلتَّعمُّقِ في ٱلأَدِلَّة قَدرَ ٱلإِمكانِ .

ٱلرَّابعةُ : طائفةٌ مِنْ أَهلِ ٱلضَّلالِ يُتفرَّسُ فيهِم ٱلذَّكاءُ وٱلفِطنةُ ، ويُتوَقَّعُ منهُم قَبولُ ٱلحقِّ ، فهـٰؤلاءِ يجبُ ٱلتَّلطُّفُ بِهم في ٱستمالَتِهم إِلىٰ ٱلحقِّ وإِرشادِهِم إِلىٰ ٱلاعتقادِ ٱلصَّحيحِ ، لا في معرضِ ٱلمحاجَّةِ وٱلتَّعصُّبِ ؛ لأَنَّ إِظهارَ ٱلحقِّ في معرضِ ٱلتَّحدِّي يُثيرُ مِنْ بواطِنِهِم دواعيَ ٱلمعاندةِ وٱلمخالفة) . وٱللهُ أَعلمُ . اهـ بإِيجازٍ .

وقد وقعَ بينَ ٱلعلماءِ رحمَهُم ٱللهُ تعالىٰ خلافٌ في حُكْمِ تعلُّمِ هـٰذا ٱلعِلمِ ؛ بسببِ ٱختلافِ حاجةِ ٱلنَّاسِ إِلىٰ هـٰذا ٱلعِلمِ ، وقد أَشار إِلىٰ ذلكَ صاحبُ « ٱلسُّلَّمِ ٱلمنَوْرَقِ » رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ فقالَ : =

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/١٣٨] :

وحُكِيَ عَنْ إبليسَ ـ لعنهُ ٱللهُ ـ أَنَّهُ بَثَّ جنودَهُ في وقتِ ٱلصَّحابةِ رضيَ ٱللهُ عَنهُم فرَجَعوا إليهِ مُنكسرينَ . فقالَ : ما شَأْنُكُمْ ؟ قالوا : ما رأَينا مثلَ هٰؤلاءِ ، ما نُصيبُ منهُم شيئاً وقد أَتعبونا . فقالَ : إِنَّكُم لا تقدِرونَ عليهِم ، قد صَحِبوا نبيَّهُم ، وشهِدوا

= وَٱلْخُلْفُ فِيْ جَوَازِ ٱلاشْتِغَالِ بِهِ عَلَىٰ ثَلاَثَةٍ أَقْوَالِ
فَٱبْنُ ٱلصَّلاَحِ وَٱلنَّوَاوِيْ حَرَّمَا وَقَالَ قَوْمٌ يَنْبَغِيْ أَنْ يُعْلَمَا
وَٱلْقَوْلَةُ ٱلْمَشْهُوْرَةُ ٱلصَّحِيْحَهْ جَوَازُهُ لِكَامِلِ ٱلْقَرِيْحَهْ
مُمَارِسِ ٱلسُّنَّةِ وَٱلْكِتَابِ لِيَهْتَدِيْ بِهِ إِلَىٰ ٱلصَّوَابِ

وجزىٰ ٱللهُ شيخنا ٱلفاضِلَ أَديبَ الكلاَّس خيراً عندما ضَرَبَ لنا مثالاً في سببِ ٱستنكارِ ٱلصَّحابةِ رضوانُ ٱللهِ تعالىٰ عليهِم لهٰذا ٱلعِلمِ ، فقالَ : (مَثَلُ ما كانَ في عَهْدِ ٱلصَّحابةِ ٱلكرام رضوانُ ٱللهِ تعالىٰ عليهِم كمثلِ قومٍ عاشوا في أَحضانِ ٱلطَّبيعةِ ، بينَ ٱلأَشجارِ ٱلخضراءِ ، وٱلأَنهارِ ٱلصَّافيَةِ ، وٱلهواءِ ٱلنَّقيِّ ، فلَمْ يَحتاجوا إِلىٰ ٱلدَّواءِ ، بل إِنْ جاءَهُم طبيبٌ عابوا عليهِ طِبَّهُ وٱستَنكروهُ ؛ لأَنَّهُم لا يَعرفونَ ٱلأَمراضَ وٱلتَّلوُّثَ ، وما شاكلَ ذلكَ ، وبعدَ سنواتٍ مرَّ عليهِم قومٌ طغاةٌ هَمَجٌ يَحملونَ معَهُمُ ٱلأَمراضَ وٱلتَّلوُّثَ وٱلأَوبئَةِ ، فكانوا سبباً في تلوُّثِ ٱلهواءِ ، بسببِ ٱلأَمراضِ ٱلمُعدِيَةِ وٱلموادِّ ٱلملوِّثةِ وٱلمداخِنِ ، وكذا ٱلماءِ بسببِ رميِ ٱلأَوساخِ فيه ، وقلَّتِ ٱلأَشجارُ بسببِ قطعِهم لها ، وحدثَ ما لَمْ يكُنْ في ٱلحُسْبانِ ، فٱنتشرَتِ ٱلأَمراضُ وٱلجراثيمُ ، وصارتِ ٱلحاجةُ إِلىٰ ٱلطَّبيبِ ماسَّةً بعدَ أَنْ كانت مُستنكرَةً ، فكذلكَ صارَت الحاجةُ ماسَّةً إِلىٰ عِلْمِ ٱلمنطقِ وٱلجدلِ بعدَ أَنْ كانتْ مستنكرةً لَهُ) . وٱللهُ أَعلمُ .

تنزيلَ ربِّهم ، ولـٰكِنْ سيأْتي بعدَهُم قومٌ تَنالونَ منهُم حاجَتكُم . فلمَّا جاءَ ٱلتَّابعونَ . . بَثَّ جنودَهُ ، فرَجَعوا إِليهِ مُنكسرينَ ، فقالوا : ما رأَينا أَعجبَ مِنْ هـٰؤلاءِ ، نُصيبُ منهُمُ ٱلشَّيءَ بعدَ ٱلشَّيءِ مِنَ ٱلذُّنوبِ ، فإِذا كانَ في آخِرِ ٱلنَّهارِ . . أَخذوا في ٱلاستغفارِ ، فيُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّئاتِهِم حسناتٍ . فقالَ : إِنَّكُمْ لَنْ تَنالوا مِنْ هـٰؤلاءِ شيئاً ؛ لصحَّةِ توحيدِهم ، وٱتِّباعِهِم لسُنَّةِ نَبيِّهم ؛ ولـٰكِنْ سيأتي بعدَ هـٰؤلاءِ قومٌ تَقَرُّ أَعيُنُكُمْ بِهِم ، تلعبونَ بِهِم لَعِباً ، وتقودُونَهُم بأَزِمَّةِ[1] أهوائِهِم كيفَ شِئْتُم ، إِنِ ٱستغفَروا . . لَمْ يُغفَرْ لَهُمْ ، ولا يتوبونَ فَيُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّئاتِهِم حسناتٍ .

قالَ : فجاءَ قومٌ بعدَ ٱلقُرونِ ٱلأُولَىٰ ، فبثَّ فيهمُ ٱلأَهواءَ ، وزيَّنَ لَهُمُ ٱلبِدَعَ فٱستحلُّوها ، وٱتَّخذوها دِيْناً لا يستغفِرونَ ٱللهَ منها ، ولا يَتوبونَ عنها ، فسلَّطَ عليهِمُ ٱلأَعداءَ وقادَتْهُمْ أَينَ شاؤوا[2] .

فإِنْ قُلْتَ : مِنْ أَينَ عَرَفَ قائِلُ هـٰذَا ما قالَهُ إِبليسُ ، ولَمْ يُشاهِدْ إِبليسَ ، ولا حدَّثَهُ بذلكَ ؟!

. . **فٱعلَمْ** : أَنَّ أَربابَ ٱلقُلوبِ يُكاشَفونَ بأَسرارِ ٱلمَلَكوتِ ،

---

(١) ٱلأَزِمَّة : جمع زمام وٱلزِّمامُ ٱللِّجامُ وٱلرَّسَنُ .

(٢) وذكـرَهُ ٱلإمـامُ أَبـو طـالـب ٱلمكّـيُّ رحمَـهُ ٱللهُ تعـالـىٰ فـي « قـوتِ ٱلقلـوبِ » (١/ ٣٥٤) .

تارةً علىٰ سبيلِ ٱلإلهامِ ، بأَنْ تخطُرَ لَهُمْ علىٰ سبيلِ ٱلواردِ عليهِم مِنْ حيثُ لا يَعلمونَ ، وتارةً علىٰ سبيلِ ٱلرُّؤْيا ٱلصَّادِقَةِ ، وتارةً في ٱليَقَظَةِ علىٰ سبيلِ كَشْفِ ٱلمعاني بمشاهَدَةِ ٱلأَمثلَةِ كما يكونُ في ٱلمَنامِ ، وهٰذا مِنْ أَعلىٰ ٱلدَّرجاتِ ؛ وهيَ مِنْ درجاتِ ٱلنُّبوَّةِ ٱلعاليَةِ ، كما أَنَّ ٱلرُّؤْيا ٱلصَّادِقَةَ جُزْءٌ مِنْ ستَّةٍ وأَربعينَ جُزءاً مِنَ ٱلنُّبوَّةِ(١) .

وإِيَّاكَ أَنْ يكونَ حظَّكَ مِنْ هٰذا ٱلعِلْمِ إِنكارُ كُلِّ ما جاوزَ حَدَّ قُصورِكَ ؛ ففيهِ هَلَكَ ٱلمتحذلِقونَ(٢) مِنَ ٱلعُلماءِ ٱلزَّاعِمونَ أَنَّهُم أَحاطوا بعُلومِ ٱلمعقولِ .

فٱلجهلُ خيرٌ مِنْ عقلٍ يدعو إِلىٰ إِنكارِ مثلِ هٰذهِ ٱلأُمورِ لأَولياءِ ٱللهِ تعالىٰ .

ومَنْ أَنكرَ ذلِكَ للأَولياءِ . . لَزِمَهُ إِنكارُهُ للأَنبياءِ(٣) ، وكانَ

---

(١) أَخرجهُ عن أَنسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ البخاريُّ (٦٩٨٧) و(٦٩٩٤) في التعبير ، ومسلم (٢٢٦٤) في الرُّؤيا بلفظِ : « رُؤْيَا ٱلْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ » .

وعند ٱلبخاريّ (٦٩٨٣) بلفظ : « الرُّؤْيَا ٱلْحَسَنَةُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ » .

(٢) حَذْلَقَ : أَظهرَ ٱلحِذْقَ ، أَوِ ٱدَّعىٰ أَكثر ممَّا عندَهُ ، « القاموس المحيط » (٣/ ٣٢٠) .

(٣) لأَنَّ ما جازَ أَن يكونَ معجزةً لنبيٍّ جازَ أَن يكونَ كرامةً لوليٍّ .

خارجاً عَنِ الدِّينِ بٱلكُلِّيَّةِ .

وقالَ بعضُ ٱلعارِفينَ : إِنَّما ٱنقطعَ ٱلأَبدالُ في أَطرافِ ٱلأَرضِ وٱستتروا عَنْ أَعيُنِ ٱلجمهورِ ؛ لأَنَّهُم لا يُطيقونَ ٱلنَّظَرَ إِلىٰ عُلماءِ ٱلوقتِ ؛ لأَنَّهُم عندَهُم جُهّالٌ بِٱللهِ ، وهُم عندَ أَنفُسِهِم وعندَ ٱلجاهِلينَ عُلماءُ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/١٣٩] :

والعوامُّ ٱلعُصاةُ أَسعدُ أَحوالاً مِنَ ٱلجُهّالِ بطريقِ ٱلدِّينِ ، ٱلمعتقدينَ أَنَّهُم مِنَ ٱلعُلماءِ ؛ لأَنَّ ٱلعامِّيَّ [ٱلعاصيَ] معترِفٌ بتقصيرِهِ ، فيستغفِرُ ويتوبُ ، وهـٰذا ٱلجاهِلُ ٱلظّانُّ أَنَّهُ عالِمٌ وأَنَّ ما هوَ مشتغِلٌ بِهِ مِنَ ٱلعُلومِ ٱلَّتي هيَ وسائِلُهُ إِلىٰ ٱلدُّنيا عَنْ سلوكِ طريقِ ٱلدِّينِ فلا يتوبُ ولا يستغفِرُ ، بل لا يزالُ مُستمِرّاً عليهِ إِلىٰ ٱلموتِ .

وإِذ غَلَبَ هـٰذا علىٰ أَكثرِ ٱلنَّاسِ ـ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ـ وٱنقطَعَ ٱلطَّمَعُ مِنْ إِصلاحِهِم . . فٱلأَسلَمُ لذي ٱلدِّيْنِ ٱلمُحتاطِ : ٱلعُزْلَةُ وٱلانفِرادُ عنهُم[1] . كما سيأتي في كتابِ (ٱلعُزلَةِ) بيانُهُ .

---

(١) ولا يُشَكُّ أَنَّ مَنْ يُخالِطُ ٱلنَّاسَ ويحتملُ أَذاهُم أَعظمُ أَجراً ممَّن يعتزِلُهم بٱلكُلِّيةِ لمزيدِ فضلِ ٱلدَّعوةِ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ ، ولـٰكن مَنْ خشيَ علىٰ نفسِهِ . . فٱلأَحوطُ لَهُ ٱلعُزلةُ وٱلدَّعوةُ قدرَ ٱلإِمكانِ .

ولـذلـكَ كَتَـبَ يـوسُـفُ بْـنُ أَسبـاطٍ إِلـىٰ حُـذيفـةَ ٱلمَـرْعَشـيِّ رحمَهُما ٱللهُ تعالىٰ : (ما ظنُّكَ بِمَنْ بَقِيَ لا يَجِدُ أَحداً لا يذكُرُ ٱللهَ معَهُ إِلاَّ كانَ آثماً ، أَو كانت مذاكَرَتُهُ معصيةً ؛ وذلكَ أَنَّهُ لا يَجِدُ أَهلَهُ ؟)[1] .

ولقد صَدَقَ ، فإِنَّ مَنْ خالَطَ ٱلنَّاسَ . . لا يَنفكُّ عَنْ غِيبَةٍ ، أَو سُكـوتٍ علىٰ مُنكـرٍ ، وإِنَّ أَحسـنَ أَحـوالِـهِ أَنْ يَفيْـدَ عِلمـاً ، أَو يَستفيدَهُ .

ولو تأَمَّلَ . . عَلِمَ أَنَّ ٱلمُستفيدَ إِنَّما يُريدُ أَنْ يجعلَ ذلكَ آلَةً إِلىٰ طلبِ ٱلدُّنيا ، ووسيلةً إِلىٰ ٱلشَّرِّ ، فيكونُ هوَ مُعيناً لَهُ علىٰ ذلكَ ، ورِدْءاً[2] ، وظهيراً[3] ، ومهيِّئاً لأَسبابِهِ ؛ كالَّذي يبيعُ السَّيْفَ مِنْ قُطَّاعِ ٱلطَّريقِ .

فٱلعِلْمُ كٱلسَّيفِ ، وصلاحُهُ للخيرِ كصلاحِ ٱلسَّيفِ للغزوِ ، ولذلِكَ لا يرخَّصُ لَهُ في ٱلبيعِ ممَّن يعلَمُ بقرائِنِ أَحوالِهِ أَنَّهُ يريدُ بِهِ ٱلاستعانَةَ علىٰ قطعِ ٱلطَّريقِ .

فهـٰذِهِ ٱثنتا عَشْرَةَ علامةً مِنْ علاماتِ عُلماءِ ٱلآخِرَةِ .

---

(١) ذكرَهُ في « قوتِ القلوبِ » .
(٢) الرِّدْءُ : ٱلعَوْنُ . « مختار الصحاح » (١٠١) .
(٣) الظَّهيرُ : ٱلمُعينُ . « مختار الصحاح » (١٧١) .

فكُنْ أَحَدَ رَجُلَيْنِ : إِمَّا مُتَّصِفاً بهـٰذهِ ٱلصِّفاتِ ، أَو مُعتَرِفاً بِٱلتَّقصيرِ معَ ٱلإقرارِ بهِ .

وإِيَّاكَ أَنْ تكونَ ٱلثَّالثَ[1] فتُلَبِّسَ علىٰ نفسِكَ بأَنْ بدَّلْتَ آلةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلدِّيْنِ ، وسيرةَ ٱلبَطَّالينَ بسيرةِ ٱلعُلماءِ ٱلرَّاسخينَ ، وتلتحقَ بجهلِكَ لإنكارِكَ بزمرَةِ ٱلهالِكينَ ٱلآيسينَ .

نعوذُ بِٱللهِ مِنْ خُدَعِ ٱلشَّيطانِ ، فبها هَلَكَ ٱلجمهورُ .

فنسألُ ٱللهَ تعالىٰ أَنْ يجعَلَنا ممَّنْ لا تَغُرُّهُ ٱلحياةُ ٱلدُّنيا ، ولا يَغُرُّهُ بِٱللهِ ٱلغَرورُ[2] .

* * *

(١) أَي : لا متَّصفاً ولا مُعترِفاً ، بل مُنكِراً . « إتحاف » (١/٤٤٨) .

(٢) ٱلغَرورُ : الشَّيطانُ ، وٱلغُرورُ : ما يغترُّ بهِ مِنْ متاعِ ٱلدُّنيا .

ومِنَ ٱلبابِ ٱلسَّابعِ[1] :

في ٱلعقلِ وشرفِهِ وحقيقتِهِ وأقسامِهِ

قولُهُ رضيَ ٱللهُ عنهُ بعدَ كلامٍ كثيرٍ مُفيدٍ :

مُفارقَةُ ٱلإنسانِ ٱلبَهيمَةَ في إِدراكِ ٱلعُلومِ ٱلنَّظريَةِ بغريزةٍ . . يُعَبَّرُ عنها بٱلعقلِ ، وهوَ كٱلمِرآةِ ٱلَّتي تُفارِقُ غيرَها مِنَ ٱلأَجسامِ في حكايَةِ ٱلصُّوَرِ وٱلأَلوانِ بصفةٍ ٱختُصَّتْ بِها وهيَ ٱلصَّقالَةُ ، فَنسبَةُ هـٰذهِ ٱلغَريزَةِ إِلىٰ ٱلعُلومِ . . كنسبَةِ ٱلعينِ إِلىٰ ٱلرُّؤْيَةِ ، ونسبَةُ ٱلقُرآنِ وٱلشَّرعِ إِلىٰ هـٰذهِ ٱلغَريزَةِ في سياقِها إِلىٰ ٱنكشافِ ٱلعُلومِ بِها . . كنسبَةِ نورِ ٱلشَّمسِ إِلىٰ ٱلبَصَرِ ، فهـٰكذا ينبغي أَنْ تُفْهَمَ هـٰذهِ ٱلغَريزَةُ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/١٤٧] :

وهـٰذهِ ٱلعُلومُ[2] كأَنَّها متضمَّنَةٌ في تِلْكَ ٱلغَريزَةِ بٱلفِطْرَةِ ،

---

(١) كما في « الإحياء » (١/ ١٤٠) .

(٢) أَي : ٱلعلومَ ٱلَّتي تُبيِّنُ حَدَّ ٱلعقلِ وحقيقتَهُ ، وقد أَوردَها ٱلإمامُ ٱلغزاليُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَوَّلَ ٱلبابِ ، وهيَ أَربعةُ معانٍ :

ٱلأَولُ : ٱلصِّفةُ ٱلَّتي يختلفُ بها ٱلإنسانُ عن سائرِ ٱلبهائمِ .

ٱلثَّاني : ٱلعلومُ ٱلَّتي يستطيعُ ٱلإنسانُ بها أَن يَعرِفَ جوازَ ٱلجائزاتِ ، وٱستحالةَ ٱلمستحيلاتِ . =

ولـٰكِنْ تظهَرُ إِلىٰ ٱلوجودِ إِذا جرىٰ سببٌ يُخْرِجُها إِلىٰ ٱلوجودِ ، حتَّىٰ كأَنَّ هـٰذهِ ٱلعُلومَ ليسَتْ بشيْءٍ وارِدٍ علَيها مِنْ خارجٍ ، كأَنَّها مُستكِنَّةٌ فيها فظهَرَتْ .

مثالُ ذلكَ : ٱلماءُ في ٱلأَرضِ ، فإِنَّهُ يظهَرُ بحفرِ ٱلبئْرِ ، ويجتمِعُ ويتميَّزُ بٱلحِسِّ ، لا بأَنْ يُساقَ إِليها شيءٌ جديدٌ ، وكذلِكَ ٱلدُّهْنُ في ٱللَّوْزِ ، وماءُ ٱلوردِ .

ولذلِكَ قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيْ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوْا بَلَىٰ شَهِدْنَا . .﴾(١) .

وٱلمرادُ بِهِ : إِقرارُ نفوسِهِم ، لا إِقرارُ ٱلأَلسِنَةِ ؛ فإِنَّهُمُ ٱنقسَموا

= ٱلثَّالثُ : ٱلعلومُ ٱلَّتي يُستفادُ بواسطتها مِنَ ٱلتَّجارب بمجاري ٱلأَحوالِ ٱلإِنسانيَّةِ .

ٱلرَّابعُ : ٱلاستفادة مِنْ معرفةِ عواقِبِ ٱلأُمورِ ؛ لتقويمِ ٱلسُّلوكِ ٱلإِنسانيِّ .

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

قرأَ ٱلمدنيَّانِ نافعٌ وأبو جعفرٍ ، وٱلبَصْريَّانِ أَبو عمرٍو ويعقوبَ ، والشاميُّ عبدُ ٱللهِ بن عامرٍ رحمهم الله تعالىٰ : ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ بإثباتِ ٱلأَلفِ بعدَ ٱلياءِ ٱلتَّحتيَّةِ معَ كسرِ ٱلتَّاءِ ، كما هوَ مثبتٌ .

وقرأَ ٱلباقونَ مِنَ ٱلعشرةِ رحمَهُمُ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بحذفِ ٱلأَلفِ ونصبِ ٱلتَّاءِ ، علىٰ ٱلإِفرادِ ، وهـٰذا كلُّهُ في ٱلمتواترِ . وٱللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَعلمُ .

في إقرارِ ٱلألسِنَةِ ـ حيثُ وُجِدَتْ ٱلألسِنَةُ وٱلأشخاصُ ـ إلىٰ مُقِرٍّ ، وإلىٰ جاحدٍ . ولذلِكَ قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ . . ﴾[1] .

معناهُ : إنِ ٱعْتُبِرَتْ أَحوالُهُم . . شَهِدَتْ بهِ نفوسُهُم وبواطِنُهُم ﴿ . . فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا . . ﴾[2] .

أَي : كُلَّ آدميٍّ فُطِرَ علىٰ ٱلإيمانِ بٱللهِ تعالىٰ ، بل علىٰ معرفةِ ٱلأَشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ ؛ أَعني : أَنَّها كٱلمُضمَّنَةِ فيها لقُرْبِ ٱستعدادِها للإِدراكِ .

ثُمَّ لمَّا كانَ ٱلإيمانُ مركوزاً في ٱلنُّفوسِ بٱلفِطْرَةِ . . ٱنقسمَ ٱلنَّاسُ قسمينِ :

١ـ إلىٰ مَنْ أَعرَضَ فنسِيَ ، وهُمُ ٱلكفَّارُ .

٢ـ وإلىٰ مَنْ أَجالَ خاطِرَهُ فتذَكَّرَ ، وكانَ كمَنْ حَمَلَ شهادةً فنسِيَها لغفلَةٍ ثُمَّ تذكَّرها .

ولذلِكَ قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ . . لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3] .

﴿ . . وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4] .

---

(١) سورة الزخرف : (٨٧) .

(٢) سورة الروم : (٣٠) .

(٣) سورة البقرة : (٢٢١) .

(٤) سورة ص : (٢٩) .

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ . . ﴾[1] .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[2] .

وتسميةُ هـٰذا ٱلنَّمَطِ تذكُّراً . . ليسَ ببعيدٍ .

وكأَنَّ ٱلتَّذكُّرَ نوعانِ :

أَحدُهُما : أَنْ يذكُرَ صورةً كانَتْ حاضِرَةَ ٱلوجودِ في ٱلقلبِ ، ولـٰكِنْ غابَتْ بعدَ ٱلوجودِ .

وٱلآخَرُ : أَنْ يذكُرَ صورةً كانَتْ مُضَمَّنَةً فيهِ بٱلفِطْرَةِ .

وهـٰذهِ حقائِقُ ظاهِرَةٌ للنَّاظِرِ بنورِ ٱلبَصيرَةِ ، ثقيلةٌ علىٰ مَنْ مُسْتَرْوَحُهُ ٱلسَّماعُ وٱلتَّقليدُ ، دونَ ٱلكشفِ وٱلعِيانِ ؛ ولذلِكَ تراهُ يتخبَّطُ في مثلِ هـٰذهِ ٱلآياتِ ، ويتعسَّفُ في تأْويلِ ٱلتَّذكُّرِ ، وإِقرارِ ٱلنَّفوسِ أَنواعاً مِنَ ٱلتَّعسُّفاتِ ، وتتخايلُ إِليهِ في ٱلآياتِ وٱلأَخبارِ ضروبٌ مِنَ ٱلمناقَضاتِ ، وربَّما يغلِبُ ذلكَ عليهِ حتَّىٰ ينظُرَ إِليها بعينِ ٱلاحتقارِ ، ويعتقِدَ فيها ٱلتَّهافُتَ ، ومثالُهُ : مثالُ ٱلأَعمىٰ ٱلَّذي يَدْخُلُ داراً فيعثُرُ فيها بٱلأَواني ٱلمصفوفَةِ في ٱلدَّارِ ، فيقولُ : ما لهـٰذهِ ٱلأَواني لا تُرفَعُ مِنَ ٱلطَّريقِ وتُرَدُّ إِلىٰ مَواضِعِها ؟ فيُقالُ لَهُ : إِنَّها في مَواضِعها ، وإِنَّما ٱلخَلَلُ في نَظَرِكَ .

---

(1) سورة المائدة : (٧) .

(2) سورة القمر : (١٧) .

فكذلِكَ خلَلُ ٱلبَصيرةِ يجري مَجراهُ وأَطَمُّ وأَعظَمُ منهُ ، إِذِ ٱلنَّفْسُ كٱلفارِسِ ، وٱلبَدَنُ كٱلفَرَسِ ، وعَمَىٰ ٱلفارِسِ أَضرُّ مِنْ عَمىٰ ٱلفَرَسِ[1] .

ولمشابهَةِ بصيرَةِ ٱلباطِنِ بصيرَةَ ٱلظَّاهِرِ . . قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[3] .

ويُسَمَّىٰ ضدُّهُ عَمىً .

قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ . . فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[5] .

وهٰذهِ ٱلأُمورُ ٱلَّتي كُشِفَتْ للأَنبياءِ عليهمُ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ بعضُها كانَ بٱلبَصَرِ ، وبعضُها كانَ بٱلبصيرَةِ ، ويُسمَّىٰ ٱلكُلُّ رؤيةً .

---

(١) لأَنَّ ٱلفارسَ هوَ ٱلَّذي يقودُ ٱلفرسَ ، فكذا ٱلنَّفسُ تقودُ ٱلبَدنَ .

(٢) سورة النجم : (١١) .

(٣) سورة الأنعام : (٧٥) .

(٤) سورة الحج : (٤٦) .

(٥) سورة الإسراء : (٧٢) .

وبٱلجملَةِ : مَنْ لَمْ تكُنْ بصيرتُهُ ٱلباطِنَةُ ثاقِبَةً . . لَمْ يَعْلَقْ بِها مِنَ ٱلدِّيْنِ إلاَّ قِشرُهُ ، وأَمثلَتُهُ دونَ لُبابِهِ وحقائقِهِ .

فهـٰذِهِ أَقسامُ ما يُطلَقُ عليهِ ٱسمُ ٱلعَقلِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ١٥٠] :

ومبادىءُ إِشراقِهِ ـ أَي : ٱلعقلُ ـ عندَ سنِّ ٱلتَّمييزِ ، ثُمَّ لا يزالُ ينمو ويزدادُ نمواً خفيَّ ٱلتَّدريجِ إِلىٰ أَنْ يتكامَلَ بقُربِ ٱلأَربعينَ سنةً[1] .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ١٥٠] :

بل سُنَّةُ ٱللهِ عزَّ وجلَّ جاريَةٌ في جميعِ خَلْقِهِ بٱلتَّدريجِ في ٱلإيجادِ ، حتَّىٰ إِنَّ غريزةَ ٱلشَّهوَةِ لا تُرَكَّبُ في ٱلصَّبيِّ عندَ ٱلبُلوغِ دفعةً وبغتةً ، بل تظهَرُ شيئاً فشيئاً علىٰ ٱلتَّدريجِ ، فكذلِكَ جَميعُ ٱلقُوىٰ وٱلصِّفاتِ .

ومَنْ أَنكرَ تفاوتَ ٱلنَّاسِ في هـٰذِهِ ٱلغريزَةِ . . كأَنَّهُ منخلِعٌ عَنْ رِبْقَةِ ٱلعقلِ .

---

(١) هـٰذا هوَ ٱلمشهورُ ، وقد ذكرَ ٱلفيروزآبادي رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أَنَّ ٱبتداءَ وُجودِ ٱلعقلِ عندَ ٱجتنانِ ٱلولَدِ ، ثُمَّ لا يزالُ ينمو ويتزايدُ إِلىٰ أَنْ يكمُلَ عندَ ٱلبلوغِ ، فظاهِرُ ٱلأَمرِ أَنَّ كمالَ ٱلعقلِ عندَ ٱلبلوغِ . « القاموس المحيط » (٤/ ٢٧) .
وفي ذلكَ تأَمُّلٌ وغيبٌ لا يعلمُهُ إِلاَّ ٱللهُ تعالىٰ ، وٱلَّذي يقعُ في ٱلقلبِ أَنَّ ذلكَ أَمرٌ وَهْبيٌّ مِنْ ربِّ ٱلعِزَّةِ سبحانَهُ ، فرُبَّ صغيرٍ كبيرٍ ، ورُبَّ كبيرٍ صغيرٍ . وٱللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَعلَمُ .

ومَن ظنَّ أنَّ عقلَ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مثلُ عقلِ أحدِ ٱلسَّوادِيَةِ(١) وأجلافِ ٱلباديَةِ . . فهوَ أخسُّ في نفسِهِ مِن أحَدِ ٱلسَّوادِيَةِ(٢) .

وكيفَ يُنكِرُ تفاوتَ ٱلغريزَةِ ، ولولاهُ لَمَا ٱختلفَ النَّاسُ في فَهْمِ ٱلعُلومِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ١/ ١٥١] :

ويدلُّ علىٰ تفاوتِ ٱلعَقلِ مِنْ جهَةِ ٱلنَّقْلِ ما رُوِيَ أنَّ عبدَ ٱللهِ بْنَ سَلاَمٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ سأَلَ رسولَ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في حديثٍ طويلٍ في آخِرِهِ وصفُ عِظَمِ ٱلعَرشِ ، وأنَّ ٱلملائكَةَ

---

(١) وهمُ أهلُ ٱلرِّيفِ وٱلقُرىٰ . « لسان العرب » (٣/ ٢١٥) .

وليسَ هـٰذا طعنٌ في عقولِ أَهلِ ٱلرِّيفِ وٱلباديةِ ؛ لأَنَّ ٱلمقياسَ عندنا هوَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] ، وإنَّما ساقَ ٱلمؤلِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ هـٰذا ٱلكلامَ في هـٰذا ٱلسِّياقِ ؛ لكونِ أَهلِ ٱلسَّوادِ وٱلباديةِ بُسطاءُ ، يُعامِلونَ ٱلنَّاسَ بفطرةٍ سليمةٍ ، دونَ حسابٍ للعواقبِ ؛ وذلكَ بسببِ قِلَّةِ خِبرَتِهم بأَساليبِ خداعِ ٱلبشرِ ؛ لكونِهم بعيدينَ عَنْ مراكزِ ٱجتماعِ ٱلتُّجَّارِ وعامَّةِ ٱلنَّاسِ ؛ لعدمِ تعقيدِ حياتِهِمُ ٱلاجتماعيَّةِ ووسائلِ كسبِهِمُ ٱلمعيشيَّةِ .

(٢) أَخرجَ أَبو نُعيمٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « ٱلحِلْيةِ » عَنْ وهْبِ بنِ مُنبِّهٍ ، قالَ : قرأْتُ أَحداً وسبعينَ كتاباً ، فوجدتُ في جميعها أَنَّ ٱللهَ تعالىٰ لَمْ يُعطِ جميعَ ٱلنَّاسِ مِنْ بَدءِ ٱلدُّنيا إِلىٰ ٱنقضائِها مِنَ ٱلعقلِ في جنبِ عقلِ محمَّدٍ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إِلاَّ كحبَّةِ رملٍ مِنْ جميعِ رمالِ ٱلدُّنيا ، وأَنَّ محمَّداً صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَرجحُ ٱلنَّاسِ عقلاً .

قالَتْ : يا رَبَّنا . . هل خلقتَ خَلْقاً أَعظمَ مِنَ ٱلعَرْشِ ؟ قالَ : ﴿نعَمْ ، ٱلعَقْلُ﴾ ، قالوا : وما بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ ؟ قالَ : ﴿هَيْهاتَ ، لاَ يُحاطُ بِعِلْمِهِ ، هَلْ لَكُمْ عِلْمٌ بِعَدَدِ ٱلرَّمْلِ ؟﴾ ، قالوا : لا ، قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿فإِنِّيْ خَلَقْتُ ٱلعَقْلَ أَصْنَافاً شَتَّىٰ كَعَدَدِ ٱلرَّمْلِ ، فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّتَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ ٱلثَّلاثَ ، وَمِنْهُمُ ٱلأَرْبَعَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ فَرَقاً[1] ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ وَسْقاً[2] ، ومِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾[3] .

فإِنْ قُلتَ : فما بالُ أَقوامٍ مِنَ ٱلمُتَصوِّفَةِ يَذُمُّونَ ٱلعقلَ وٱلمعقولَ ؟

. . فٱعلَمْ : أَنَّ ٱلسَّببَ فيهِ أَنَّ ٱلنَّاسَ نقلوا ٱسمَ ٱلعَقلِ وٱلمَعقولِ إِلىٰ ٱلمُجادَلَةِ وٱلمُناظَرَةِ بِٱلمُناقضاتِ وٱلإِلزاماتِ ، وهوَ صنعةُ ٱلكلامِ ، فلَمْ يقدِروا علىٰ أَنْ يُقرِّروا عندَهُم أَنَّكُمْ أَخطأْتُم في

(١) الفَرَقُ : مكيالٌ معروفٌ بـ(ٱلمدينةِ) ، وهوَ ستَّةَ عشرَ رَطْلاً ، ويعادلُ ثلاثةَ آصعٍ ، يزن : (٦,٥) كغ ، وأَمَّا الفَرْقُ فيعادلُ : (١٢٠) رطلاً ، ويزن : (٤٨,٧٥) كغ تقريباً .

(٢) ٱلوَسْقُ : ستُّونَ صاعاً ، قالَ ٱلخليلُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (الوَسْقُ : حِمْلُ بعيرٍ) . ويعادِلُ : (١٠٣,٦٨) كغ تقريباً .

(٣) أَخرجَهُ في « مسندُ ٱلحارث ـ زوائد ٱلهيثمي » عن أَنسِ بنِ مالكٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ برقم : (٨٢٦) (٢/ ٨٠٧) . وأَخرجَهُ ٱبنُ ٱلمجد من حديثِ أنسٍ بتمامه ، وٱلحكيمُ في « ٱلنَّوادرِ » مختصراً (ص/ ٤٠٥ـ٤٠٦) .

ٱلتَّسميةِ ، إِذْ كانَ لا ينمحي عَنْ قلوبِهِم بعدَ تداولِ ٱلأَلسِنَةِ بِهِ ورسوخِهِ في ٱلقُلوبِ ، فذَمُّوا ٱلعقلَ وٱلمعقولَ ؛ وهوَ ٱلمسمَّىٰ بِهِ عندَهُم .

فأَمَّا نورُ ٱلبَصيرَةِ ٱلباطِنَةِ ٱلَّتي بِها يُعرَفُ ٱللهُ تعالىٰ ويُعرَفُ صِدقُ ٱلرَّسولِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فكيفَ يُتَصَوَّرُ ذَمُّهُ وقد أَثنىٰ ٱللهُ عليهِ ؟

وإِنْ ذُمَّ فما ٱلَّذي بعدَهُ يُحمَدُ ؟!

فإِنْ كانَ ٱلمحمودُ هوَ ٱلشَّرعُ فَبِمَ عُلِمَ صِحَّةُ ٱلشَّرعِ ؟

فإِنْ عُلِمَ بِٱلعقلِ ٱلمذمومِ ٱلَّذي لا يُوثَقُ بِهِ فيكونُ ٱلشَّرعُ مذموماً .

ولا يُلتفتُ إِلىٰ مَنْ يقولُ : (إِنَّهُ يُدرَكُ بعينِ ٱليقينِ ، ونورِ ٱلإِيمانِ ، لا بِٱلعقلِ) ، فإِنَّا نريدُ بِٱلعقلِ ما يريدُهُ بعينِ ٱليَقينِ ونورِ ٱلإِيمانِ ؛ وهيَ ٱلصِّفَةُ ٱلباطِنَةُ ٱلَّتي يتميَّزُ بِها ٱلآدَميُّ عَنِ ٱلبَهائِمِ حتَّىٰ أَدرَكَ بِها حقائِقَ ٱلأُمورِ .

وأَكثرُ هـٰذهِ ٱلتَّخبيطاتِ إِنَّما ثارَتْ مِنْ جَهلِ أَقوامٍ طَلبوا ٱلحقائِقَ مِنَ ٱلأَلفاظِ ، فتخبَّطوا فيها ؛ لتخبُّطِ ٱصطلاحاتِ ٱلنَّاسِ في ٱلأَلفاظِ .

وهـٰذا ٱلقَدرُ كافٍ في بيانِ ٱلعَقلِ إِنْ شاءَ ٱللهُ تعالىٰ .

* * *

ومِنْ كتابِ (قواعِدِ ٱلعَقائِدِ)[1] قولُهُ :

ويشتدُّ حِرصُهُمْ علىٰ ٱلإصرارِ ، ولـٰكِنَّ هـٰذا ٱلضَّرَرَ بواسِطَةِ ٱلتَّعصُّبِ ٱلَّذي يَثورُ مِنَ ٱلجَدَلِ ؛ ولذلِكَ ترىٰ ٱلمُبتَدِعَ ٱلعامِّيَّ يُمكِنُ أَنْ يُزالَ ٱعتقادُهُ بٱللُّطفِ في أَسرعِ زمانٍ ، إلاَّ إذا كانَ في بلدٍ يَظْهَرُ فيهِ ٱلجَدَلُ وٱلتَّعَصُّبُ ؛ فإِنَّهُ لَوِ ٱجتمعَ عليهِ ٱلأَوَّلونَ وٱلآخِرونَ . . لَمْ يقدِروا علىٰ نَزعِ ٱلبِدعَةِ مِنْ صدرِهِ ، بَلِ ٱلهوىٰ وٱلتَّعَصُّبُ وبغضُ خصومِهِ ٱلمُجادِلينَ يَستولي علىٰ قلبِهِ ، ويمنعُهُ مِنْ إدراكِ ٱلحقِّ ، حتَّىٰ إِنَّهُ لو قيلَ لَهُ : (هل تُريدُ أَنْ يَكْشِفَ ٱللهُ لكَ ٱلغِطاءَ ، ويُعَرِّفَكَ بٱلعِيانِ أَنَّ ٱلحقَّ معَ خصمِكَ ؟) . . لكرِهَ ذلِكَ خيفةً مِنْ أَنْ يفرَحَ بِهِ خصمُهُ .

وهـٰذا هوَ ٱلدَّاءُ ٱلعُضالُ ٱلَّذي ٱستطارَ في ٱلبلادِ وٱلعِبادِ ، وهوَ نوعُ فسادٍ أَثارَهُ ٱلمُجادِلونَ بٱلتَّعَصُّبِ .

وقالَ بعدَ أَنْ ساقَ كلاماً [كما في « الإحياء » ١/١٦٩] :

وأَمَّا ٱلعامِّيُّ ٱلمُعتقِدُ ٱلبِدعَةَ : فينبغي أَنْ يُدعَىٰ إِلىٰ ٱلحقِّ بٱلتَّلَطُّفِ لا بٱلتَّعَصُّبِ ، وبٱلكلامِ ٱللَّطيفِ ٱلمُقنِعِ للنَّفْسِ ، ٱلمُؤَثِّرِ في ٱلقلبِ .

* * *

---

(١) كما في « الإحياء » (١/ ١٦٧) .

ومِنَ ٱلفصلِ ٱلثَّالِثِ

مِنْ كتابِ (قواعِدِ ٱلعَقَائِدِ)[1] قولُهُ :

الأَصلُ السَّابعُ[2] [مِنَ ٱلرُّكنِ ٱلأَوَّلِ مِنْ أَركانِ ٱلإِيمانِ في معرفةِ ذاتِ ٱللهِ تعالى] :

ٱلعِلْمُ بأَنَّ ٱللهَ تعالىٰ مُنَزَّهُ ٱلذَّاتِ عَنِ ٱلاختصاصِ بٱلجهاتِ .

فإِنَّ ٱلجهةَ إِمَّا فوقٌ وإِمَّا تحتٌ ، وإِمَّا يمينٌ وإِمَّا شِمالٌ ، وإِمَّا

---

(١) كما في « الإحياء » (١/ ١٨٥) .

(٢) تقومُ معرفةُ ذاتِ ٱللهِ ٱلواحدِ سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ عَشَرَةِ أُصولٍ ؛ هيَ :

ٱلأَوَّلُ : معرفةُ وجودِهِ تعالىٰ .

ٱلثَّاني : ٱلعلمُ بأَنَّهُ تعالىٰ قديمٌ ، أَزليٌّ ، ليسَ لوجودِهِ بدايةٌ .

ٱلثَّالثُ : ٱلعلمُ بأَنَّهُ تعالىٰ أزليٌّ ، أَبديٌّ ، ليسَ لوجودِهِ نهايةٌ .

ٱلرَّابعُ : ٱلعلمُ بأَنَّهُ تعالىٰ ليسَ بجوهرٍ يتحيَّزُ .

ٱلخامسُ : ٱلعلمُ بأَنَّهُ تعالىٰ ليسَ بجسمٍ مؤلَّفٍ من جواهرَ .

ٱلسَّادسُ : ٱلعلمُ بأَنَّهُ تعالىٰ ليسَ بَعَرَضٍ قائمٍ بجسمٍ أَو حالٌّ في مَحَلٍّ .

ٱلسَّابعُ : ٱلمذكورُ أَعلاهُ في المتن .

ٱلثَّامنُ : ٱلعلمُ بأَنَّهُ تعالىٰ مستوٍ علىٰ عرشِهِ بٱلمعنىٰ ٱلَّذي أَرادَهُ تعالىٰ .

ٱلتَّاسعُ : ٱلعلمُ بأَنَّهُ تعالىٰ معَ كونِهِ مُقَدَّساً عَنِ ٱلصُّورةِ وٱلمِقدارِ ، مُقَدَّساً عَنِ ٱلجهاتِ وٱلأَقطارِ ، مَرئيّاً بٱلأَعيُنِ وٱلأَبصارِ في ٱلدَّارِ ٱلآخرَةِ .

ٱلعاشرُ : ٱلعلمُ بأَنَّهُ تعالىٰ واحدٌ لا شريكَ لَهُ ، فردٌ لا نِدَّ لَهُ ، لا مثيلَ لَهُ ، ولا ضِدَّ لَهُ .

قُدَّامٌ أَو خَلفٌ ، وهـٰذِهِ ٱلجِهاتُ هوَ ٱلَّذي خَلَقها وأَحدَثها بواسِطِةِ خَلْقِ ٱلإنسانِ .

إِذْ خَلَقَ لَهُ طَرَفينِ :

أَحـدُهُمـا يعتمِـدُ علـىٰ ٱلأَرضِ ، ويُسمَّـىٰ رِجْـلاً ، **وٱلآخَـرُ** يقابِلُهُ ، ويُسمَّىٰ رأَساً ، فحَدَثَ ٱسمُ ٱلفَوْقِ لِمَا يلي جهةَ ٱلرَّأْسِ ، وٱسمُ ٱلسُّفْلِ لِمَا يلي جهةَ ٱلرِّجْلِ ، حتَّىٰ إِنَّ ٱلنَّملةَ ٱلَّتي تَدُبُّ مُتنكِّسَةً تحتَ ٱلسَّقْفِ تنقلِبُ جهةُ ٱلفَوْقِ في حقِّها تحتاً ، وإِنْ كانَ في حقِّنا فَوْقاً .

وخَلَقَ للإِنسانِ ٱليَدَيْنِ ، إِحداهُما أَقوىٰ مِنَ ٱلأُخرىٰ في ٱلغالِبِ ، فَحَدَثَ ٱسمُ ٱليَمينِ للأَقوىٰ ، وٱسمُ ٱلشِّمالِ لِمَا يقابِلُهُ . وتُسمَّىٰ ٱلجهةُ ٱلَّتي تلي ٱليَمينَ يميناً ، وٱلأُخرىٰ شِمالاً .

وخَلَقَ لَهُ جانبينِ ينظُرُ مِنْ أَحَدِهِما ، ويتحرَّكُ إِليهِ ، فحَدَثَ ٱسمُ ٱلقُدَّامِ للجهةِ ٱلَّتي يتقدَّمُ إِليها بٱلحركَةِ ، وٱسمُ ٱلخَلْفِ لِمَا يُقابِلُها .

فٱلجهاتُ حادِثَةٌ بحدوثِ ٱلإِنسانِ .

ولو لَمْ يُخْلَقِ ٱلإنسانُ بهـٰذهِ ٱلخِلْقَةِ ؛ بل خَلَقَهُ مُستديراً كٱلكُرَةِ . . لم يكُنْ لهـٰذهِ ٱلجِهاتِ وجودٌ ٱلبَتَّةَ .

فكيفَ كانَ تعالىٰ في ٱلأَزلِ مُخْتَصّاً بجِهَةٍ ، وٱلجِهَةُ حادِثَةٌ ؟!

أَو كيفَ صارَ مُختصّاً بجهَةٍ بعدَ أَنْ لَمْ تكُنْ ؟! إلاَّ بأَنْ خَلَقَ ٱلعالَمَ فوقَهُ ، وتعالىٰ عَن أَنْ يكونَ لَهُ فَوقٌ ، إِذْ تعالىٰ أَنْ يكونَ لَهُ رأسٌ ، وٱلفَوقُ عبارةٌ عمَّا يكونُ جهةَ ٱلرَّأْسِ .

أَو أَنْ خَلَقَ ٱلعالَمَ تحتَهُ ، وتعالىٰ عن أَنْ يكونَ لَهُ تحتٌ ، إِذ تعالىٰ أَنْ يكونَ لَهُ رِجْلٌ ، وٱلتَّحتُ عبارَةٌ عمَّا يلي ٱلرِّجلَ .

فَكُلُّ ذلِكَ ممَّا يَستحيلُ في ٱلعَقلِ ؛ لأَنَّ ٱلمَعقولَ مِنْ كونِهِ بجهَةٍ أَنَّهُ مُختصٌّ بحيِّزٍ ٱختصاصِ ٱلجَوهَرِ ، أَو مُختصٌّ بٱلجَوهَرِ ٱختصاصَ ٱلعَرَضِ ، وقد ظَهَرَ ٱستحالَةُ كونِهِ جَوهراً وعَرَضاً ، **فٱستحالَ كونُهُ مُختصّاً بجهَةٍ .**

وأَمَّا رَفْعُ ٱلأَيدي عندَ ٱلسُّؤالِ إِلىٰ جهَةِ ٱلسَّماءِ : فهوَ لأَنَّها قِبْلَةُ ٱلدُّعاءِ ، وفيهِ أَيضاً إِشارَةٌ إِلىٰ ما هوَ وصفٌ للمدعوِّ مِنَ ٱلجَلالِ وٱلكبرياءِ .

ٱنتهىٰ معَ حذفِ بعضِ ٱلأَلفاظِ .

* * *

ومنهُ[1] ٱلأَصلُ ٱلثَّاني[2]

[مِنَ ٱلرُّكنِ ٱلثَّالثِ مِنْ أركانِ ٱلإيمانِ، وهوَ ٱلعلمُ بأَفعالِ ٱللهِ تعالىٰ] :

أَنَّ ٱنفرادَ ٱللهِ تعالىٰ بٱختراعِ حركاتِ ٱلعِبادِ . . لا يُخرِجُها عَنْ

---

(١) كما في « الإحياء » (٢/ ١٩٣) .

(٢) تقومُ معرفةُ أَفعالِ ٱللهِ تعالىٰ علىٰ عَشَرَةِ أُصولٍ، وهيَ ـ كما وَرَدتْ في «الإحياءِ» ـ:

ٱلأَوَّلُ : ٱلعلمُ بأَنَّ كلَّ حادثٍ في ٱلعالَمِ هوَ فِعلُهُ وخَلْقُهُ وٱختراعُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ .

ٱلثَّاني وٱلثَّالثُ : ذكَرَهُما ٱلمصنِّفُ رَحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَعلاهُ في المتن .

ٱلرَّابعُ : أَنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ مُتفضِّلٌ بٱلخَلْقِ وٱلاختراعِ، وليسَ شيءٌ واجباً عليهِ.

ٱلخامسُ : أَنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ يجوزُ عليهِ أَنْ يُكلِّفَ ٱلخَلْقَ مالا يُطيقونَهُ ، ولو لَمْ يَجُزْ ذلكَ . . لاستحالَ سؤالُ دفعِهِ ، وقد سأَلوا ذلكَ فقالوا : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] .

ٱلسَّادسُ : أَنَّ لَهُ سبحانَهُ وتعالىٰ إِيلامَ ٱلخَلْقِ وتعذيبَهُم مِنْ غيرِ جُرمٍ سابقٍ ، ومِنْ غيرِ ثوابٍ لاحقٍ ؛ لأَنَّهُ يتصرَّفُ في مُلْكِهِ ، والظُّلْمُ هوَ عبارةٌ عَنْ تصرُّفٍ في مُلْكِ ٱلغيرِ بغيرِ إِذنهِ ، وهوَ محالٌ علىٰ ٱللهِ تعالىٰ ؛ لأَنَّ ٱلمُلْكَ مُلْكُهُ سبحانَهُ .

ٱلسَّابعُ : أَنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ يفعلُ بعبادِهِ ما يشاءُ ، فإِنَّهُ : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٣] .

ٱلثَّامنُ : أَنَّ معرفتَهُ سبحانَهُ وتعالىٰ وطاعتَهُ واجبةٌ بإِيجابِ ٱللهِ وشرعِهِ .

ٱلتَّاسعُ : أَنَّهُ ليسَ يَستحيلُ بِعثةُ ٱلأَنبياءِ عليهِمُ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ .

ٱلعاشرُ : أَنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَرسلَ محمَّداً صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ خاتِماً للنَّبيِّينَ ، وناسِخاً لِمَا قبلَهُ مِنَ ٱلشَّرائِعِ ، وأَيَّدهُ بٱلمعجزاتِ .

انتهى من « إحياء علوم ٱلدِّين » (٢/ ١٩٣ـ ٢٠٢) .

كونِها مَقدورَةً للعِبادِ علىٰ سبيلِ ٱلاكتسابِ ، بَلِ ٱللهُ خالِقُ ٱلقُدرَةِ وٱلمَقدورِ جميعاً ، وخالِقُ ٱلاختيارِ وٱلمُختارِ جميعاً .

أَمَّا ٱلقُدرَةُ : فوصفٌ للعبدِ ، وخَلْقٌ للرَّبِّ ، وليسَ بكَسبٍ لَهُ .

وأَمَّا ٱلحركَةُ : فخَلْقٌ للرَّبِّ ، ووصفٌ للعبدِ ، وكسبٌ لَهُ ؛ فإِنَّها خُلِقَتْ مَقدورَةً بقُدرَةٍ هيَ وَصفُهُ ، فكانَتِ ٱلحركَةُ نسبةً إِلىٰ صفةٍ أُخرىٰ تُسمَّىٰ قُدرَةً ، فتُسمَّىٰ بٱعتبارِ تلكَ النِّسبَةِ كَسباً .

وكيفَ تكونُ جَبراً مَحضاً وهوَ بالضَّرورةِ يُدْرِكُ التَّفرِقَةَ بينَ ٱلحركَةِ ٱلمَقْدورَةِ والرِّعْدَةِ الضَّروريَّةِ ؟!

أَوَ كيفَ يكونُ خَلْقاً للعبدِ وهوَ لا يُحيطُ عِلماً بتفاصيلِ أَجزاءِ ٱلحركاتِ ٱلمُكتسبَةِ وأَعدادِها ؟!!

وإِذا بَطَلَ ٱلطَّرفانِ . . لَمْ يَبقَ إِلاَّ ٱلاقتصادُ في ٱلاعتقادِ ؛ وهيَ أَنَّها مُقَدَّرةٌ بقُدرَةِ ٱللهِ تعالىٰ ٱختراعاً ، وبقُدرَةِ ٱلعبدِ علىٰ وجهٍ آخَرَ مِنَ ٱلتَّعلُّقِ يُعَبَّرُ عنهُ بٱلاكتسابِ ، وليسَ مِنْ ضرورَةِ تعلُّقِ ٱلقُدرَةِ بٱلمَقدورِ أَنْ يكونَ بٱلاختراعِ فقط ؛ إِذ قُدرَةُ ٱللهِ تعالىٰ في ٱلأَزَلِ كانت مُتَّعَلِّقَةً بٱلعالَمِ ولَمْ يكُنِ ٱلاختراعُ حاصِلاً بها ، وهيَ عندَ ٱلاختراعِ مُتَعَلِّقَةٌ بهِ نوعاً آخرَ مِنَ ٱلتَّعلُّقِ ، فبهِ يَظهَرُ أَنَّ تعلُّقَ ٱلقُدرَةِ ليسَ مخصوصاً بحصولِ ٱلمقدورِ بها[1] .

---

(١) وهـٰذا ٱلتَّعلُّق هوَ ٱلمُسمَّىٰ بٱلكسبِ . « إتحاف » (٢/١٦٨) .

ٱلأَصلُ ٱلثَّالِثُ

[مِنَ ٱلرُّكنِ ٱلثَّالثِ مِنْ أَركانِ ٱلإيمانِ، وهوَ ٱلعِلمُ بأَفعالِ ٱللهِ تعالىٰ]

إنَّ فِعلَ ٱلعبدِ وإنْ كانَ كَسْباً للعبدِ . . فلاَ يَخرُجُ عَنْ كونِهِ مُراداً للهِ تعالىٰ ، فلا يجري في ٱلمُلْكِ وٱلمَلكوتِ طرفَةُ عينٍ ، ولا فَلْتَةُ خاطِرٍ ، ولا لَفتَةُ ناظِرٍ . . إلاَّ بقضاءِ ٱللهِ تعالىٰ وقُدرَتِهِ ، وبإرادَتِهِ ومشيئَتِـهِ ؛ فمِنـهُ ٱلخيـرُ وٱلشَّـرُّ ، وٱلنَّفـعُ وٱلضُّـرُّ ، وٱلإسـلامُ وٱلكُفْـرُ ، وٱلعِـرفـانُ وٱلنُّكـرُ ، وٱلفـوزُ وٱلخُسْـرُ ، وٱلغِـوَايَـةُ وٱلـرُّشـدُ ، وٱلطَّـاعَـةُ وٱلعِصيـانُ ، وٱلشِّـركُ وٱلإيمـانُ ، لا رادَّ لقضائِهِ ، ولا مُعقِّبَ لحُكْمِهِ .

﴿ . . يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ . . ﴾[1] .

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[2] .

ويدلُّ عليهِ مِنَ ٱلنَّقلِ : قولُ ٱلأُمَّةِ قاطبةً : (ما شاءَ ٱللهُ كانَ ، وما لَمْ يَشأْ لَمْ يَكُنْ)[3] .

---

(١) سورة النحل : (٩٣) .

(٢) سورة الأنبياء : (٢٣) .

(٣) وأكبرُ دليلٍ مِنَ ٱلنَّقلِ هوَ قولُهُ تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ =

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ . . أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ . . ﴾[1]

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . . ﴾[2] .

ويدلُّ عليهِ مِنْ جهةِ ٱلعَقلِ : أَنَّ ٱلمعاصيَ وٱلجرائِمَ إِنْ كانَ ٱللهُ تعالىٰ يكرَهُها ولا يُريدُها وإِنَّما هيَ جاريةٌ علىٰ وَفْقِ إِرادَةِ إِبليسَ ـ لعنَهُ ٱللهُ ـ معَ أَنَّهُ عدوُّ ٱللهِ . . فٱلجاري علىٰ وَفْقِ إِرادَةِ ٱلعدوِّ أَكثرُ مِنَ ٱلجاري علىٰ وَفْقِ إِرادَتِهِ تعالىٰ ! !

فليتَ شِعري كيفَ يَستجيزُ ٱلمسلِمُ أَنْ يَرُدَّ مُلْكَ ٱلجبَّارِ ذي ٱلجَلالِ وٱلإِكرامِ إِلىٰ رُتبَةٍ لو رُدَّتْ إِليها رئاسَةُ زعيمِ ضَيْعَةٍ . . لاستنكَفَ عنها ؟ !

إِذ لو كانَ ما يستمرُّ لعدوِّ ٱلزَّعيمِ في ٱلقَريَةِ أكثرَ ممَّا يستمرُّ لَهُ . . لاستنكفَ مِن زعامَتِهِ ، وتبرَّأَ مِنْ ولايتهِ .

وٱلمعصيةُ هيَ ٱلغالِبَةُ علىٰ ٱلخَلْقِ ، وكُلُّ ذلِكَ جارٍ عندَ

= وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء : ٧٨] ، وهذا تقريرُ ٱلواقعِ .

وأَمَّا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] . . فهوَ تعليمٌ للأَدبِ معَ ٱللهِ تعالىٰ بأَنْ ننسُبَ ٱلخيرَ إِليهِ ، وٱلشَّرَ لأَنفُسنا . وٱللهُ أَعلَمُ .

(١) سورة الرعد : (٣١) .

(٢) سورة السجدة : (١٣) .

ٱلمُبتَدِعَةِ علىٰ خِلافِ إِرادَةِ ٱللهِ تعالىٰ ! !

وهٰذا غايَةُ ٱلضَّعفِ وٱلعَجْزِ .

تعالىٰ ربُّ ٱلعزَّةِ وٱلأَربابِ عَنْ قولِ ٱلظَّالِمينَ عُلوّاً كبيراً .

ثمَّ مهما ظهرَ أَنَّ أفعالَ ٱلعبادِ مخلوقَةٌ للهِ تعالىٰ . . صحَّ أَنَّها مرادةٌ لَهُ .

فإِنْ قيلَ : كيفَ يَنهىٰ عَمَّا يُريدُ ، ويأْمُرُ بما لا يُريدُ ؟

قُلنا : ٱلأَمرُ غيرُ ٱلإِرادَةِ ؛ ولذلِكَ إِذا ضربَ ٱلسَّيِّدُ عبدَهُ ، فعاتَبَهُ ٱلسُّلطانُ عليهِ ، فٱعتذرَ بتمرُّدِ عبدِهِ عليهِ ، فكذَّبَهُ ٱلسُّلطانُ ، فأَرادَ إِظهارَ حُجَّتِهِ ، بِأَنْ يَأْمُرَ ٱلعبدَ بفعلٍ ويخالِفَهُ بينَ يديهِ ، فقالَ لَهُ : أَسرِج هٰذِهِ ٱلدَّابَّةَ بمشهَدٍ مِنَ ٱلسُّلطانِ ؛ فهوَ يأْمُرُهُ بما لا يُريدُ ٱمتثالَهُ ، ولو لَمْ يكُنْ آمراً . . لَما كانَ عُذْرُهُ عندَ ٱلسُّلطانِ مُتَمَهِّداً ، ولو كانَ مُريداً لامتثالِهِ . . لكانَ مُريداً لهلاكِ نفسِهِ ، وهوَ مُحالٌ .

* * *

ومِنَ ٱلفصلِ ٱلرَّابعِ مِنْ كتابِ (قواعِدِ ٱلعَقائِدِ)[1] قولُهُ :

الدَّرجَةُ ٱلسَّادِسَةُ [مِنْ درجاتِ ٱلإِيمانِ][2]

أَنْ يقولَ بلسانِهِ : (لا إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ، مُحَمَّدٌ رسولُ ٱللهِ) ، ولـٰكِنْ لَمْ يُصدِّقْ بقلبِهِ .

فلا نشُكُّ في أَنَّ هـٰذا في حُكْمِ ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلكُفَّارِ ، وأَنَّهُ مُخَلَّدٌ في ٱلنَّارِ ، ولا نشُكُّ أَنَّهُ مؤمِنٌ في حُكْمِ ٱلدُّنيا ٱلَّذي يتعلَّقُ بٱلأَئِمَّةِ وٱلوُلاةِ مِنَ ٱلمُسلِمينَ ؛ لأَنَّ قلبَهُ لا يُطَّلَعُ عليهِ ، وعلينا أَنْ نظُنَّ بِهِ أَنَّهُ ما قالَهُ بلسانِهِ . . إلاَّ وهوَ مُنْطَوٍ عليهِ في قلبِهِ ؛ وإِنَّما نشُكُّ في

---

(١) كما في « الإحياء » (٢/ ٢٠٧) .

(٢) ذَكَرَ ٱلإمامُ ٱلغزاليُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ للإيمانِ سِتَّ درجاتٍ ، هيَ بإِيجازٍ :
ٱلأُولىٰ : أَنَّ ٱلإيمانَ عَقْدٌ بٱلقلبِ ، وشهادةٌ بٱللِّسانِ ، وعملٌ بٱلأَركانِ .
ٱلثَّانيةُ : أَنْ يوجدَ ٱلقولُ وٱلعَقدُ وبعضُ ٱلأَعمالِ .
ٱلثَّالثةُ : أَنْ يوجدَ ٱلتَّصديقُ بٱلقلبِ ، وٱلشَّهادةُ بٱللِّسانِ ، دون ٱلأعمالِ بٱلجوارح .
ٱلرَّابعةُ : أَن يوجدَ ٱلتَّصديقُ بٱلقلب قبل أَن ينطِقَ بٱللِّسانِ ، أَو يشتغلَ بٱلأعمالِ ثمَّ ماتَ .
ٱلخامسةُ : أَنْ يُصدِّقَ بٱلقلبِ ويساعدُهُ مِنَ ٱلعُمُرِ مهلةُ ٱلنُّطقِ بكلمَتيِ ٱلشَّهادةِ ، وَعَلِمَ وجوبها ، ولـٰكنَّهُ لَمْ ينطِقْ بِها .
ٱلسَّادسةُ : وهيَ ٱلَّتي ذَكَرَها ٱلمؤلِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَعلاهُ في المتن .
« إحياء علوم ٱلدِّين » (٢/ ٢٠٦) بتصرُّفٍ .

أَمرٍ ثالثٍ وهوَ ٱلحُكْمُ ٱلدُّنيويُّ فيما بينَهُ وبينَ ٱللهِ تعالىٰ ، وذلِكَ بأَنْ يموتَ لَهُ في هـٰذهِ ٱلحالَةِ قريبٌ مسلمٌ ، ثُمَّ يُصَدِّقُ بعدَ ذلِكَ بقلبِهِ ، ثُمَّ يستفتي ويقولُ : كنتُ غيرَ مُصَدِّقٍ بٱلقلبِ حالَةَ ٱلموتِ ، وٱلميراثُ ٱلآنَ في يدي ، فهَلْ يَحِلُّ لي بيني وبينَ ٱللهِ سبحانَهُ ؟

أَو نَكَحَ مُسلِمَةً ، ثُمَّ صَدَّقَ بقلبِهِ ، هَلْ تلزَمُهُ إِعادَةُ ٱلنِّكاحِ ؟

هـٰذا في محلِّ ٱلنَّظَرِ .

فيُحتَمَلُ أَنْ يُقالَ : أَحكامُ ٱلدُّنيا منوطَةٌ بٱلقولِ ٱلظَّاهِرِ ظاهراً وباطِناً ، ويُحتَمَلُ أَنْ يُقالَ : تُناطُ بٱلظَّاهِرِ في حقِّ غيرِهِ ؛ لأَنَّ باطِنَهُ غيرُ ظاهِرٍ لغيرِهِ ، وباطِنَهُ ظاهِرٌ لَهُ في نفسِهِ بينَهُ وبينَ ٱللهِ تعالىٰ .

وٱلأَظهَرُ ـ وٱلعِلْمُ عندَ ٱللهِ ـ : أَنَّهُ لا يَحِلُّ لَهُ ذلكَ ٱلميراثُ ، ويلزَمُهُ إِعادَةُ ٱلنِّكاحِ .

ولذلِكَ كانَ حُذيفةُ رضيَ ٱللهُ عنهُ لا يحضُرُ جنازَةَ مَنْ يموتُ مِنَ ٱلمُنافقينَ ، وعُمَرُ رضيَ ٱلله عنهُ كانَ يُراعي ذلِكَ منهُ ، فلا يحضُرُ إِذا لَمْ يحضُرْ حُذيفةُ رضيَ ٱللهُ عنهُ .

وٱلصَّلاةُ فِعلٌ ظاهِرٌ في ٱلدُّنيا وإِنْ كانَ مِنَ ٱلعباداتِ ، وٱلتَّوَقِّي مِنَ ٱلحرام أَيضاً في جُملَةِ ما يجبُ للهِ تعالىٰ كٱلصلاةِ ؛ لقولهِ ـ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ : « طَلَبُ ٱلْحَلاَلِ فَرِيْضَةٌ بَعْدَ

ٱلْفَرِيْضَةِ »[1] . وليسَ هـٰذا مُناقضاً لقولِنا : إنَّ ٱلإرثَ حُكْمُ ٱلإسلامِ ، وهوَ ٱلاستسلامُ ؛ بل لأَنَّ ٱلاستسلامَ ٱلتَّامَّ هوَ ما يشمَلُ ٱلظَّاهِرَ وٱلباطِنَ ، وهـٰذهِ مباحِثُ فِقهيَّةٌ ظَنِّيَّةٌ تنبني علىٰ ظواهِرِ ٱلألفاظِ وٱلعُموماتِ وٱلأَقيسَةِ ، فلا ينبغي أَنْ يَظُنَّ ٱلقاصِرُ في ٱلعُلومِ أَنَّ ٱلخِلافَ ٱلمَطْلَبُ فيهِ ٱلقَطعُ مِنْ حيثُ جرتِ ٱلعادَةُ بإِيرادِهِ في فنِّ ٱلكلامِ ٱلَّذي يُطلَبُ فيهِ ٱلقَطعُ ، فما أَفلحَ مَنْ نَظَرَ إلىٰ ٱلعاداتِ وٱلمراسِمِ في ٱلعُلومِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ٢/ ٢١١] :

قولُهُ :

الإيمانُ ٱسمٌ مُشتركٌ يُطلَقُ مِنْ ثلاثَةِ أَوجُهٍ[2] :

ٱلأَوَّلُ : أَنَّهُ يُطلَقُ للتَّصديقِ بٱلقلبِ ، علىٰ سبيلِ ٱلاعتقادِ

---

(١) أَخرجَهُ عنِ ٱبنِ مسعودٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلطَّبرانيُّ في « ٱلمعجمِ ٱلأوسطِ » (٨٦١٠) ، و« ٱلمعجم الكبير » (٩٩٩٣٠) ، وٱلبيهقيُّ في « ٱلكبرىٰ » (١١٤٧٥) .

(٢) ذَكَرَ ٱلمصنِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ٱلوجهَ ٱلأَوَّلَ ، ولَمْ يذكُرِ ٱلوجهينِ ٱلآخرَيْنِ ، وهُما :

ٱلثَّاني : أَنْ يُرادَ بهِ ٱلتَّصديقُ وٱلعملُ جميعاً .

ٱلثَّالثُ : أَنْ يُرادَ بهِ ٱلتَّصديقُ ٱليقينيُّ علىٰ سبيلِ ٱلكَشْفِ وٱنشراحِ ٱلصَّدرِ ، وٱلمشاهدة بنورِ ٱلبَصيرةِ .

والتَّقليدِ ، مِنْ غيرِ كَشْفٍ وانشراحِ صَدرٍ ، وهوَ إيمانُ العَوامِّ ، بل إيمانُ الخَلْقِ كُلِّهم إلاَّ الخواصَّ .

وهٰذا الاعتقادُ عُقدَةٌ علىٰ القلبِ ، تارَةً تقوىٰ وتشتدُّ ، وتارَةً تَضعُفُ وتسترخي ، كالعُقدَةِ علىٰ الخيطِ مثلاً ، ولا يستبعَدُ هٰذا ، واعتُبرَ باليَهوديِّ في صلابَتِهِ في عقيدتِهِ الَّتي لا يُمكِنُ نزعُهُ عنها بتخويفٍ وتحذيرٍ ، ولا بتخييلٍ ووعظٍ ، ولا تحقيقٍ وبُرهانٍ ، وكذا النَّصارىٰ والمُبتَدِعَةُ ، ومنهُم مَنْ يُمكِنُ تشكيكُهُ بأَدنىٰ كلامٍ ، ويُمكِنُ استنزالُهُ عَنِ اعتقادِهِ بأَدنىٰ استمالَةٍ أَو تخويفٍ ، معَ أَنَّهُ غيرُ شاكٍّ في اعتقادِهِ كالأَوَّلِ ، ولٰكنَّهُما يتفاوتانِ في تشديدِ التَّصميمِ .

وهٰذا موجودٌ في الاعتقادِ الحقِّ أَيضاً ، والعملُ يؤثِّرُ في كمالِ هٰذا التَّصميمِ وزيادَتِهِ ، كما يؤثِّرُ سَقْيُ الماءِ في نماءِ الأَشجارِ .

ولذلِكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا . . ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ . . لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ . . ﴾[2] .

وقال صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فيما رُوِيَ في بعضِ الأَخبارِ :

---

(١) سورة آل عمران : (١٧٣) .

(٢) سورة الفتح : (٤) .

« ٱلإِيمَانُ يَزِيْدُ وَيَنْقُصُ »(١) ، وذلكَ بتأثيرِ ٱلطَّاعاتِ في ٱلقلبِ ، وهـٰذا لا يُدرِكُهُ إلاَّ مَنْ راقَبَ أَحوالَ نفسِهِ(٢) في أَوقاتِ ٱلمواظبَةِ علىٰ ٱلعبادَةِ ، وٱلتَّجرُّدِ لها بحضورِ ٱلقلبِ معَ أَوقاتِ ٱلفتورِ ، وإِدراكِ ٱلتَّفاوُتِ في ٱلسُّكونِ إِلىٰ عقائِدِ ٱلإيمانِ في هـٰذهِ ٱلأَحوالِ حتَّىٰ يَزيدَ عُقَدَهُ ٱستعصاءً علىٰ مَنْ يُريدُ حَلَّهُ بٱلتَّشكيكِ .

بل مَنْ يَعتقِدُ في ٱليَتيمِ معنىٰ ٱلرَّحمةِ إِذا عَمِلَ بموجِبِ ٱعتقادِهِ ، فمَسَحَ رأْسَهُ ، وتلطَّفَ بِهِ . . أَدركَ مِنْ باطِنِهِ تأْكيدَ ٱلرَّحمةِ ، وتضاعُفَها بسبَبِ ٱلعملِ .

وكذلكَ مُعتقِدُ ٱلتَّواضُعِ إِذا عَمِلَ بموجبِهِ ، مُقبِلاً أَو ساجداً لغيرِهِ . . أَحسَّ مِنْ قلبِهِ بٱلتَّواضُعِ عندَ إِقدامِهِ علىٰ ٱلخِدمَةِ .

وهـٰكذا جميعُ صفاتِ ٱلقلبِ يصدُرُ عنها أَعمالُ ٱلجوارِحِ ، ثُمَّ يعودُ عليها أَثرُ ٱلأَعمالِ فيُؤَكِّدُها ويزيدُها .

وسيأْتي هـٰذا في رُبْعِ ٱلمُنجياتِ وٱلمُهلِكاتِ عندَ بيانِ وجهِ

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمهُ ٱللهُ تعالىٰ في تخريج أَحاديثِ « ٱلإحياء » :
[أخرجَهُ] ٱبن عُديٍّ رحمه ٱللهُ تعالىٰ في « الكاملِ » ، وأَبو ٱلشَّيخِ في كتابِ « الثَّوابِ » مِنْ حديثِ أَبي هُريرة رضيَ ٱللهُ عنهُم أَجمعينَ . اهـ .

(٢) ولذلكَ قالَ ساداتُنا ـ جزاهُمُ ٱللهُ خيراً ـ : إِنَّهُ ينبغي على ٱلمؤمنِ أَن تكونَ لَهُ آخرَ يومِهِ خلوة يحاسبُ فيها نفسَهُ ، فما وجدَ مِنْ خيرٍ وطاعةٍ يحمدُ ٱللهَ تعالىٰ عليها ويسأَلُهُ ٱلثَّباتَ ، وما كانَ غيرَ ذلكَ يتوبَ منهُ ويندمَ عليهِ ، وبعضهُم كانَ ذلكَ دأبهُ كلَّ يومٍ ، فتنبَّه .

تعلُّقِ ٱلباطِنِ بٱلظَّاهِرِ ، وٱلأَعمالِ بٱلعقائِدِ وٱلقلوب[1] ؛ فإنَّ ذلِكَ مِنْ جنسِ تَعَلُّقِ ٱلمُلْكِ بٱلمَلكوتِ ، وأَعني بـ(ٱلمُلْكِ) : عالَمَ ٱلشَّهادَةِ ٱلمُدرَكَ بٱلحواسِّ . وبـ(ٱلمَلكوتِ) : عالَمَ ٱلغيبِ ٱلمُدرَكَ بنورِ ٱلبصيرَةِ .

وٱلقلبُ مِنْ عالَمِ ٱلمَلكوتِ ، وٱلأَعضاءُ وأَعمالُها مِنْ عالَمِ ٱلمُلْكِ ، ولُطْفُ ٱلارتباطِ ودِقَّتُهُ بينَ ٱلعالَمَيْنِ ٱنتهىٰ إِلىٰ حَدٍّ ظَنَّ بعضُ ٱلنَّاسِ ٱتِّحادَ أَحدِهِما بٱلآخَرِ ، وظنَّ آخرونَ أَنَّهُ لا عالَمَ إِلاَّ عالَمُ ٱلشَّهادَةِ ؛ وهوَ هـٰذهِ ٱلأَجسامُ ٱلمحسوسَةُ .

وَمَنْ أَدركَ ٱلأَمرينِ ، وأَدركَ تعدُّدَهُما ، ثُمَّ ٱرتباطَهُما . . عَبَّرَ عنهُ فقالَ[2] :

رَقَّ ٱلـزُّجَـاجُ وَرَاقَـتِ ٱلْخَمْـرُ ... وَتَشَـابَهَـا فَتَشَـاكَـلَ ٱلأَمْـرُ
فَكَـأَنَّمَـا خَمْـرٌ وَلاَ قَـدَحُ ... وَكَـأَنَّمَـا قَـدَحٌ وَلاَ خَمْـرُ

ولنرجِع إِلىٰ ٱلمَقصودِ، فإِنَّ هـٰذا ٱلعالَمَ خارجٌ عَنْ عِلْمِ ٱلمُعامَلَةِ؛ وذلِكَ بينَ ٱلعالَمَينِ أَيضاً ٱتِّصالٌ وٱرتباطٌ، فلذلِكَ ترىٰ عُلومَ ٱلمُكاشَفَةِ تتسلَّقُ كُلَّ ساعَةٍ علىٰ عُلوم ٱلمُعامَلَةِ إِلىٰ أَنْ يُكشَفَ عنها بٱلتَّكليفِ، فهـٰذا وَجْهُ زيادَةِ ٱلإِيمانِ بٱلطَّاعَةِ بموجِبِ هـٰذا ٱلإِطلاقِ .

---

(١) وذلكَ في كتاب « ٱلإحياء » .
(٢) « إتحاف ٱلسَّادة ٱلمتَّقين » (٢/ ٢٥٩) .

ولهـٰذا قالَ عليٌّ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ : (إنَّ ٱلإيمانَ لَيبدو لُمعةً[1] بيضاءَ ، فإذا عَمِلَ ٱلعبدُ ٱلصَّالِحاتِ . . نَمَتْ نماءً ، وزادَتْ حتَّىٰ يَبيَضَّ ٱلقلبُ كُلُّهُ ، وإنَّ ٱلنِّفاقَ لَيبدو نُكتةً سوداءَ ، فإذا ٱنتُهِكَتِ ٱلحُرماتُ . . نَمَتْ وزادَتْ حتَّىٰ يَسوَدَّ ٱلقلبُ كُلُّهُ ؛ فيُطبَعُ عليهِ ، فذلِكَ هوَ ٱلخَتْمُ ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2]) .

* * *

(١) أَوردَهُ صاحبُ « ٱلقوت » رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في بابِ (ٱلاستثناء في ٱلإيمان) .
وٱللُّمعةُ ـ بوزنِ ٱلرُّقْعةِ ـ : قطعةٌ مِنَ ٱلنَّبتِ إذا أَخذتْ في ٱليبسِ . « مختار ٱلصَّحاح » (٢٥٢) .

(٢) سورة المطففين : (١٤) .

ومِنْ كتابِ أَسرارِ الطهارةِ[1] :

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمـٰنِ ٱلرَّحيمِ ، ٱلحمدُ للهِ ٱلَّذي تلطَّفَ بعبادِهِ فتعبَّدَهُم بٱلنَّظافَةِ[2] ، وأَفاضَ علىٰ قلوبِهِم تزكيةً لسرائِرِهم أَنوارَهُ وأَلطافَهُ ، وأَعدَّ لظواهِرِهم تطهيراً لها ٱلماءَ ٱلمَخصوصَ بٱلرِّقَّةِ وٱللَّطافَةِ ، وٱلصَّلاةُ علىٰ ٱلنَّبيِّ ٱلمستغرِقِ بنورِ ٱلهُدىٰ أَكنافَ ٱلعالَمِ وأَطرافَهُ ، وعلىٰ آلِهِ ٱلطَّيِّبينَ ٱلطَّاهِرينَ ، صلاةً تَحمينا بركاتُها يومَ ٱلمخافَةِ ، وتنتَصِبُ جُنَّةً[3] بينَنا وبينَ كلِّ آفَةٍ .

أَمَّا بعدُ : فقد قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مِفْتَاحُ ٱلصَّلاَةِ : ٱلطُّهُوْرُ »[4] .

وقالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ . . فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[5] .

---

(١) كما في « الإحياء » (٢/ ٢٢٢) .

(٢) أَي : جعلَهُم ينقادونَ ويخضعونَ لَهُ بٱلنَّظافةِ .
يُقالُ : هـٰذا أَمرٌ تعبُّديٌّ ؛ وهوَ مِنَ ٱلعبادةِ ؛ وهيَ فِعلُ ٱلمكلَّفِ علىٰ خلافِ هوىٰ نفسهِ تعظيماً لربِّهِ سبحانَهُ وتعالىٰ . « إتحاف » (٢/ ٣٠٢) .

(٣) جُنَّةٌ ـ بٱلضَّمِّ ـ : ما ٱستترتَ بهِ . « مختار ٱلصَّحاح » (٤٨) .

(٤) أَخرجَهُ عن عليٍّ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلشَّافعيُّ في « ترتيب ٱلمسند » (٢٠٦) ، ورواه أحمد في « مسنده » (١٤٧١٥) ، وأَبو داوود (٦١٨) ، وٱلتِّرمذيُّ (٣) ، وابن ماجه (٢٧٥) .

(٥) سورة التوبة : (١٠٨) .

وقالَ ٱلنبيُّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « اَلطُّهُوْرُ . . نِصْفُ ٱلإِيْمَانِ »[1] .

وقالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ . . مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ . . ﴾[2] .

ففَطِنَ ذَوُوْ ٱلبصائرِ بهٰذهِ ٱلظَّواهِرِ أَنَّ أَهمَّ ٱلأُمورِ تطهيرُ ٱلسَّرائِرِ ؛ إِذ يَبْعُدُ أَنْ يكونَ ٱلمُرادُ مِنْ قولِهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « اَلطُّهُوْرُ . . نِصْفُ ٱلإِيْمَانِ » عِمَارَةَ ٱلظَّاهِرِ بٱلتَّنظيفِ بإِفاضَةِ ٱلماءِ ، وإِلقائِهِ ، وتخريبِ ٱلباطِنِ ، وإِبقائِهِ مشحوناً بٱلخبائِثِ وٱلأَقذارِ ، هيهاتَ ، [هيهاتَ] .

وٱلطَّهارَةُ لها أَربعُ مراتِبَ :

ٱلمرتبةُ ٱلأُولىٰ : تطهيرُ ٱلظَّاهِرِ عَنِ ٱلأَحداثِ وعَنِ ٱلأَخباثِ وٱلفَضلاتِ ؛ **[وهيَ طهارَةُ عامَّةِ ٱلمسلمينَ]** .

---

(١) أَخرجَ طرفَهُ عن رجلٍ من بني سُليم ٱلتِّرمذيُّ (٣٥١٤) في ٱلدَّعواتِ بلفظهِ ، وقالَ : هٰذا حديثٌ حَسَنٌ .

وأَخرجَهُ عن أَبي مالكٍ ٱلحارثِ بن عاصم ٱلأَشعري رضيَ ٱللهُ عنهُ مسلمٌ (٢٢٣) في ٱلطَّهارة ، وٱلتِّرمذيُّ (٣٥١٢) في ٱلدَّعواتِ ، وقالَ : حَسَنَ صحيحٌ ، وٱلنَّسائيُّ (٢٤٣٧) في ٱلزَّكاةِ ، وٱبنُ ماجه (٢٨٠) في ٱلطَّهارةِ ، ولَهُ ألفاظٌ : « اَلطُّهُوْرُ شَطْرٌ . . . » ، و« اَلْوَضُوْءُ شَطْرٌ . . . » و« إِسْبَاغُ ٱلْوُضُوْءِ شَطْرٌ . . . » .

(٢) سورة المائدة : (٦) .

والثَّانيةُ : تطهيرُ الجوارحِ عَنِ الجرائِمِ والآثامِ ؛ [وهيَ طَهارةُ خواصِّ المسلمينَ] .

والثَّالثةُ : تطهيرُ القلبِ عَنِ الأَخلاقِ المذمومَةِ والرَّذائِلِ المَمْقوتَةِ ؛ [وهيَ طهارَةُ خواصِّ المؤمنينَ مِنَ العبادِ الصَّالحينَ] .

والرَّابعةُ : تطهيرُ السِّرِّ عَمَّا سِوىٰ اللهِ ؛ وهوَ طهارَةُ الأَنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ عليهِم ـ والصِّدِّيقينَ .

فالطَّهارَةُ في كُلِّ مرتَبَةٍ نِصفُ العملِ الَّذي فيها .

فإِنَّ الغايَةَ القُصوىٰ في عَمَلِ السِّرِّ : أَنْ يُكْشَفَ لَهُ جلالُ اللهِ تعالىٰ وعظمَتُهُ .

ولن تَحِلَّ معرفَةُ اللهِ تعالىٰ بالحقيقَةِ في السِّرِّ . . ما لَمْ يرتَحِلْ ما سِوىٰ اللهِ تعالىٰ عنهُ .

ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ . . قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1] ؛ لأَنَّهُما لا يجتمعانِ في قلبٍ .

و : ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . ﴾[2] .

وأَمَّا عملُ القلبِ . . فالغايَةُ القُصوىٰ : عمارَتُهُ بالأَخلاقِ المحمودَةِ ، والعقائِدِ المشروعَةِ ، ولن يتَّصِفَ بِها ما لَمْ يتنظَّفْ

---

(١) سورة الأنعام : (٩١) .
(٢) سورة الأحزاب : (٤) .

عَنْ نقائِصِها مِنَ ٱلعقائِدِ ٱلفاسِدَةِ ، وٱلرَّذائِلِ ٱلمَمْقوتَةِ[١] .

فتطهيرُهُ . . أَحدُ ٱلشَّطرينِ ؛ وهوَ ٱلشَّطرُ ٱلأَوَّلُ ٱلَّذي هوَ شرطٌ في ٱلثَّاني ، فكانَ ٱلطُّهورُ شطرَ ٱلإيمانِ بهـٰذا ٱلمعنىٰ ، وكذلكَ تطهيرُ ٱلجوارِحِ عَنِ ٱلمناهي أَحدَ ٱلشَّطرينِ ، وعمارَتُها بٱلطَّاعاتِ ٱلشَّطرَ ٱلثَّاني .

فهـٰذهِ مقاماتُ ٱلإيمانِ ، ولكلِّ مقامٍ طبقةٌ ، ولن ينالَ ٱلعبدُ ٱلطَّبقةَ ٱلعاليَةَ . . إلاَّ أَنْ يُجاوِزَ ٱلطَّبقةَ ٱلسَّافِلَةَ ، ولا يصلُ إِلىٰ طهارَةِ ٱلسِّرِّ عَنِ ٱلصِّفاتِ ٱلمذمومَةِ وعِمارَتِهِ بٱلمحمودَةِ . . ما لَمْ يَفْرُغْ مِنْ طهارَةِ ٱلقلبِ عَنِ ٱلأخلاقِ ٱلمذمومَةِ وعمارَتِهِ بٱلأَخلاقِ ٱلمحمودَةِ ، ولن يصلَ إِلىٰ ذلكَ . . ما لَمْ يَفْرُغْ عَنْ طهارَةِ ٱلجوارِحِ عَنِ ٱلمناهي وعِمارَتِها بٱلطَّاعاتِ .

وكلَّمَا عَزَّ ٱلمطلوبُ وشَرُفَ . . صَعُبَ مَسْلَكُهُ ، وطالَ طريقُهُ ، وكثُرَتْ عقباتُهُ .

فلا تَظُنَّنَّ أَنَّ هـٰذا ٱلأَمرَ يُدرَكُ بٱلمُنَىٰ ويُنالُ بٱلهُوَيْنىٰ .

نَعَم ، مَنْ عَمِيَتْ بصيرتُهُ عَنْ تفاوتِ هـٰذهِ ٱلطَّبقاتِ . . لَمْ يَفْهَمْ مِنْ مراتِبِ ٱلطَّهارَةِ إلاَّ ٱلدَّرجَةَ ٱلأَخيرَةَ ٱلَّتي هيَ كاٱلقشرَةِ ٱلأَخيرَةِ

---

(١) وهـٰذا ما يُعرفُ عندَ ٱلقومِ بٱلتخلِّي وٱلتَّحلِّي ، أَي : ٱلتَّخلِّي عنِ ٱلأَخلاقِ ٱلمذمومةِ ، وٱلتَّحلِّي بٱلأَخلاقِ ٱلمحمودةِ .

ٱلظَّاهِرَةِ بِٱلإِضافَةِ إِلىٰ ٱللُّبِّ ، فصارَ يُمْعِنُ فيها ويَستقصي في مجاريها ، ويستوعِبُ جميعَ أَوقاتِهِ في ٱلاستنجاءِ وغَسْلِ ٱلثِّياب ، وتنظيفِ ٱلظَّاهِرِ ، وطلبِ ٱلمياهِ ٱلجاريَةِ ٱلكثيرَةِ ، ظنّاً منهُ بِحُكْمِ ٱلوسوسَةِ وخَبَلِ ٱلعقلِ أَنَّ ٱلطَّهارَةَ ٱلمطلوبَةَ ٱلمُشرَّفَةَ هيَ هٰذهِ فقط ، وجهالةً بسيرةِ ٱلأَوَّلينَ وٱستغراقِهِم بجمعِ ٱلهَمِّ وٱلفِكرِ في تطهيرِ ٱلقلبِ وتساهُلِهِم في أَمرِ ٱلظَّاهِرِ .

حتَّىٰ إِنَّ عُمَرَ رضيَ ٱللهُ عنهُ معَ عُلُوِّ منصبِهِ توضَّأَ مِنْ مَاءٍ في جَرَّةٍ نصرانيَّةٍ[1] .

وحتَّىٰ إِنَّهُم ما كانوا يغسلونَ ٱليدَ مِنَ ٱلدُّسوماتِ وٱلأَطعمَةِ ، بل كانوا يمسحونَ أَصابعَهُم بأَخمصِ أَقدامِهِم[2] ، وَعَدُّوا ٱلإِشنانَ[3] مِنَ ٱلبِدَعِ ٱلمُحْدَثَةِ .

---

(١) أَخرجَهُ عن أَسلمٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلشَّافعيُّ في « ٱلأُمّ » (١/ ٧١) قبلَ بابِ ٱلآنيةِ ، وٱلبيهقيُّ في « ٱلسُّنن ٱلكبرىٰ » (١/ ٣٢) في ٱلطَّهارة ، باب : ٱلتَّطهُّر في أَواني ٱلمشركين إِذا لَمْ يَعلَم بنجاستهِ .

(٢) يؤكد هٰذا المعنى ما رواهُ ٱلبخاريُّ (٥٤٥٧) وٱبنُ ماجه (٣٢٨٢) في ٱلأَطعمة من حديثِ جابرٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ : (كنَّا زمانَ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم قليلاً ما نجدُ ٱلطَّعامَ ، فإِذا وجدناهُ . . لَمْ يكُن لنا مناديل إِلاَّ أَكُفَّنا وسواعِدنا وأَقدامنا) .

(٣) ٱلأُشنانُ ـ بٱلضَّمِّ وٱلكسرِ ـ : شجرٌ مِنْ فصيلةِ ٱلرَّمراميَّةِ ، ينبتُ في ٱلأَرضِ ٱلرَّمليَّةِ ، يُستعمَلُ مسحوقُ ورقهِ في غَسلِ ٱلأَيدي وٱلآنية ، ورمادُهُ : مادَّةٌ قلويَّةٌ يستعملُ في ٱلصَّابونِ وبعضِ ٱلأَطعمةِ كٱلفولِ والحمصِ . « المعجم الوسيط »=

ولقد كانوا يُصَلُّونَ علىٰ ٱلأَرضِ في ٱلمساجِدِ ، ويَمشونَ حُفاةً في ٱلطُّرقاتِ ، ومَنْ كانَ لا يجعلُ حاجِزاً بينَهُ وبينَ ٱلتُّرابِ في مضجعِهِ . كانَ مِنْ أكابِرِهِم ، وكانوا يقتصرونَ علىٰ ٱلحجارَةِ في ٱلاستنجاءِ .

وقالَ أَبو هُريرةَ وغيرُهُ مِنْ أَهلِ ٱلصُّفَّةِ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُم : (كُنَّا نأْكُلُ ٱلشِّواءَ ، فتُقامُ ٱلصَّلاةُ ، فنُدخِلُ أَصابِعَنا في ٱلحصىٰ ، ثُمَّ نَفْرِكُها في ٱلتُّرابِ ونكبِّرُ)[1] .

وقالَ عُمَرُ رضيَ ٱللهُ عنهُ : (ما كُنَّا نعرِفُ ٱلأُشنانَ في عصرِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وإِنَّما كانتْ مناديلَنا بطونُ أَرجُلِنا ، كُنَّا إِذا أَكلنا ٱلغَمَرَ[2] . . مسحنا بِها)[3] .

= (١/ ٢٠) وغيره .

(١) قال ٱلعراقيّ رحمه ٱلله تعالى : أخرجه ابن ماجه [(٣٣١١) في الأطعمة] من حديث عبدِ اللهِ بنِ ٱلحارثِ بن جَزءٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ ، ولَمْ أَرَهُ من حديثِ أَبي هريرةَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ . اهـ « إتحاف » (٢/ ٣٠٧) . ولفظُهُ قالَ : (أَكلنا معَ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم طعاماً في ٱلمسجدِ لحماً قد شُوِيَ ، فمسحنا أيدينا بٱلحصباءِ ، ثمَّ قُمنا نصلِّي ولَمْ نتوضَّأ) .

(٢) ٱلغمَرُ ـ بٱلفتح ـ : ٱلدَّسَم . « لسان العرب » (٥/ ٣٢) .

(٣) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالى : لَمْ أَجدهُ مِنْ حديثِ عمرَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ ، [وللبخاريِّ] وٱبنِ ماجه رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ نحوهُ مختصراً مِنْ حديثِ جابرٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ [ٱلسَّالفِ قبلُ] . اهـ « إتحاف » (٢/ ٣٠٨) .

ويقالُ : (أَوَّلُ ما ظَهَرَ مِنَ ٱلبِدَعِ بعدَ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلـهِ وسلَّـمَ أَربعـةٌ : ٱلمنـاخِـلُ[(١)] ، وٱلإِشنـانُ ، وٱلمـوائِـدُ ، والشِّبَعُ)[(٢)] .

فكانت عنايتُهُم كلُّها بنظافَةِ ٱلباطِنِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُم : (ٱلصَّلاةُ في ٱلنَّعلَيْنِ أَفضلُ) ؛ إذ لَمَّا نَزَعَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نعلَيْهِ [في صلاةٍ] بإِخبارِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ أَنَّ عليهما نجاسةً ، وخَلَعَ ٱلنَّاسُ نِعالَهُم . . قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ ؟! »[(٣)] .

وٱلمُزِيلُ للوسواسِ : أَن يُعلَمَ أَنَّ ٱلأَشياءَ خُلِقَتْ طاهرةً بيقينٍ ، فما لا يُشاهَدُ عليها نجاسةٌ ولا يعلَمُها يقيناً . . يُصلِّي معها ، ولا ينبغي أَنْ يتوصَّلَ بٱلاستنباطِ إِلىٰ تقريرِ ٱلنَّجاساتِ .

---

(١) المناخلُ : ما يُنخَلُ فيهِ ٱلدَّقيقُ . « إتحاف » (٢/ ٣٠٨) بتصرُّفٍ .

(٢) ذكرَهُ صاحبُ « قوت ٱلقلوب » رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ .

(٣) وٱلقولُ هٰذا على جهةِ ٱلاستنكار . قالَ ٱلعراقيُّ رحمه ٱلله تعالىٰ : أخرجه [عبدُ ٱلـرَّزَّاقِ (١٥١٦) ، وٱبـنُ أَبـي شيبـةَ (٢/ ٣٠٧)] وأبـو داوود [(٦٥٠) و(٦٥١) في ٱلصَّلاةِ] وأحمد [في « المسند » (٣/ ٢٠ و٩٢)] والحاكمُ وصحَّحَهُ مِنْ حديثِ أَبي سعيدٍ ٱلخدريِّ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ .

وفي البابِ :

عن أَنـسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ أَخرجَهُ ٱلبخاريُّ (٣٨٦) في ٱلصَّلاةِ ، ومسلمٌ (٥٥٥) في ٱلمساجدِ ، وٱلنَّسائيُّ (٧٧٥) نحوهِ .

وقالَ ٱلنَّخَعيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في ٱلَّذينَ يخلَعونَ نِعالَهُم : (وَدِدْتُ لو أَنَّ مُحتاجاً جاءَ فأَخذَها)[1] ، مُنكِراً لخَلْعِ ٱلنِّعالِ .

فهٰكذا كانَ تساهُلُهم في هٰذهِ ٱلأُمورِ ، بل كانوا يمشونَ في طينِ ٱلشَّوارِعِ حُفاةً ، ويجلسونَ عليهِ ، ويُصَلُّونَ في ٱلمساجِدِ علىٰ ٱلأَرضِ ، ويأْكلونَ مِنْ دقيقِ ٱلبُرِّ وٱلشَّعيرِ وهوَ يُداسُ بٱلدَّوابِّ وتبولُ عليهِ ، ولا يحترِزونَ عَنْ عَرَقِ ٱلإِبلِ وٱلخيلِ معَ كثرَةِ تمرُّغِها[2] في ٱلنَّجاساتِ . فهٰكذا كانَ تساهُلُهم فيها .

وقَدِ ٱنتهَتِ ٱلنَّوبةُ ٱلآنَ إلىٰ طائفَةٍ يُسَمُّونَ ٱلرُّعونَةَ[3] نظافةً ، فيقولونَ : هيَ مبنىٰ ٱلدِّينِ ، فأَكثرُ أَوقاتِهِم في تزيينِهِمُ ٱلظَّواهِرَ ؛ كفعلِ ٱلماشِطَةِ بعَروسِها ، وٱلباطِنُ خرابٌ مشحونٌ بخبائِثِ ٱلكِبْرِ ، وٱلعُجْبِ ، وٱلجَهلِ ، وٱلرِّياءِ ، وٱلنِّفاقِ ، ولا يستنكرونَ ذلكَ ، ولا يتعجَّبونَ منهُ ، ولوِ ٱقتصرَ مُقتصرٌ علىٰ ٱلاستنجاءِ بٱلحَجَرِ ، أَو مشىٰ علىٰ ٱلأَرضِ حافياً ، أَو صلَّىٰ علىٰ ٱلأَرضِ ،

---

(١) أخرجَهُ عن إبراهيمَ ٱلنَّخعي ٱبنُ أَبي شيبةَ في « ٱلمصنَّف » (٢/٣٠٦) في صلاة التطوع .

(٢) تمرُّغُها : تقلُّبها .

(٣) ٱلرُّعونةُ : ٱلحمق وٱلاسترخاءُ . « مختارُ ٱلصَّحاح » (١٠٤) .
وعندَ ٱلقوم : ٱلوقوفُ معَ حظوظِ ٱلنَّفسِ ومقتضى طباعِها . « المعجم الوسيط » (١/٣٦٨) .

أَو علىٰ بواريٍّ[1] ٱلمسجدِ مِنْ غيرِ سُجَّادَةٍ مَفروشَةٍ ، أَو مشىٰ علىٰ ٱلفُرُشِ مِنْ غيرِ غِلافٍ للقدَمِ مِنْ أَدَمٍ[2] ، أَو توضَّأَ مِنْ آنيةِ عجوزٍ ، أَو رَجُلٍ غيرِ متقشِّفٍ . . أَقاموا عليهِ ٱلقيامةَ ، وشدَّدوا عليهِ ٱلنَّكيرَ ، ولقَّبوهُ بِٱلقَذِرِ ، وأَخرجوهُ مِنْ زُمْرَتِهِم ، وٱستنكَفوا عَنْ مؤَاكلتِهِ ومُخالطتِهِ ، فَسَمَّوا ٱلبذاذَةَ[3] ٱلَّتي هيَ مِنَ ٱلإيمانِ . . قذارةً ، وٱلرُّعونَةَ . . نظافةً .

فٱنظر كيفَ صارَ ٱلمُنْكَرُ معروفاً ، وٱلمعروفُ مُنْكَراً ؟!!

وكيفَ ٱندرسَ مِنَ ٱلدِّيْنِ رسمُهُ ، كما ٱندرسَ تحقيقُهُ وعِلمُهُ ؟!!

فإِنْ قُلتَ : أَفتقولُ : إِنْ هٰذهِ ٱلعاداتِ ٱلَّتي أَحدَثَتْها ٱلصُّوفيَّةُ في هيئاتِهِم ونظافَتِهِم مِنَ ٱلمحظوراتِ أَوِ ٱلمُنكراتِ ؟

. . فأَقولُ : حاشَ للهِ تعالىٰ أَنْ أُطلِقَ ٱلقولَ فيهِ مِنْ غيرِ تفصيلٍ ، ولٰكنِّي أَقولُ : إِنَّ هٰذا ٱلتَّنظيفَ وٱلتَّكلُّفَ ، وإِعدادَ ٱلأَواني وٱلآلاتِ ، وٱستعمالَ غِلافِ ٱلقَدَمِ وٱلإِزارِ ٱلمُقَنَّعِ بِهِ لدفعِ

---

(١) ٱلبارياءُ وٱلبورياءُ ـ بِٱلمدِّ ـ : ٱلحصيرُ مِنَ ٱلقَصَبِ . وقالَ ٱلأَصمعيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : ٱلبورياءُ بِٱلفارسيَّةِ ، وهوَ بِٱلعربيَّةِ : باريٌّ وبوريٌّ وباريَّةٌ ـ بتشديد ٱلياءِ ـ في ٱلكُلِّ . « مختارُ ٱلصَّحاح » (٢٨) .

(٢) أَي : جلدٍ مدبوغٍ كما كانتِ ٱلأَوائلُ تفعلُ ذلكَ . « إتحاف » (٢/ ٣١٠) .

(٣) ٱلبذاذةُ : رثاثةُ ٱلهيئةِ . « المعجم ٱلوسيط » (١/ ٤٦) بتصرُّفٍ .

ٱلغُبارِ وغيرَ ذلكَ مِنْ هـٰذهِ ٱلأَسبابِ إِنْ وقعَ ٱلنَّظرُ إِلىٰ ذاتِها علىٰ سَبيلِ ٱلتَّجرُّدِ . . فهيَ مِنَ ٱلمباحاتِ ، وقد يقترِنُ بها أَحوالٌ ونيّاتٌ ، تُلحِقُها تارةً بٱلمعروفاتِ ، وتارةً بٱلمُنكَراتِ .

فأَمّا كونُها مباحةً في نفسِها : فلا يَخفىٰ أَنَّ صاحِبَها متصرِّفٌ بها في مالِهِ ، وبدنِهِ ، وثيابِهِ ، فيفعلُ بها ما يُريدُ ، إِذا لَمْ يكُنْ فيهِ إِضاعَةٌ وإِسرافٌ .

وأَمّا تصييرُها مُنكَراً : فبأَنْ يجعلَ ذلِكَ أَصلَ ٱلدِّينِ ، ويُفسِّرَ بهِ قولَهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ ٱلدِّيْنُ عَلَىٰ ٱلنَّظافَةِ »[1] ، حتَّىٰ يُنْكِرَ بهِ علىٰ مَنْ يتساهَلُ فيهِ تساهُلَ ٱلأَوَّلينَ ، أَو يكونَ ٱلقصدُ بهِ تزيينَ ٱلظَّاهِرِ للخَلْقِ ، وتحسينَ موقعِ نظرِهِم ، فإِنَّ ذلكَ هوَ ٱلرِّياءُ ٱلمحظورُ ، فيصيرُ مُنكَراً بهـٰذينِ ٱلاعتبارينِ .

وأَمّا كونُهُ معروفاً : فبأَنْ يكونَ ٱلقَصدُ منهُ ٱلخيرَ دونَ ٱلتَّزيينِ ، وأَلاَّ يُنْكِرَ علىٰ مَنْ تركَ ذلكَ . ولا يؤخِّرَ بسببِهِ ٱلصَّلاةَ عَنْ أَوائِلِ ٱلأَوقاتِ ، ولا يشتغلَ بِهِ عَن عملٍ هوَ أَفضلُ منهُ ، أَو عَنْ مُريدِ تربيةِ عِلمٍ ، أَو غيرِهِ ، فإِذا لَمْ يقترِنْ بِهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ . . فهوَ مباحٌ ، يمكِنُ أَن يُجعلَ قُرْبَةً بٱلنِّيَّةِ ، ولـٰكِن لا يتيسَّرُ ذلكَ إِلاَّ للبطَّالينَ ٱلَّذينَ لو لَمْ يشتغِلوا بصرفِ ٱلأَوقاتِ فيهِ . . لاشتغلوا بنومٍ أَو حديثٍ فيما لا يعني ، فيصيرُ شغلُهُم بهِ أَولىٰ ؛ لأَنَّ ٱلاشتغالَ

---

(١) سلفَ قريباً في آدابِ ٱلمتعلِّمِ .

بِٱلطَّهارَةِ يُجَدِّدُ ذِكْرَ ٱللهِ تعالىٰ ، ويُذَكِّرُ بِٱلعِباداتِ ، فلا بَأْسَ إِذا لَمْ يَخرُجْ إِلىٰ مُنكرٍ أَو إِسرافٍ .

وأَمَّا أَهلُ ٱلعلمِ وٱلعملِ : فلا ينبغي أَنْ يَصرِفوا مِنْ أَوقاتِهِم إِليهِ إِلاَّ قَدرَ ٱلحاجَةِ .

فٱلزِّيادَةُ عليهِ مُنكَرٌ في حقِّهِم ، وتضييعُ ٱلعُمُرِ ٱلَّذي هوَ أَنفَسُ ٱلجواهِرِ وأَعزُّها في حقِّ مَنْ قَدَرَ علىٰ ٱلانتفاعِ بهِ ، ولا يتعجَّبْ مِنْ ذلكَ فإِنَّ : (حسناتِ ٱلأَبرارِ سيِّئاتُ ٱلمُقرَّبينَ)[1] .

ولا ينبغي للبطَّالِ أَنْ يترُكَ ٱلنَّظافةَ ، ويُنكِرَ علىٰ ٱلمتصوِّفَةِ ، ويزعُمَ أَنَّهُ يتشبَّهُ بِٱلصَّحابَةِ ؛ إِذِ ٱلتَّشبُّهُ بِهِم في أَلاَّ يتفرَّغَ إِلاَّ لما هوَ أَهمُّ منهُ .

كما قيلَ لداوودَ ٱلطَّائيِّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : لِمَ لا تُسَرِّحُ لحيتَكَ ؟! قالَ : (إِنِّي إِذاً لفارِغٌ) .

فلهٰذا لا أَرىٰ للمُعلِّمِ ولا للمتعلِّمِ ولا للعامِلِ أَنْ يُضيِّعَ وقتَهُ

---

(١) عدَّهُ بعضهُم حديثاً وليسَ كذلكَ ، وقيل : هوَ مِن كلامِ أَبي سعيدٍ ٱلخرّاز ، رواهُ عنهُ ٱبنُ عساكرَ في ترجمتهِ .

وقال شيخُ ٱلإسلام في شرحها : (ٱلفرقُ بين ٱلأبرار وٱلمقرَّبينَ : أَنَّ ٱلمقرّبينَ هُمُ ٱلَّذين أُخذوا عن حُظوظهم وإِرادتِهم ، وٱستُعملوا بحقوقِ مولاهم عبوديةً وطلباً لرضاه ، وأَنَّ ٱلأَبرارَ هُمُ ٱلَّذينَ بقوا معَ حظوظهم وإِرادتهم ، وأُقيموا في ٱلأَعمالِ ٱلصَّالحةِ ومقاماتِ ٱليقينِ ؛ ليُجْزَوا علىٰ مجاهدتهم برفيعِ ٱلدَّرجاتِ) . « كشف الخفاء » (١١٣٧) .

في غَسْلِ ٱلثِّيابِ ٱحترازاً مِنْ أَنْ يلبَسَ ٱلثِّيابَ ٱلمقصورَةَ توهُّماً بٱلقصَّارِ[1] تقصيرَهُ في ٱلغَسْلِ ، فقد كانوا في ٱلعصرِ ٱلأَوَّلِ يُصلُّونَ في ٱلفِراءِ ٱلمدبوغَةِ ، وكم مِنَ ٱلفرقِ بينَ ٱلمُقَصَّرَةِ وٱلمُدَبَّغَةِ في ٱلطَّهارَةِ وٱلنَّجاسَةِ ، بل كانوا يجتنبونَ ٱلنَّجاسةَ إذا شاهدوها ، ولَمْ يدقِّقوا نظرَهُم في ٱستنباطِ ٱلاحتمالاتِ ٱلدَّقيقَةِ ، بل كانوا يتأمَّلونَ في دقائِقِ ٱلرِّياءِ وٱلظُّلمِ ، حتَّىٰ قالَ سفيانُ ٱلثَّوريُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ لرفيقٍ لَهُ كانَ يمشي معَهُ ، فنظرَ إلىٰ بابِ دارٍ مرفوعٍ معمورٍ : (لا تفعَلْ ذلكَ ، فإِنَّ ٱلنَّاسَ لو لَمْ ينظُروا إِليهِ . . لكانَ صاحبُهُ لا يتعاطىٰ هـٰذا ٱلإسرافَ ، فٱلنَّاظِرُ إِليهِ مُعينٌ علىٰ ٱلإسرافِ)[2] .

فكانوا يُعِدُّونَ جِمام ٱلذِّهنِ[3] لاستنباطِ مثلِ هـٰذهِ ٱلدَّقائِقِ ، لا في ٱحتمالاتِ ٱلنَّجاسةِ .

---

(١) القصَّارُ : ٱلفاعلُ ـ يقالُ : قَصَرْتُ ٱلثَّوبَ قَصْراً : بيَّضتُهُ ، وٱلقِصارةُ : ٱلصِّناعةُ ـ ٱلمبيِّضُ للثِّيابِ .

(٢) هكذا أَوردَهُ صاحبُ « قوت ٱلقلوبِ » رحمَهُ ٱللهُ تعالى .

(٣) الجِمامُ قالَ في « ٱلمصباحِ » : جَمَّ ٱلشَّيءُ جَمّاً : كَثُرَ ، فهوَ جَمٌّ ، تسميةٌ بٱلمصدرِ ـ جمع جَمٍّ : كثير .

الذِّهنُ : ٱلعقلُ وٱلفهْمُ وٱلذَّكاءُ وٱلفِطنةُ ، يجمعُ على : أَذهان . فٱلمعنىٰ ٱلمرادُ : أَنَّهُم يشغلونَ أَكثرَ فهمِهم وعقولِهم وذكائِهم في ٱستنباطِ ٱلمعاني ٱلدَّقيقةِ ٱلَّتي ترقيهم إِلىٰ أَعلىٰ منازِلِ ٱلملكوتِ .

ولو وجَدَ ٱلعالِمُ عامِّيّاً يتعاطىٰ لَهُ غَسْلَ الثِّيابِ مُحتاطاً.. فهوَ أَفضلُ ؛ فإِنَّهُ بٱلإضافَةِ إِلىٰ ٱلتَّساهُلِ علىٰ خيرٍ ، وذلكَ ٱلعامِّيُّ ينتفِعُ بتعاطيهِ ، إِذْ يَشغَلُ نفسَهُ ٱلأَمَّارَةَ بٱلسُّوءِ بعملِ ٱلمباحِ في نفسهِ ، فتمتنِعُ عليهِ ٱلمعاصي في تلكَ ٱلحالِ .

وٱلنَّفْسُ إنْ لَمْ تُشْغَلْ.. شَغَلَتْ صاحِبَها .

وإِذا قَصَدَ بِهِ ٱلتَّقرُّبَ إِلىٰ ٱلعالِمِ.. كانَ ذلكَ عبادةً ؛ فهوَ أَفضلُ ٱلقُرُباتِ .

فوقتُ ٱلعالِمِ أَشرَفُ مِنْ أَنْ يُصرَفَ إِلىٰ مثلِهِ ، فيبقىٰ محفوظاً عليهِ .

وأَشرَفُ وقتِ ٱلعامِّيِّ أَنْ يشتغِلَ بمثلِهِ ، فيتوفَّرُ ٱلخيرُ عليهِ مِنَ ٱلجوانِبِ كلِّها .

وليتفطَّنْ بهـٰذا ٱلمثالِ لنظائِرِهِ مِنَ ٱلأَعمالِ ، وترتيبِ فضائِلِها ، ووجهِ تقديمِ ٱلبعضِ منها علىٰ ٱلبعضِ .

فتدقيقُ ٱلحسابِ في حِفْظِ لحظاتِ ٱلعُمُرِ بصرفِها إِلىٰ ٱلأَفضلِ.. أَهمُّ مِنَ ٱلتَّدقيقِ في أُمورِ ٱلدُّنيا بحذافيرِها .

فإِذا عرفتَ هـٰذهِ ٱلمقدِّمةَ[1] ، وٱسْتَبَنْتَ أَنَّ الطَّهارَةَ لها أَربعُ

(١) وخلاصتُها : أَنَّ تنظيفَ ٱلظَّاهِرِ أَولىٰ مِنْ تنظيفِ ٱلباطنِ ، وإِنْ أَمكنَ ٱلجمعُ بينَهُما فهوَ مستحبٌّ ، وإِنْ لَمْ يمكِنْ.. فٱلباطنُ مقدَّمٌ علىٰ ٱلظَّاهِرِ ، وٱلمرادُ : =

مراتبَ . . فٱعلمْ أَنَّا في هـٰذا ٱلكتابِ[1] لسنا نتكلَّمُ إلاَّ في ٱلمرتبةِ ٱلرَّابعةِ وهيَ : **نظافةُ ٱلظَّاهِرِ** ؛ لأَنَّا في ٱلشَّطرِ ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلكتابِ لا نتعرَّضُ قصداً إلاَّ للظواهِرِ .

فنقولُ :

طهارَةُ ٱلظَّاهِرِ ثلاثَةُ أَقسامٍ :

١ـ طهارَةٌ عَنِ ٱلخَبَثِ[2] .

٢ـ وطهارَةٌ عَنِ ٱلحَدَثِ[3] .

٣ـ وطهارَةٌ عَنْ فضلاتِ ٱلبَدَنِ ؛ وهيَ ٱلَّتي تحصُلُ بٱلقَلْمِ وٱلاستحدادِ وٱستعمالِ النُّوْرَةِ وٱلخِتانِ وغيرِه[4] .

= جمعُ ٱلهمِّ وٱلفِكْرِ وٱلانشغالُ بٱلمقصودِ ؛ كما جاءَ في ٱلحديثِ ٱلقدسيِّ عن ربِّ ٱلعزَّةِ جلَّ جلالُهُ : ﴿يا ٱبنَ آدمَ . . خلقتُ ٱلأَشياءَ مِنْ أَجلِكَ ، وخلقتُكَ مِنْ أَجلي ، فلا تنشغِلْ بما هوَ لكَ عمَّنْ أَنتَ لَهُ﴾ وٱللهُ ٱلموفِّقُ .

(١) أي : في كتابِ (أَسرارِ ٱلطَّهارةِ) مِنْ « إحياءِ علومِ ٱلدِّينِ » .

(٢) **ٱلخبثُ** : هوَ النَّجسُ ٱلحقيقي وٱلحُكْمي .

(٣) **ٱلحدثُ** : هوَ الحالةُ النَّاقضةُ للطَّهارةِ شرعاً ، وهوَ ضربانِ : أَصغَر وأَكبرَ .

(٤) **ٱلقَلْمُ** : تقليمُ ٱلأَظفارِ ؛ وهوَ قصُّ ما طالَ منها . « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٨٦) .

والاستحدادُ : حلقُ ٱلعانةِ بآلةٍ حادَّة . « المعجم الوسيط » (١/ ١٦٧) .

والنُّورةُ : أَخلاطٌ من أَملاحِ ٱلكالسيوم وٱلزِّرنيخ (الباريون) تُستعمل لإزالةِ الشَّعرِ . « المعجم الوسيط » (٢/ ١٠٠٠) .

ومنهُ [أي « الإحياء » ٢/٢٣٩] :

ومهما فَرَغَ مِنْ وضوئِهِ وأَقبلَ علىٰ ٱلصَّلاةِ . . فينبغي أَنْ يُخْطِرَ ببالِهِ أَنَّهُ طهَّرَ ظاهِرَهُ ، وهوَ موضِعُ نظرِ ٱلخَلْقِ ، فينبغي أَنْ يستحيِيَ مِنْ مناجاةِ ٱللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ تطهيرِ قلبِهِ ، وهوَ موقعُ نَظَرِ ٱلرَّبِّ سبحانَهُ .

وليتحقَّقْ أَنَّ طهارَةَ ٱلقلبِ بٱلتَّوبَةِ ، وٱلخُلوِّ عَنِ ٱلأَخلاقِ ٱلمذمومَةِ ، وٱلتَّخلُّقِ بٱلأَخلاقِ ٱلحميدَةِ أَولىٰ ، وأَنَّ مَنْ يقتصِرُ علىٰ طهارَةِ ٱلظَّاهِرِ . . كمَنْ أَرادَ أَنْ يدعوَ مَلِكاً إِلىٰ بيتِهِ ، فتركَهُ مشحوناً بٱلقاذوراتِ ، وٱشتغلَ بتجصيصِ ظاهِرِ ٱلبابِ ٱلبرَّانيِّ مِنَ ٱلدَّارِ ، وما أَجدرَ مثلَ هـٰذا ٱلرَّجُلِ بٱلتَّعرُّضِ للمَقْتِ وٱلبُوارِ[1] .

ومنهُ [أي « الإحياء » ٢/٢٤٤] :

قالَتْ عائِشَةُ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنها : ٱجتمَعَ قومٌ ببابِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فخَرَجَ إِليهِم ، فرأَيتُهُ تَطَلَّعَ في ٱلحُبِّ[2] يُسَوِّي مِنْ رأْسِهِ ولحيتِهِ ، قلتُ : أَوَتفعَلُ ذلكَ

---

(١) ٱلبُوارُ : الهلاكُ ، مِنْ بارَ ٱلشَّيءُ يبور بُوراً : هلكَ ، وبَواراً : كسدَ علىٰ ٱلاستعارة ؛ لأَنَّهُ إذا تركَ صارَ غيرَ منتفع بهِ ، فأَشبهَ ٱلهالاكَ مِنْ هـٰذا ٱلوجهِ .

(٢) ٱلحُبُّ ـ بٱلحاء المهملة ـ : الخابية للماءِ ، وهوَ فارسيٌّ معرَّب يجمعُ علىٰ : حِباب . « مختار الصّحاح » (٥١) .

يا رسولَ ٱللهِ ؟! فقالَ : « نَعَمْ ، إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَتَجَمَّلَ لإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ »[1] .

وٱلجاهِلُ ربَّما يظنُّ ذلكَ مِنْ حُبِّ ٱلتَّزيُّنِ للنَّاسِ قياساً علىٰ أَخلاقِ غيرِهِ وتشبيهاً للملائِكَةِ بٱلحدَّادينَ .

وهيهات!! فقد كانَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مأْموراً بٱلدَّعوَةِ ، وكانَ مِنْ وظائِفِهِ أَنْ يسعىٰ في تعظيمِ نفسِهِ في قلوبِهِم ؛ كي لا تزدريَهُ نفوسُهُم ، ويُحَسِّنَ صورتَهُ في أَنفُسِهِم ؛ كي لا تستصغِرَهُ أَعينُهُم فينفِّرَهُم ذلكَ ، ويتعلَّقَ ٱلمنافِقونَ بذلكَ في تنفيرِهِم ، وهٰذا ٱلقصدُ واجبٌ علىٰ كلِّ عالِمٍ يتصدَّىٰ لدعوَةِ ٱلخَلْقِ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ ، وهوَ : أَنْ يُراعيَ مِنْ ظاهِرِهِ ما لا يُوجِبُ نَفْرَةَ ٱلنَّاسِ عنهُ .

وٱلاعتمادُ في مثلِ هٰذِهِ ٱلأُمورِ علىٰ ٱلنيَّةِ ، فإِنَّها في نفسِها أَعمالٌ تكتسِبُ ٱلأَوصافَ مِنَ ٱلمقصودِ .

فٱلتَّزيُّنُ علىٰ هٰذا ٱلقصدِ . . محبوبٌ ، وتركُ ٱلتَّشعُّثِ بٱللِّحيَةِ إِظهاراً للزُّهدِ ولقِلَّةِ ٱلمبالاةِ بٱلنَّفْسِ . . محذورٌ ، وتركُهُ شُغلاً بما هوَ أَهمُّ منهُ . . محبوبٌ .

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أَخرجه ٱبن عديٍّ في « ٱلكامل » . اهـ « إتحاف » (٢/٣٩٦) .

وهـٰذِهِ أَحوالٌ باطِنَةٌ بينَ ٱلعبدِ وبينَ ٱللهِ تعالىٰ . وٱلناقِدُ بصيرٌ ، وٱلتَّلبيسُ غيرُ رائجٍ عليهِ بحالٍ .

وكم مِنْ جاهلٍ يتعاطىٰ هـٰذِهِ ٱلأُمورَ ٱلتفاتاً إِلىٰ ٱلخَلْقِ وهوَ يُلَبِّسُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ غيرِهِ ، ويزعُمُ أَنَّ قصدَهُ ٱلخيرُ ، فيرىٰ جماعةً مِنَ ٱلعُلماءِ يَلبَسونَ الثِّيابَ ٱلفاخِرَةَ ، ويزعُمونَ أَنَّ قصدَهُم إِرغامُ ٱلمبتدعَةِ وٱلمخالفينَ ، وٱلتَّقرُّبُ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ بهِ .

وهـٰذا أَمرٌ ينكشِفُ يومَ تُبْلىٰ ٱلسَّرائِرُ[1] ، ويومَ يُبَعْثَرُ ما في ٱلقبورِ ، ويُحصَّلُ ما في ٱلصُّدورِ[2] ؛ فعندَ ذلكَ تتميَّزُ ٱلسَّبيكَةُ ٱلخالِصَةُ مِنَ ٱلبَهْرَجِ[3] .

فنعوذُ بِٱللهِ مِنَ ٱلخِزْيِ يومَ ٱلفَزَعِ ٱلأَكْبَرِ .

ومنهُ [أَي « الإحياء » ٢/٢٤٨] :

بَلِ ٱلعاقِلُ لا يغفُلُ عَنْ ذِكْرِ ٱلآخِرَةِ في لحظةٍ ، فإِنَّها مصيرُهُ ومستقرُّهُ ، فيكونُ لَهُ في كلِّ ما يراهُ مِنْ ماءٍ أَو نارٍ أَو غيرِهِما عِبْرَةٌ

---

(١) مقتبسٌ من قولهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ سورة ٱلطارق : (٨ـ٩) .

(٢) مقتبسٌ من قولهِ تعالىٰ : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ سورة ٱلعاديات : (٩ـ١٠) .

(٣) ٱلبَهْرَجُ : ٱلباطلُ والرَّديءُ مِنَ الشَّيءِ . « مختار الصّحاح » (٢٧) .

وموعظةٌ ، فإِنَّ ٱلمرءَ ينظُرُ بِحَسَبِ هِمَّتِهِ ، فإذا دَخَلَ بزَّازٌ[1] ونجَّارٌ وبنَّاءٌ وحائِكٌ داراً معمورةً مفروشةً ، فإذا تفقَّدْتَهُمْ . . رأيتَ ٱلبزَّازَ ينظُرُ إِلىٰ ٱلفُرُشِ يتأمَّلُ قيمتَها ، وٱلحائكَ ينظُرُ إلىٰ ٱلثِّيابِ يتأمَّلُ نسجَها ، وٱلنَّجَّارَ يتأمَّلُ ٱلسُّقوفَ وكيفيَّةَ تركيبِها ، وٱلبنَّاءَ [ينظُرُ] إلىٰ ٱلحيطانِ يتأمَّلُ كيفيَّةَ إِحكامِها وٱستقامَتِها .

وكذلِكَ سالِكُ [طريقِ] ٱلآخرَةِ لا يرىٰ مِنَ ٱلأَشياءِ شيئاً إلاَّ ويكونَ لَهُ موعظةً وذكرىٰ للآخرةِ ، بل لا ينظُرُ إلىٰ شيءٍ إلاَّ ويفتحُ ٱللهُ لَهُ طريقَ عِبْرَةٍ ، فإِنْ نظرَ إِلىٰ سوادٍ . . تذكَّرَ بهِ ظُلْمَةَ ٱللَّحدِ ، وإِنْ نَظَرَ إِلىٰ حَيَّةٍ . . تذكَّرَ بها أَفاعيَ جهنَّمَ ، وإِنْ نَظَرَ إِلىٰ صورةٍ قبيحةٍ . . تذكَّرَ مُنكراً ونَكيراً وٱلزَّبانيةَ ، وإِن سَمِعَ صوتاً هائِلاً . . تذكَّرَ نفخةَ ٱلصُّورِ ، وإِنْ رأىٰ شيئاً حَسناً . . تذكَّرَ نعيمَ ٱلجنَّةِ ، وإِنْ سَمِعَ كلمةَ رَدٍّ أَو قَبولٍ في سوقٍ أَو في دارٍ . . تذكَّرَ ما ينكشِفُ مِنْ آخِرِ أَمرِهِ بعدَ ٱلحسابِ مِنَ ٱلرَّدِّ أَوِ ٱلقَبولِ .

وما أَجدرَ أَنْ يكونَ هـٰذا هوَ ٱلغالِبَ علىٰ قلبِ ٱلعاقلِ ، إِذْ لا يصرِفُهُ عنهُ إلاَّ مُهِمَّاتُ ٱلدُّنيا ، فإِذا نَسَبَ مُدَّةَ ٱلمُقامِ في ٱلدُّنيا إِلىٰ مُدَّةِ ٱلمُقامِ في ٱلآخِرَةِ . . ٱستحقرَها إِنْ لَمْ يكُنْ ممَّنْ أُقْفِلَ قلبُهُ وعَمِيَتْ بصيرتُهُ .

* * *

(١) ٱلبزَّاز : مَن يبيعُ نوعاً مِنَ الثيابِ ، يُقالُ لَهُ : ٱلبَزُّ .

وَمِنْ كتابِ (أَسرارِ ٱلصَّلاةِ)[1]

وقالَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا فُرِضَتِ ٱلصَّلاَةُ ، وَأُمِرَ بِٱلْحَجِّ وَٱلطَّوَافِ ، وَأُشْعِرَتِ ٱلْمَنَاسِكُ . . لإِقَامَةِ ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَىٰ »[2] .

فإِذا لَمْ يَكُنْ في قلبِكَ للمذكورِ ٱلَّذي هوَ ٱلمقصودُ وٱلمُبْتَغىٰ عظمةٌ ولا هيبةٌ . . فما قيمةُ ذِكْرِكَ ؟! .

وقالَ ٱلنَّبيُّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لِلَّذي أَوصاهُ : « وَإِذَا صَلَّيْتَ . . فَصَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ »[3] ؛ أَي : مُوَدِّعٍ لِنفْسِهِ ، مُوَدِّعٍ لهواهُ ، مُوَدِّعٍ لِعُمُرِهِ ، سائرٍ إِلىٰ ربِّهِ ، كما قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ . . وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ . . ﴾[5] .

---

(١) كما في « الإحياء » (٢/ ٢٦٨) .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] . والحديث أخرجه عن عائشة رضيَ ٱللهُ عنها أبو داوود .

(٣) أَخرجَهُ مِنْ حديثِ أَبي أَيُّوبَ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱبنُ ماجه (٤١٧١) .

(٤) سورة الانشقاق : (٦) .

(٥) سورة البقرة : (٢٢٣) .

وقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ لَمْ تنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ . . لَمْ يَزْدَدْ مِنَ ٱللهِ إلاَّ بُعْداً »[1] ، وٱلصَّلاةُ مناجاةٌ ، فكيفَ تكونُ معَ ٱلغَفْلَةِ ؟!

قالَ بكرُ بنُ عبدِ ٱللهِ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (ٱبنَ آدمَ . . إذا شِئْتَ أَنْ تَدْخُلَ علىٰ مولاكَ بغيرِ إِذْنٍ ، وَتُكَلِّمَهُ بلا تَرْجُمانٍ . . دَخَلْتَ ، قيلَ : كيف ذلكَ ؟ قالَ : تُسبغُ وضوءَكَ ، وتدخُلُ مِحرابَكَ ، فإذا أَنتَ قد دَخَلْتَ علىٰ مولاكَ بغيرِ إِذْنٍ ، وكلمتَهُ بِغَيْرِ تَرجُمانٍ)[2] .

وعَنْ عائشةَ رضيَ ٱللهُ عنها قالتْ : (كانَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يُحدِّثُنا ونُحدِّثُهُ ، فإذا حَضَرَتِ ٱلصَّلاةُ . . فكأَنَّهُ لَمْ يعرِفْنا ولَمْ نَعرِفْهُ ؛ ٱشتغالاً بعظَمَةِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ)[3] .

---

(١) أخرجَهُ ٱلطَّبرانيُّ في « الكبير » (١١٠٢٥) .

(٢) أَخرجَهُ أَبو نُعيمٍ رحمه الله تعالى في « حلية الأولياء » (٢/ ٢٢٩) في ترجمةِ بكرِ بنِ عبدِ ٱللهِ المزني رحمه الله تعالى ، مِنْ كلامِهِ بلفظِ : (مَن مثلُكَ يا ٱبنَ آدمَ ؟! خلَّىٰ بينَك وبينَ ٱلمحراب ، تدخُلُ منهُ إذا شئتَ علىٰ ربِّكَ تعالىٰ ، ليسَ بينَكَ وبينَهُ حجابٌ ولا تَرجمانٌ ، إنَّما طبيبُ المؤمنينَ هـٰذا ٱلماءُ ٱلمالحُ ؛ يعني : الدُّموعَ) .

(٣) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في تخريجِ أَحاديث « ٱلإحياءِ » : رواهُ ٱلأَزديُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « الضعفاء » من حديثِ سويدِ بن غفلةَ مرسلاً بلفظ : (كانَ ٱلنَّبيُّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إذا سمعَ ٱلأَذانَ كأَنَّهُ لا يعرف أَحداً من النَّاسِ) اهـ .

وقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ : « لاَ يَنْظُرُ ٱللهُ عزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ صَلاَةٍ لا يُحْضِرُ ٱلرَّجُلُ فِيْهَا قَلْبَهُ مَعَ بَدَنِهِ »(١) .

وكانَ إبراهيمُ ٱلخليلُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : (إذا قامَ إلىٰ الصَّلاةِ . . يُسْمَعُ وَجِيْبُ قَلْبِهِ(٢) علىٰ [بُعْدِ] مِيْلَيْنِ)(٣) .

وكانَ سعيدٌ التَّنوخِيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (إذا صلَّىٰ . . لَمْ تنقطعِ الدُّموعُ مِنْ خدَّيْهِ علىٰ لِحْيَتِهِ)(٤) .

وَرأىٰ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ رَجُلاً يَعْبَثُ بِلحيتهِ في الصَّلاةِ فقالَ : «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَـٰذَا . . لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ »(٥) .

---

(١) قال ٱلعراقيُّ : لم أَجدهُ بهـٰذا ٱللَّفظ ، وروىٰ محمَّد بنِ نصرٍ في كتابِ « ٱلصَّلاةِ » مِنْ روايةِ عُثمانَ ٱبن أَبي دهرمش مرسلاً : « لاَ يقبلُ ٱللهُ مِن عبدٍ عملاً حتَّىٰ يشهدَ قلبُهُ معَ بدنِهِ » ، ورواهُ أَبو منصورٍ ٱلدَّيلميُّ في « مسندِ الفردوسِ » مِنْ حديثِ أُبيٍّ بن كعبٍ ، وإِسنادهُ ضعيفٌ .

(٢) أي : صوتُ سقوطِ قلبهِ مِنْ خشيةِ ٱللهِ تعالىٰ .

(٣) وهوَ في كتاب « العوارف » (١٦٨) للسَّهروردي رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : « كانَ إذا قامَ إلى ٱلصَّلاةِ يُسمَعُ خفقانُ قلبِهِ مِنْ مِيلٍ » .

(٤) وأَسندَ المزنيُّ في « التهذيبِ » إلىٰ أَبي النَّضْرِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ قالَ : كنتُ أَرىٰ سعيداً مستقبلَ ٱلقِبلةِ يُصلِّي ، فكُنتُ أسمعُ لدموعِه وقْعاً علىٰ ٱلحصيرِ . « إتحاف » (٣/ ٢٣) .

(٥) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : رواهُ ٱلحكيمُ ٱلتِّرمذيُّ في « ٱلنَّوادر » [ص/ ٣١٧] مِنْ حديثِ أَبي هريرةَ رضيَ ٱللهُ تعالى عنه .

قلتُ : وذكره أبو طالب المكيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في « قوت القلوب » =

ورُوِيَ : أَنَّ ٱلحَسَنَ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ نظرَ إِلىٰ رَجُلٍ يَعْبَثُ بٱلحصىٰ[1] ويقولُ : اللَّهُمَّ . . زَوِّجْنِي مِنَ ٱلحورِ العينِ ، فقالَ : (بِئْسَ الخاطِبُ أَنتَ ، تخطبُ ٱلحورَ ٱلعِيْنَ وأَنتَ تعبثُ بٱلحصىٰ) ؟!

وقيلَ لخَلَفِ بنِ أَيُّوبَ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : ألا يؤذيكَ الذُّبابُ في الصَّلاةِ فتطرُدَهُ ، فقالَ : (لا أُعَوِّدُ نفسي شيئاً يُفسِدُ عليَّ صلاتي) ، قِيْلَ لهُ : وكيفَ تصبرُ علىٰ ذلك ؟ قالَ : (بَلغني أَنَّ ٱلفَسَقَةَ يَصبِرونَ علىٰ أَسواطِ السَّلاطينِ ؛ لِيُقالَ فلانٌ صَبورٌ ، ويفتخرونَ بذلكَ ، فأَنا قائمٌ بينَ يَدَيْ رَبِّي أَفأَتحرَّكُ للذُّبابةِ ؟!) .

ورُوِيَ عن مُسلم بنِ يسارٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَنَّهُ كانَ إِذا أَرادَ الصَّلاةَ . . قالَ لأَهلِهِ : (تحدَّثوا ، فإِنِّي لَسْتُ أَسمعُكُم) .

ورُوِيَ عنهُ : أَنَّهُ كانَ يُصلِّي يوماً في جامعِ (ٱلبَصرةِ) ، فسَقَطَتْ ناحيةٌ مِنَ ٱلمسجدِ ، فٱجتمعَ النَّاسُ لذلكَ ، فلَمْ يشعُرْ بهِ حتَّىٰ ٱنصرفَ مِنَ الصَّلاةِ .

= (٢/ ١٨٧) في باب (هيآت الصلاةِ وآدابها) عن سعيد بن ٱلمسيّب رضي الله تعالى عنه .

(١) أي : في ٱلصَّلاةِ . « إتحاف » (٤/ ٢٤) .

وكانَ عليٌّ ٱبنُ أبي طالبٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ إذا حَضَرَتِ الصَّلاةُ . . يَتَزلْزَلُ ويتلوَّنُ وجهُهُ ، فقيلَ لهُ : ممَّ ذلكَ يا أَميرَ ٱلمؤمنينَ ؟ فيقولُ : (جاءَ وقتُ أَمانةٍ عَرَضَها ٱللهُ علىٰ ٱلسَّماواتِ وٱلأَرضِ وٱلجبالِ . . فأَبَيْنَ أَنْ يحمِلْنَها وأَشفقنَ منها وحَمَلْتُها) .

ورُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بنِ ٱلحُسينِ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أَنَّهُ كانَ إِذا توضَّأَ . . ٱصفرَّ لَونُهُ ، فيقولُ لَهُ أَهلُهُ : ما هـٰذا الَّذي يَعْتَرِيْكَ عندَ ٱلوضوءِ ؟ فيقولُ : (أَتدرونَ بينَ يَدَيْ مَنْ أُريدُ أَنْ أَقومَ ؟!) .

ويُروىٰ عنِ ٱبنِ عبَّاسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما أَنَّهُ قالَ : قالَ داوودُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في مناجاتِهِ : (إِلـٰهي مَنْ يسكنُ بيتَكَ ؟ وَمِمَّنْ تَقْبَلُ الصَّلاةَ ؟

فأَوحىٰ ٱللهُ تعالىٰ إِليهِ : ﴿يا داوودُ إِنَّما يسكُنُ بيتي وَأَقْبَلُ ٱلصَّلاةَ منهُ . . مَن يتواضعُ لعظَمَتي ، وقطعَ نهارَهُ بذِكْرِي ، وكَفَّ نفسَهُ عَنِ الشَّهواتِ مِنْ أَجلي ، يُطْعِمُ ٱلجائِعَ ، ويُروِي ٱلعاطِشَ[1] ، ويَرْحَمُ ٱلمُصابَ ، فذلكَ ٱلَّذي يُضيءُ نورُهُ في ٱلسَّماءِ كٱلشَّمْسِ ، إِنْ دعاني لبَّيتُهُ ، وإِنْ سَأَلَني أَعطيتُهُ ، أَجعلُ لَهُ في ٱلجهلِ حِلْماً ، وفي ٱلغَفْلَةِ ذِكْراً ، وفي ٱلظُّلْمَةِ نُوراً ، وإِنَّما

---

(١) في « الإحياء » : ويؤوي ٱلغريب .

مَثَلُهُ في ٱلنَّاسِ كٱلفِرْدَوْسِ في [أعلىٰ] ٱلجِنانِ ، لا تَيْبَسُ أَنهارُها ، ولا تتغيَّرُ ثمارُها﴾) .

ورُوِيَ عن حاتمٍ ٱلأَصمِّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ صلاتِهِ ، فقالَ : (إذا جاءتِ الصَّلاةُ . . أَسبغتُ ٱلوضوءَ ، وأَتيتُ ٱلموضعَ الَّذي أُريدُ الصَّلاةَ فيهِ ، فأَقعُدُ حتَّىٰ تجتمعَ جوارحي ، ثُمَّ أَقومُ إِلىٰ صَلاتي ، وأَجعلُ ٱلكعبةَ بينَ حاجبيَّ ، وٱلصِّراطَ تحتَ قَدَميَّ ، وٱلجنَّةَ عَنْ يميني ، وٱلنَّارَ عَنْ شمالي ، وَمَلَكَ ٱلموتِ وراءَ ظهري ، وَأَظنُّها آخِرَ صَلاتي ، ثُمَّ أَقومُ بينَ ٱلرَّجاءِ وٱلخوفِ ، وأُكَبِّرُ تكبيراً بتحقيقٍ ، وأَقرأُ قراءةَ ترتيلٍ ، وأَركعُ ركوعاً بتواضعٍ ، وأَسجُدُ [سجوداً] بتخشُّعٍ ، وأَقعُدُ علىٰ ٱلوِرْكِ ٱلأَيسرِ وأَفرشُ ظهرَ قَدَمِها ، وأَنصبُ ٱلقدمَ ٱلأَيمنَ علىٰ ٱلإبهامِ ، وَأُتْبِعُها ٱلإخلاصَ ، ثُمَّ لا أَدري أَقَبِلَتْ مِنِّي أَمْ لا ؟)[1] .

وقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما : (ركعتانِ مُقتَصَدتانِ[2] في تفكُّرٍ . . خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ وٱلقلبُ ساهٍ) .

---

(١) لعلَّ سائلاً يقولُ : كيفَ يصفُ ٱلأَولياءُ أَحوالَهُم في ٱلصَّلاةِ كما هنا ، وٱلمعروفُ عنهُم ٱلتَّخفّي وٱلاستتارُ ؟!
وقد أَجابَ ٱلإمامُ ٱلنَّواويُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالى على هٰذا ٱلسُّؤالِ فقالَ في مقدِّمةِ « ٱلمجموع » : إنَّ ذلكَ جائزٌ إنْ قصدَ بهِ ٱلتَّعليمَ وٱلحضَّ علىٰ ٱلعملِ ٱلصَّالحِ بشرطِ أَنْ يأمنَ علىٰ نفسِه ٱلرِّياءَ ومداخِلَ ٱلشَّيطانِ وغوائِلَهُ ، وٱللهُ أَعلمُ .

(٢) أَي : متوسطتانِ بينَ ٱلإفراطِ والتَّفريطِ . « إتحاف » (٣/ ٢٦) .

ومنهُ [أي « الإحياء » ٢/ ٢٨٠] :

وفي ٱلخبَرِ : « لا يدخُلَنَّ أَحدُكُم في ٱلصَّلاةِ وهوَ مُقطِّبٌ[1] ، ولا يُصَلِّيَنَّ أحدُكُمْ وهوَ غضبانٌ » .

وقالَ ٱلحَسَنُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (كلُّ صلاةٍ لا يَحْضُرُ فيها ٱلقلبُ . . فهيَ إِلىٰ ٱلعقوبَةِ أَسرعُ) .

وفي ٱلخَبَرِ : « سبعةُ أَشياءَ في ٱلصَّلاةِ مِنَ ٱلشَّيطانِ : ٱلرُّعافُ ، وٱلنُّعاسُ ، وٱلوَسْوَاسُ ، وٱلتَّثاؤبُ ، وٱلحُكَاكُ[2] ، وٱلالتفاتُ ، وٱلعبثُ بٱلشَّيء »[3] ، وزادَ بعضُهم : (وٱلسَّهْوُ ، وٱلشَّكُّ) .

ومنهُ [أَي « الإحياء » ٢/ ٢٨٣] :

فإِنْ قلتَ : تمييزُ ٱلفرائضِ مِنَ ٱلسُّنَنِ مَعْقُولٌ ، إِذْ تفوتُ ٱلصِّحَّةُ بفوتِ ٱلفرضِ دونَ ٱلسُّنَّةِ ، ويتوجَّهُ ٱلعقابُ بتركِهِ دونها ، فأَمَّا تمييزُ سُنَّةٍ مِنْ سُنَّةٍ ـ وٱلكلُّ مأْمورٌ بهِ علىٰ سبيلِ ٱلاستحبابِ ، ولا عقابَ في تركِ ٱلكُلِّ ، وٱلثَّوابُ مَرْجُوٌّ علىٰ ٱلكُلِّ ـ فما معناهُ ؟

---

(١) مقطِّبٌ : عابسُ ٱلوجهِ ، والحديث مصداق لقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ .

(٢) ٱلحكاكُ : ٱلحكَّةُ في ٱلجلدِ .

(٣) أَخرجَهُ ٱلتِّرمذيُّ ، وذكرَ ٱلرُّعافَ وٱلنُّعاسَ وٱلتَّثاؤبَ ، وزادَ ثلاثةً أُخرىٰ .

.. **فـاعلـم** : أَنَّ ٱشتـراكهـا[1] فـي ٱلثَّـوابِ وٱلعقـابِ وٱلاستحبابِ.. لا يرفعُ تفاوتَها ، وينكشفُ لكَ ذلك بمثالٍ ، وهوَ أَنَّ ٱلإنسانَ لا يكونُ إنساناً موجوداً كاملاً إلاَّ بمعنىً باطنٍ وأعضاءَ ظاهرةٍ ، فٱلمعنىٰ ٱلباطنُ : هو ٱلحياةُ والرُّوحُ ، وٱلظَّاهِرُ أَجسامُ أَعضائِهِ ، ثُمَّ بعضُ تلكَ ٱلأَعضاءِ يَنْعَدِمُ ٱلإنسانُ بعَدَمها ؛ كٱلقلبِ ، وٱلكَبِدِ ، وٱلدِّماغِ ، وكلِّ عضوٍ تفوتُ ٱلحياةُ بفواتها ، وبعضُهـا لا تفـوتُ بـهِ ٱلحيـاة ، ولـٰكـنْ يفـوتُ بـهِ ٱلحُسْـنُ ، كٱلحاجِبينِ ، وسوادِ شَعَرِ اللِّحيةِ ، وتناسب خِلْقَةِ ٱلأَعضاءِ ، وٱمتزاجِ ٱلحُمْرَةِ بٱلبياضِ في ٱللَّونِ ، فهـٰذهِ درجاتٌ متفاوِتَةٌ .

وكذلكَ ٱلعبادةُ صورةٌ صوَّرها ٱلشَّرعُ ، فتعبَّدَنا بٱكتسابها .

فروحُها وحياتُها ٱلباطنةُ : ٱلخشوعُ ، وٱلنِّيَّةُ ، وحضورُ ٱلقلبِ ، وٱلإخلاصُ ، كما سيأتي..

ونحنُ ٱلآنَ في أَجزائِها ٱلظَّاهرةِ ، فٱلرُّكوعُ ، وٱلسُّجودُ ، وٱلقيامُ ، وسائرُ ٱلأَركانِ.. تجري منها مجرىٰ ٱلقلبِ وٱلرَّأْسِ وٱلكَبِدِ ، إِذْ يفوتُ وجودُ ٱلصَّلاةِ بفواتِها ، وٱلسُّننُ ٱلَّتي ذكرناها مِنْ رَفع ٱليدينِ ، ودُعاءِ ٱلاستفتاحِ ، وٱلتَّشَهُّدِ ٱلأَوَّلِ تجري منها مَجْرىٰ ٱليدينِ ، وٱلعينينِ وٱلرِّجْلَيْنِ ، لا تفوتُ ٱلصِّحَّةُ بفواتِها ،

---

(١) أَي : ٱلسُّنَنُ .

كما لا تفوتُ ٱلحياةُ بفواتِ هـٰذِهِ ٱلأَعضاءِ ، ولـٰكنْ يَصيرُ ٱلشَّخْصُ - بسببِ فواتِها - مُشَوَّهَ ٱلخِلْقَةِ مَذموماً ، غيرَ مرغوبٍ فيه .

وكذلكَ مَنِ ٱقتصرَ علىٰ أَقلِّ ما يُجزِىءُ مِنَ ٱلصَّلاةِ كانَ كَمَنْ أَهدىٰ إِلىٰ مَلِكٍ مِنَ ٱلملوكِ عَبْدَاً حَيّاً مقطوعَ ٱلأَطرافِ .

وأَمَّا ٱلهيئاتُ - وهيَ ما وراءَ ٱلسُّنَنِ - : فتجري مَجْرىٰ أَسبابِ ٱلحُسْنِ مِنَ ٱلحاجبَيْنِ ، وٱللِّحيَةِ ، وٱلأَهدابِ ، وحُسْنِ ٱللَّونِ .

وأَمَّا لطائفُ ٱلآدابِ في تلكَ ٱلسُّنَنِ : فهيَ مُكَمِّلاتُ ٱلحُسْنِ ، كٱسْتِقْواسِ ٱلحاجبَيْنِ ، وٱستدارَةِ ٱللِّحيَةِ ، وغيرِها .

فٱلصَّلاةُ عندكَ تُحفَةٌ وقُربَةٌ يتقرَّبُ بها ٱلعبدُ إِلىٰ حَضْرة مَلِكِ ٱلملوكِ ، كوصيفةٍ يهديها طالبُ ٱلقُربَةِ مِنْ بعضِ ٱلسَّلاطينِ إِليهِ ، وهـٰذِهِ ٱلتُّحفةُ تُعرَضُ علىٰ ٱللهِ تعالىٰ ، ثُمَّ تُرَدُّ عليكَ يومَ ٱلعرضِ ٱلأَكبرِ .

فإِليكَ ٱلخِيَرةُ[1] في تحسينِ صورَتِها أَو تقبيحِها[2] .

فإِنْ أَحسنتَ . . فلنفسكَ ، وإِنْ أَسَأْتَ . . فعليها .

فلا ينبغي أَنْ يكونَ حظُّكَ مِنْ ممارسةِ ٱلفِقْهِ أَنْ يتميَّزَ لكَ السُّنَّةُ مِنَ ٱلفرضِ .

---

(١) ٱلخِيَرَةُ : ٱلاختيارُ .

(٢) تحسينها بتكميلِ سنَنِها وآدابِها ، وتقبيحُها بتركِ ذلكَ .

فلا يَعْلَقُ بفهمِكَ مِنْ أَوصافِ السُّنَّةِ إلاَّ أَنَّهُ يجوزُ تركُها فتترُكَها ، فإِنَّ ذلكَ يُضاهي قولَ الطَّبيبِ : إِنَّ فَقْأَ ٱلعينِ لا يُبْطِلُ وجودَ ٱلإنسانِ ، ولـٰكنْ يُخرجُهُ عَنْ أَنْ يَصْدُقَ رجاءُ ٱلمتقرِّبِ في قَبولِ ٱلسُّلطانِ إِذا أَخرجَهُ في مَعْرِضِ ٱلهديَّةِ .

فهـٰكذا ينبغي أَنْ تفهمَ مراتبَ ٱلسُّنَنِ وٱلهيئاتِ وٱلآدابِ في ٱلصَّلاةِ ، فكلُّ صلاةٍ لَمْ يُتِمَّ ٱلإنسانُ ركوعَها وسجودَها . . فهيَ ٱلخصمُ ٱلأوَّلُ علىٰ صاحبِها ، تقولُ : (ضَيَّعَكَ ٱللهُ كما ضَيَّعْتَني)(١) .

فطالعِ ٱلأَخبارَ ٱلَّتي ذكرناها في إِكمالِ ٱلأَركانِ ؛ ليظهرَ لكَ وَقْعُها .

* * *

---

(١) طرفُ حديثٍ أخرجَهُ عن أنسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلطَّبرانيُّ في « ٱلأَوسطِ » (٣٠٩٥) ، وعن عُبادة ٱلبيهقيُّ في « الشُّعب » (٣١٤٠) من طريقين .

ٱلبابُ ٱلثَّالِثُ(١)

[من كتابِ أَسرارِ ٱلصَّلاة ومهمَّاتِها](٢)

في ٱلشُّروطِ ٱلباطنةِ مِنْ أَعمالِ ٱلقلبِ

وَلْنذكُرْ في هٰذا ٱلبابِ ٱرتباطَ الصَّلاةِ بِٱلخشوعِ ، وَحُضورَ ٱلقلبِ ، ثُمَّ لْنذكُرِ ٱلمعانيَ ٱلباطنةَ ، وحدودَها ، وأَسبابَها ، وعلاجَها ، ثُمَّ لنذكُرْ تَفصيلَ ما ينبغي أَنْ يحضرَ في كلِّ رُكنٍ مِنْ أَركانِ ٱلصَّلاةِ ؛ لتكونَ صالحةً لِزادِ ٱلآخرةِ .

---

(١) مِنَ ٱلأبوابِ ٱلسَّبعةِ ـ ٱلَّتي رُتِّبَ عليها كتابُ : (أَسرارِ ٱلطَّهارةِ ومهمَّاتها) مِنَ « إحياءِ علومِ ٱلدِّينِ » . وهيَ :
ٱلأَوَّلُ : في فضائِلِ ٱلصَّلاةِ .
ٱلثَّاني : في تفصيلِ ٱلأَعمالِ ٱلظَّاهرة مِنَ ٱلصَّلاةِ .
ٱلثَّالثُ : في ٱلشُّروطِ ٱلباطنةِ مِنْ أَعمالِ ٱلقلبِ .
ٱلرَّابعُ : في ٱلإمامةِ وٱلقُدوَةِ .
ٱلخامسُ : في صلاةِ ٱلجُمُعة وآدابِها .
ٱلسَّادس : في مسائِلَ متفرِّقةٍ تعمُّ بِها ٱلبَلْوىٰ ، يحتاجُ ٱلمريدُ إلىٰ معرِفتها .
ٱلسَّابعُ : في ٱلتَّطوُّعاتِ وغيرِها . اهـ « إحياءُ علومِ ٱلدِّينِ » (٢/ ٢٦٠) .

(٢) كما في « الإحياء » (٢/ ٢٨٥) .

بيانُ ٱشتراطِ ٱلخشوعِ وحضورِ ٱلقلبِ :

ٱعلَمْ : أَنَّ أَدلَّةَ ذلكَ كثيرةٌ ، فمِنْ ذلكَ :

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ .. وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[1] ، وظاهرُ ٱلأَمرِ : ٱلوجوبُ ، وٱلغفلةُ تُضادُّ الذِّكْرَ ، فمَنْ غَفَلَ في جميعِ صَلواتِهِ .. كيفَ يكونُ مقيماً للصَّلاةِ لذِكْرِهِ ؟!

وقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ .. وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾[2] .. نهْيٌ ، وظاهِرُهُ ٱلتحريمُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ .. تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ .. ﴾[3] هٰذا تعليلٌ لِنهيِ ٱلسَّكْرانِ ، وهوَ مُطَّرِدٌ في ٱلغافِلِ ٱلمستغرِقِ ٱلهَمَّ بٱلوَسواسِ وأَفكارِ ٱلدُّنيا .

وقولُهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا ٱلصَّلاَةُ تَمَسْكُنٌ وَتَوَاضُعٌ »[4] خصَّها بٱلأَلفِ وٱللاَّمِ ، وكلمةُ [إِنَّما] للتَّحقيقِ

---

(١) سورة طه : (١٤) .

(٢) سورة الأعراف : (٢٠٥) .

(٣) سورة النساء : (٤٣) .

(٤) أَخرجَهُ عنِ ٱلمطَّلبِ بنِ أَبي وَدَاعةَ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلحكيمُ ٱلتِّرمذيُّ في « نوادره » (٣/ ٢١٤) ولفظُهُ : « ٱلصَّلاةُ مَثْنَىٰ مَثنىٰ ، وَتَشَهُّدٌ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ، وَتَبَاؤُسٌ ، وتَمَسْكُنٌ ، وَتَقَعُ بِيَدَيْكَ ، وَتَقُولُ : ٱللَّهُمَّ ، ٱللَّهُمَّ ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ .. فَهُوَ خَدَّاجٌ » .

وٱلتَّوكيدِ ، وقدْ فَهِمَ ٱلفقهاءُ مِنْ قولِهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا ٱلشُّفْعَةُ فِيْمَا لَمْ يُقْسَمْ »[١] . ٱلحصرَ وٱلإثباتَ وٱلنَّفيَ .

وقولُهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ . . لَمْ يَزْدَدْ مِنَ ٱللهِ إِلاَّ بُعْداً »[٢] وصلاةُ ٱلغافلِ لا تَمنعُ مِنَ ٱلفحشاءِ .

وقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلِهِ وسلَّمَ : « كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صَلاَتِهِ التَّعَبُ وَٱلنَّصَبُ »[٣] ، وما أَرادَ بِهِ إِلا ٱلغافِلَ .

وقالَ أَيضاً : « لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاَتِهِ . . إِلاَّ مَا عَقَلَ مِنْهَا »[٤] .

---

(١) ٱلشُّفْعَةُ : حقُّ ٱلجارِ في تملُّك ٱلعقارِ بلينٍ ورفق على مشتريهِ بشروطهِ ، فإذا وقعتِ ٱلحدودُ . . فلا شُفعةَ . والحديثُ أَخرجَهُ عن جابرٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ بنحوهِ ٱلبخاريُّ (٢٢٥٧) ، وأَبو داوود (٣٥١٤) ، والتِّرمذيُّ (١٣٧٠) ، وٱبنُ ماجه (٢٤٩٩) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٤٣) والنسائي (١٧٠٥) وابن حبان (٣٤٨١) والدارمي في « سننه » (٢٧٢٠) .

(٤) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في تخريجِ أَحاديثِ « ٱلإحياءِ » : لَمْ أَجدهُ مرفوعاً ، وروىٰ محمَّد بن نصرٍ ٱلمروزيّ في كتابِ (ٱلصَّلاةِ) مِنْ روايةِ عُثمانَ ٱبنِ أَبي دهرشٍ مرسلاً :
« لاَ يَقْبَلُ ٱللهُ مِنْ عَبْدٍ عَمَلاً حَتَّىٰ يُشْهِدَ قَلْبُهُ مَعَ بَدَنِهِ » ورواهُ أبو منصور الدَّيلميّ في « مسند ٱلفردوس » مِنْ حديثِ أُبيٍّ بن كعب رضيَ اللهُ عنهُ . ولابن=

وٱلتَّحقيقُ فيهِ : أَنَّ ٱلمُصليَ مُناجٍ ربَّهُ تعالىٰ كَما وردَ ٱلخبرُ بهِ ، وٱلكلامُ معَ ٱلغفلةِ ليسَ بمناجاةٍ ٱلبتَّةَ .

وبيانُهُ : أَنَّ ٱلزَّكاةَ إِنْ غَفَلَ ٱلإنسانُ عنها مثلاً . . فهيَ في نفسها مخالفةٌ للشَّهوةِ ، وشديدةٌ علىٰ ٱلنَّفسِ .

وكذلكَ ٱلصَّومُ : قاهرٌ للقُوىٰ ، كاسِرٌ لسطوةِ ٱلهوىٰ ، ٱلَّتي هيَ آلةُ ٱلشَّيطانِ عدوِّ ٱللهِ تعالىٰ ، فلا يَبْعُدُ أَنْ يَحصُلَ منها مقصودٌ معَ ٱلغفلةِ .

وكذلكَ ٱلحجُّ : أَفعالٌ شاقَّةٌ شديدةٌ ، وفيهِ مِنَ ٱلمجاهَدَةِ ما يحصُلُ بهِ ٱلابتلاءُ ، كانَ ٱلقلبُ حاضراً معَ أَفعالِهِ أَو لَمْ يكُن .

أَمَّا ٱلصَّلاةُ : فليسَ فيها إِلاَّ ذِكْرٌ وقراءةٌ ، وركوعٌ وسجودٌ ، وقيامٌ وقعودٌ .

فأَمَّا ٱلذِّكْرُ : فإِنَّهُ محاورةٌ ومناجاةٌ معَ ٱللهِ تعالىٰ .

فإِمَّا أَن يكونَ ٱلمقصودُ مِنْهُ : كونَهُ خطاباً أَو محاورةً .

أَوِ ٱلمَقصودُ : ٱلحروفَ وٱلأَصواتَ ، ٱمتحاناً للِّسانِ بٱلعملِ ، كما تُمتَحَنُ ٱلمَعِدَةُ وٱلفرجُ بٱلإمساكِ في ٱلصَّومِ ، وكما يُمتحَنُ ٱلبدنُ بمشاقِّ ٱلحجِّ ، ويُمتحَنُ ٱلقلبُ بمشقَّةِ إِخراجِ ٱلزَّكاةِ

= المبارك في « ٱلزُّهد » موقوفاً على عمَّارٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « لاَ يَكْتُبُ ٱللهُ للرَّجُلِ مِنْ صَلاَتِهِ مَا سَهَا عَنْهُ » .

وٱقْتِطاعِ ٱلمالِ ٱلمعشوقِ ، ولا شَكَّ أَنَّ هـٰذا ٱلقسمَ باطلٌ ؛ فإِنَّ تحريكَ ٱللِّسانِ بٱلهَذَيانِ[1] ما أَخفَّهُ علىٰ ٱلغافلِ! فليسَ فيهِ ٱمتحانٌ مِنْ حيثُ إِنَّهُ عملٌ ، و[ليسَ] ٱلمقصودُ [ٱلنُّطقَ] بٱلحروفِ مِنْ حيثُ إِنَّهُ نطقٌ . . [لـٰكِنْ لكونهِ نُطقاً نافِعاً] ، ولا يكونُ نُطقاً [نافِعاً] ، إِلاَّ إِذا أَعرَبَ عَمَّا في ٱلضَّميرِ[2] ، ولا يكونُ مُعرِباً إِلاَّ بحضورِ ٱلقلبِ .

فأَيُّ سؤالٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] إِذا كانَ ٱلقلبُ غافِلاً ؟!

وإِذا لَمْ يُقصَدُ بهِ كونُهُ تضرُّعاً ودعاءً . . فأَيُّ مشقَّةٍ في حركَةِ ٱللِّسانِ بهِ معَ ٱلغفلةِ ، لاسيَّما بعدَ ٱلاعتيادِ ؟!

هـٰذا حُكمُ ٱلأَذكارِ .

بلْ أَقولُ : لَو حلفَ ٱلإنسانُ ، وقالَ : لأَشْكُرَنَّ فلاناً ، ولأُثْنِيَنَّ عليهِ ، ولأَسأَلَنَّهُ حاجةً ، ثُمَّ جَرَتْ هـٰذهِ ٱلأَلفاظُ ٱلدَّالَّةُ علىٰ هـٰذهِ ٱلمعاني علىٰ لسانِهِ في ٱلنَّومِ . . لَمْ يَبَرَّ في يَمينِهِ ، ولو جَرتْ علىٰ لسانِهِ في ظُلمةٍ وذلكَ ٱلإِنسانُ حاضِرٌ وهوَ لا يَعرفُ

---

(١) الهذيانُ : الخلطُ بٱلكلامِ ، والتَّكلُّمُ بكلامٍ غيرِ مفهومٍ ولا معقولٍ ؛ لمرضٍ أَو غيرِهِ .
(٢) أي : ٱلقلب .
(٣) سورة الفاتحة : (٦) .

حضورَهُ ولا يراهُ . . لا يَصيرُ بارّاً في يمينهِ ؛ إِذْ لا يكونُ كلامُهُ خِطاباً ونُطقاً معَهُ ما لَمْ يكُنْ هوَ حاضِراً في قَلبهِ ، فلو كانت تجري هـٰذهِ ٱلكلماتُ علىٰ لسانِهِ وهوَ حاضرٌ ، إلاَّ أَنَّهُ في بياضِ ٱلنَّهارِ غافلٌ ؛ لكونِهِ مُستغرقَ ٱلهَمِّ بفكرٍ مِنَ ٱلأَفكارِ ، ولَمْ يكُنْ لَهُ قَصْدُ توجيهِ ٱلخِطابِ إِليهِ عندَ نُطقهِ . . لَمْ يَصِرْ بارّاً في يمينهِ .

ولا شَكَّ في أَنَّ ٱلمقصودَ مِنَ ٱلقراءةِ وٱلأَذكارِ ، بٱلحمدِ وٱلثَّناءِ ، وٱلتَّضرُّعِ وٱلدُّعاءِ ، وٱلمخاطَبَ . . هوَ ٱللهُ تعالىٰ .

وقلبُـهُ[1] بحجـابِ ٱلغَفْلَـةِ محجـوبٌ عَنْـهُ . . فـلا يـراهُ ولا يشاهِدُهُ[2] ، بلْ هوَ في غَفلةٍ عَنِ ٱلمُخاطَبِ ، ولسانُهُ يتحرَّكُ بحُكْمِ ٱلعادةِ[3] ، فما أَبعدَ هـٰذا عَنِ ٱلمقصودِ بٱلصَّلاةِ ٱلَّتي شُرِعَتْ لتصقيلِ ٱلقلبِ ، وتجديدِ ذِكْرِ ٱللهِ تعالىٰ ، ورسوخِ عَقْدِ ٱلإيمانِ بهِ .

هـٰذا حُكْمُ ٱلقِراءَةِ وٱلذِّكْرِ .

وبٱلجملةِ : فهـٰذهِ ٱلخاصِّيَّةُ لا سبيلَ إِلىٰ إِنكارِها في ٱلنُّطقِ ، وَتَميُّزِهِ بها عَنِ ٱلفِعلِ .

---

(١) أَي : قلبُ ٱلمخاطِبِ .

(٢) وٱلمرادُ بالرُّؤيةِ وٱلمشاهدةِ هُنا : معرفتُهُ بأَسمائهِ وصفاتهِ ، وفيها تتفاوتُ ٱلمراتبُ . « إتحاف » (٣/ ١١٣) .

(٣) لا بسِرِّ ٱلعبادة . « إتحاف » (٣/ ١١٤) .

وأَمّا ٱلرُّكوعُ وٱلسُّجودُ : فٱلمقصودُ بِهما ٱلتَّعظيمُ قَطعاً ، ولوْ جازَ أَنْ يكونَ مُعظِّماً للهِ تعالىٰ بفعلِهِ وهوَ غافلٌ عَنهُ . . لَجازَ أَنْ يكونَ مُعظِّماً لِصَنَمٍ مَوْضوعٍ بينَ يديهِ وهوَ غافلٌ عنهُ ، أَو يكونَ مُعَظِّماً للحائطِ ٱلَّذي بينَ يديهِ وهوَ غافلٌ عنهُ .

وإِذا خرجَ عَنْ كونهِ تَعظيماً . . لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مُجرَّدُ حركةِ ٱلظَّهْرِ وٱلرَّأْسِ ، وليسَ فيهِ مِنَ ٱلمَشَقَّةِ ما يُقصَدُ ٱلامتحانُ بهِ ، ثُمَّ تُجْعَلُ عمادَ ٱلدِّينِ ، وٱلفاصلَ بينَ ٱلكفرِ وٱلإِسلامِ[1] ، وتُقَدَّمُ علىٰ الحجِّ وعلىٰ سائِرِ ٱلعباداتِ ، ويجبُ ٱلقتلُ بسببِ تركِها علىٰ ٱلخصوصِ .

وما أَرىٰ أَنَّ هٰذهِ ٱلعظمةَ كلَّها لِلصَّلاةِ مِنْ حيثُ أَعمالُها ٱلظَّاهرةُ ، إِلاَّ أَنْ يُضافَ إِليها مقصودُ ٱلمناجاةِ ، فإِنَّها إِذْ ذاكَ تُقَدَّمُ علىٰ ٱلصَّومِ وٱلزَّكاةِ وٱلحجِّ وغيرِها ، بَلِ ٱلضَّحايا وٱلقُرُباتِ ٱلَّتي هيَ مجاهدةُ ٱلنَّفسِ بتنقيصِ ٱلمِلْكِ .

قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ . . ﴾[2]؛ أي : ٱلصِّفَةُ ٱلَّتي ٱستولَتْ علىٰ ٱلقلبِ حتَّىٰ حملَتْهُ

---

(١) إشارةَ إلىٰ حديث « بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَبَيْنَ ٱلشِّرْكِ وٱلكُفْرِ . . تَرْكُ ٱلصَّلاةِ » أَخرجهُ مسلمٌ (١٣٤) .

(٢) سورة الحج : (٣٧) .

علىٰ ٱمتثالِ ٱلأَوامرِ. . هيَ ٱلمطلوبةُ ، فكيفَ ٱلأمرُ في ٱلصَّلاةِ ولا أَرَبَ في فعلِها ؟!

فهـٰذا ما يدلُّ مِنْ حيثُ ٱلمعنىٰ علىٰ ٱشتراطِ حضورِ ٱلقلبِ .

فإنْ قُلْتَ : إنْ حَكَمْتَ ببطلانِ ٱلصَّلاةِ ، وجَعَلْتَ حضورَ ٱلقلبِ شرطاً في صِحَّتها. . خالفتَ بهِ إجماعَ ٱلفقهاءِ ، فإنَّهُم لَمْ يَشترِطوا حُضورَ ٱلقَلْبِ في صِحَّتها إلاَّ عِنْدَ ٱلتَّكبيرِ. .

فٱعلَمْ : أَنَّهُ قد تقدَّمَ في (كتابِ ٱلعلمِ) أَنَّ ٱلفقهاءَ لا يَتصرَّفونَ في ٱلباطنِ ، ولا مَطْلَعَ لَهُمْ علىٰ ما في ٱلقلوبِ ، ولا يَشقُّونَ عَنِ ٱلقُلوبِ[1] ، ولا يتكلَّمونَ في طريقِ ٱلآخرَةِ ، بَلْ يبنُونَ ظاهِرَ أَحكامِ ٱلدُّنيا علىٰ ظاهِرِ أَعمالِ ٱلجوارِحِ ، فظاهِرُ ٱلأَعمالِ كافٍ لِسقوطِ ٱلقَتْلِ ، أَو تَعزيرِ ٱلسُّلطانِ .

فأَمَّا أَنَّهُ هلْ ينفعُ في ٱلآخرةِ ؟ فليسَ هـٰذا مِنْ حدودِ ٱلفقهِ ، علىٰ أَنَّهُ يُمكِنُ أَن يُدَّعىٰ ٱلإجماعُ فيهِ ، فقد نُقِلَ عَنْ بِشْرِ بنِ ٱلحارثِ فيما رَوىٰ عنهُ أَبو طالبٍ ٱلمكِّيُّ ، عَنْ سفيانَ ٱلثَّوريِّ رحمَهُمُ ٱللهُ تعالىٰ أَنَّهُ قالَ : (مَنْ لَمْ يخشعْ قَلْبُهُ في صلاتهِ. . فَسَدَتْ صَلاتُهُ) .

ورُوِيَ عَنِ ٱلحَسَنِ [ٱلبَصريِّ] رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَنَّهُ قالَ : (كُلُّ

---

(١) إشارةً إلىٰ ما أخرجه مسلمٌ (١٥٨) عن جُندبٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ : « هَلاَّ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ ، فَنَظَرْتَ أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟! » .

صلاةٍ لا يَحضُرُ فيها ٱلقلبُ . . فهيَ إِلىٰ ٱلعقوبةِ أَسرَعُ) .

وعَنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ أَنَّهُ قالَ : (مَنْ عَرَفَ مَنْ علىٰ يمينهِ وشِمالهِ مُتَعَمِّداً وهوَ في ٱلصَّلاةِ . . فلا صلاةَ لَهُ) .

ورُوِيَ أَيضاً مُسنَداً : قال رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُصَلِّيْ ٱلصَّلاَةَ ، لاَ يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا سُدُسُهَا وَلاَ عُشْرُهَا ، وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاَتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا »[1] .

وهٰذا لَوْ نُقِلَ عَنْ غيرهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لَجُعِلَ مَذْهَباً ، فكيفَ لا يُتمَسَّكُ بهِ ؟!

وعَنْ عبدِ ٱلواحِدِ بنِ زيدٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (أَجمعتِ ٱلعلماءُ علىٰ أَنَّهُ ليسَ للعبدِ مِنْ صلاتِهِ إِلاَّ ما عَقَلَ منها) ، فجعلَهُ إِجماعاً .

وما نُقِلَ مِنْ هٰذا ٱلجنسِ عَنِ ٱلفقهاءِ ٱلمُتورِّعينَ ، وعَنْ عُلماءِ ٱلآخِرَةِ أَكثرُ مِنْ أَنْ يُحصىٰ .

وٱلحقُّ : ٱلرُّجوعُ إِلىٰ أَدلَّةِ ٱلشَّرعِ ، وٱلآياتُ ، وٱلأَخبارُ ،

---

(1) أَخرجَهُ عن عمَّار بن ياسرٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ أَحمد (٤/٣١٩) ، وأبو داوود (٧٩٦) ، وأبو يعلى (١٦١٥) ، وابن حبان في « الإحسان » (١٨٨٩) بإسناد حسن ، وفيه لفظ : « إن الرجل ليصلي الصلاة . . » .

والآثارُ . . ظاهرةٌ في هـٰذا الشَّرطِ[1] .

إلاَّ أنَّ مَقامَ الفتوىٰ في التَّكليفِ الظَّاهِرِ يَتقيَّدُ بقَدرِ قُصورِ الخَلْقِ ، ولا يُمكِنُ أَنْ يُشْرَطَ علىٰ النَّاسِ إحضارُ القلبِ في جميعِ الصَّلاةِ ، فإِنَّ ذلكَ يَعْجَزُ عنهُ كُلُّ البَشَرِ إلاَّ الأَقلِّينَ ، وإِذا لَمْ يُمكِنِ اشتراطُ الاستيعابِ للضَّرورةِ . . فلا مَرَدَّ لَهُ إلاَّ أَنْ يُشتَرَطَ منهُ ما ينطلِقُ عليهِ الاسمُ ولو كانَ في لحظةٍ واحدةٍ .

وأَولىٰ اللَّحظاتِ بهِ . . لَحظةُ التَّكْبيرِ ، فاقْتصَرنا علىٰ التَّكليفِ بذلكَ .

ونحنُ معَ ذلكَ نرجو أَنْ لا يكونَ حالُ الغافِلِ في جميعِ صلاتِهِ مثلَ حالِ التَّارِكِ للصَّلاةِ بالكُلِّيَّةِ ، فإِنَّهُ بالجملةِ أَقدمَ علىٰ الفعلِ ظاهراً ، فأَحضَرَ القلبَ لحظةً ، وكيفَ لا يَصِحُّ والَّذي يُصلِّي معَ الحَدَثِ ناسياً . . فصلاتُهُ باطلةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ؟! ولـٰكنْ لَهُ أَجرٌ ما بِحسَبِ فعلِهِ ، وعلىٰ قدرِ قُصورِهِ وعُذْرِهِ .

ومعَ هـٰذَا الرَّجاءِ . . فيُخشىٰ أَنْ يكونَ حالُهُ أَشدَّ مِنْ حالِ التَّارِكِ .

---

(١) الَّذي هوَ الخشوعُ وحضورُ القلبِ ، وما يطالِبُ بهِ العمومُ هوَ كقولهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم في حديثِ مالكِ بنِ الحويرثِ رضيَ اللهُ عنهُ : « صَلُّوْا كَمَا رَأَيْتُمُوْنِيْ أُصَلِّيْ » ، رواهُ البخاريُّ (٦٣١) ، ومسلمٌ (٦٧٤) ، وأَبو داوودَ (٥٨٩) ، والتِّرمذيُّ (٢٠٥) ، والنَّسائيُّ (٦٢٤) ، وابنُ ماجه (٩٧٩) .
ففيهِ صفةُ هيئةِ الصَّلاةِ العامَّةِ الَّتي صارت ممَّا يُعلَمُ في الإسلامِ بالضَّرورةِ .

وكيفَ لا ، والَّذي يحضُرُ لِلخدمةِ ، ويتهاونُ بالحضرةِ ، ويتكلَّمُ بكلامِ الغافِلِ المُسْتَحقِرِ . . أشَدُّ حالاً مِنَ الَّذي يُعرِضُ عنِ الخدمةِ ، ويَتَهاوَنُ بالحضرةِ ، فإذا تَعَارضتْ أَسبابُ الخوفِ والرَّجاءِ ، وصارَ الأَمرُ مُخطِراً في نفسِهِ . . فإليكَ الخِيَرَةُ بعدَهُ في الاحتياطِ أَوِ التَّساهُلِ .

ومعَ هـٰذا فلا مطمعَ لأَحدٍ في مخالفةِ الفقهاءِ فيما أَفْتَوْا بِهِ منَ الصِّحَّةِ معَ الغفلةِ ، فإنَّ ذلكَ منْ ضرورةِ الفتوىٰ كما سبقَ التَّنبيهُ عليهِ .

ومَنْ عَرَفَ سِرَّ الصَّلاةِ . . عَرَفَ أَنَّ الغفلةَ تُضادُّها ، ولـٰكنْ قد ذكرنا في الفرقِ بينَ العلمِ الباطنِ والظَّاهرِ في كتابِ (قواعدِ العقائدِ) أَنَّ قصورَ الخَلْقِ أَحَدُ الأَسبابِ المانعةِ عَنِ التَّصريحِ بكُلِّ ما يَنكشِفُ مِنْ أَسرارِ الشَّرعِ .

فَلْنقتصِرْ علىٰ هـٰذا القَدرِ مِنَ البَحثِ ، فإنَّ فيهِ مَقْنَعاً[1] للمريدِ الطَّالِبِ لِطريقِ الآخرةِ .

وأَمَّا المُجادِلُ المِشْغَبُ[2] : فَلسنا نقصِدُ مُخاطبتَهُ الآنَ ، وحاصِلُ الكلامِ معهُ : أَنَّ حُضورَ القلبِ هوَ روحُ الصَّلاةِ ، وأَنَّ

---

(١) أي : كفايةً .

(٢) المِشْغَبُ : كثيرُ الخصومةِ .

أَقلَّ ما يَبقىٰ بهِ رَمَقُ ٱلرُّوحِ : ٱلحضورُ عندَ ٱلتَّكبيرةِ ، وٱلنُّقصانُ فيهِ هلاكٌ ، وبقَدرِ ٱلزِّيادَةِ عَليهِ تَنْبَسِطُ ٱلرُّوحُ في أَجزاءِ ٱلصَّلاةِ ، وكَمْ مِنْ حَيٍّ لا حَراكَ لَهُ ، قَريبٌ مِنْ مَيِّتٍ ، وصَلاةُ ٱلغافِلِ في جَميْعِها إلاَّ عندَ ٱلتَّكبيرةِ . . حَيٌّ لا حَراكَ لَهُ .

* * *

بَيانُ ٱلمعاني ٱلباطنةِ ٱلَّتي بها تتمُّ حَياةُ ٱلصَّلاةِ[1] :

اِعلَمْ : أَنَّ هٰذهِ ٱلمعاني تكثُرُ ٱلعباراتُ عنها ، ولٰكنْ يجمعُها ستُّ جُمَلٍ ، وهي :

١ـ حضورُ ٱلقلبِ ، ٢ـ وٱلتَّفهُّمُ ، ٣ـ وٱلتَّعظيمُ ، ٤ـ وٱلهيبةُ ، ٥ـ وٱلرَّجاءُ ، ٦ـ وٱلحياءُ .

فلنذكُر تفاصيلَها ، ثُمَّ أَسبابَها ، ثُمَّ ٱلعلاجَ في ٱكتسابِها .

أَمَّا ٱلتفاصيلُ :

فٱلأَوَّلُ : حضورُ ٱلقلبِ ، ونعني بهِ أَنْ يُفرِّغَ ٱلقلبَ عَنْ غيرِ ما هوَ مُلابسٌ لَهُ ، أَو متكلِّمٌ بهِ ، فيكونُ ٱلعلمُ بٱلفعلِ وٱلقولِ مقروناً بهِما ، ولا يكونُ ٱلفِكرُ جارياً في غيرهِما ، ومَهما ٱنصرفَ ٱلفِكرُ عَنْ غيرِ ما هوَ فيهِ وكانَ في قلبهِ ذِكْرٌ لِما هوَ فيهِ ، ولَمْ يكُنْ

---

(١) كما في « الإحياء » (٢/ ٢٨٩) .

فيهِ غفلةٌ عَنْ كُلِّ شيءٍ . . فقد حَصَلَ حضورُ ٱلقلبِ .

ولـٰكنَّ ٱلتَّفهُّمَ لمعنىٰ ٱلكلامِ أَمرٌ وراءَ حضورِ ٱلقلبِ ، فربَّما يكونُ ٱلقلبُ حاضراً معَ ٱللَّفظِ ، ولا يكونُ حاضِراً معَ معنىٰ ٱللَّفظِ ، فٱشتمالُ ٱلقلبِ علىٰ ٱلعِلْم بمعنىٰ ٱللَّفظِ هوَ ٱلَّذي أَردناهُ بٱلتَّفهُّمِ ، وهـٰذا مَقامٌ يتفاوتُ ٱلنَّاسُ فيهِ ، إِذْ ليسَ يَشْترِكُ ٱلنَّاسُ في تفهُّمِ معاني ٱلقرآنِ وٱلتَّسبيحاتِ .

وكَمْ مِنْ معانٍ لطيفةٍ يفهمُها ٱلمُصلِّي في أَثناءِ صلاتِهِ ، ولَمْ يكُنْ قد خَطَرَ في قلبهِ ذلكَ قبلَهُ ، ومِنْ هـٰذا ٱلوجهِ كانتِ ٱلصَّلاةُ ناهيةً عَنِ ٱلفحشاءِ وٱلمُنكرِ ، فإِنَّها تُفْهِمُ أُموراً ، تلكَ ٱلأُمورُ تنهىٰ عَنِ ٱلفحشاءِ وٱلمُنكرِ لا محالةَ .

وأَمَّا ٱلتَّعظيمُ : فهوَ أَمرٌ وراءَ حضورِ ٱلقلبِ وٱلفهمِ ، إِذِ ٱلرَّجُلُ يُخاطِبُ غيرَهُ بكلامٍ وهوَ حاضرُ ٱلقلبِ فيهِ ، ومتفهِّمٌ لمعناهُ ولا يكونُ مُعَظِّماً لَهُ ، فٱلتَّعظيمُ زائدٌ عليهِما .

وأَمَّا ٱلهيبةُ : فزائدةٌ علىٰ ٱلتَّعظيمِ ، بَلْ هيَ عبارةٌ عن خوفٍ منشؤهُ ٱلتَّعظيمُ ؛ لأَنَّ مَنْ لا يخافُ . . لا يُسَمّىٰ هائِباً . وٱلمخافةُ مِنَ ٱلعقرَبِ ، وسوءِ خُلُقِ ٱلعَبْدِ ، وما يجري مجراهُ مِنَ ٱلأَسبابِ ٱلخسيسةِ . . لا تُسمَّىٰ مهابَةً ، بَلِ ٱلخوفُ مِنَ ٱلسُّلطانِ ٱلمُعظَّمِ . . يُسمّىٰ مهابَةً ، وٱلهيبةُ خوفٌ مصدَرُهُ ٱلإِجلالُ .

وأَمَّا ٱلرَّجاءُ : فلا شَكَّ أَنَّهُ زائدٌ ، فكَم مِنْ مُعظِّمٍ مَلِكٍ مِنَ

ٱلملوكِ يهابُهُ ، ويخافُ سطوتَهُ ، ولـٰكنْ لا يرجو مَبَرَّتَهُ ، وٱلعبدُ ينبغي أَنْ يكونَ راجياً بصلاتهِ ثوابَ ٱللهِ تعالىٰ ، كما أَنَّهُ يخافُ بتقصيرهِ عقابَهُ .

وأَمَّا ٱلحَياءُ : فهوَ زائدٌ علىٰ ٱلجملةِ ؛ لأَنَّ مُستنَدَهُ ٱستشعارُ تقصيرٍ ، وتوهُّمُ ذنبٍ ، ويُتصوَّرُ ٱلتَّعظيمُ وٱلخوفُ وٱلرَّجاءُ مِنْ غَيرِ حياءٍ ، حيثُ لا يكونُ توهُّمُ تقصيرٍ ، وٱرتكابُ ذَنبٍ .

وأَمَّا أَسبابُ هـٰذهِ ٱلمعاني ٱلسِّتَّةِ :

فٱعلَمْ : أَنَّ حضورَ ٱلقلبِ سببه : ٱلهمَّةُ ، فإِنَّ قلبَكَ تابعٌ لهِمَّتِكَ ، فلا يَحْضُرُ إِلاَّ فيما يهمُّكَ . ومهما أَهمَّكَ أَمرٌ . . حضرَ فيهِ ٱلقلبُ ، شاءَ أَم أَبىٰ ، فهوَ مَجبولٌ عليهِ ، ومُسَخَّرٌ فيهِ .

وأَمَّا ٱلقلبُ إِذا لَمْ يحضُرْ في ٱلصَّلاةِ . . لَمْ يكُنْ مُتعطِّلاً ، بلْ كانَ حاضِراً فيما ٱلهِمَّةُ مصروفةٌ إِليهِ مِنْ أُمورِ ٱلدُّنيا ، فلا حِيْلَةَ ولا علاجَ لإِحضارِ ٱلقلبِ إِلاَّ بصرفِ ٱلهمَّةِ إِلىٰ ٱلصَّلاةِ ، وٱلهِمَّةُ لا تنصرِفُ إِليها ما لَمْ يتبيَّنْ أَنَّ ٱلغَرَضَ ٱلمطلوبَ مَنوطٌ بِها ، وذلكَ هوَ ٱلإيمانُ وٱلتَّصديقُ بأَنَّ ٱلآخِرَةَ خيرٌ وأَبقىٰ ، وأَنَّ ٱلصَّلاةَ وسيلةٌ إِليها ، فإِذا أُضيفَ هـٰذا إِلىٰ حقيقةِ ٱلعلمِ بحقارةِ ٱلدُّنيا ومُهِمَّاتِها . . حَصَلَ مِنْ مجموعِها حضورُ ٱلقلبِ في ٱلصَّلاةِ .

وبمثْلِ هـٰذِهِ ٱلعِلَّةِ يحضُرُ قلبُكَ إِذا حَضَرْتَ بينَ يَديْ بعضِ ٱلأَكابرِ مِمَّنْ لا يَقْدِرُ علىٰ مَضَرَّتِكَ ولا منفعتِكَ .

وإذا كانَ لا يحضُرُ عندَ ٱلمناجاةِ معَ مَلِكِ ٱلملوكِ ٱلَّذي بيدِهِ ٱلمُلْكُ وٱلملكوتُ وٱلنَّفعُ وٱلضُّرُّ . . فلا تَظُنَّنَّ أَنَّ لَهُ سَبَباً سوىٰ ضَعفِ ٱلإيمانِ .

فٱجتهِدِ ٱلآنَ في تَقْوِيَةِ ٱلإيمانِ ، وطريقُهُ يُستقصىٰ في غيرِ هٰذا ٱلموضعِ إِنْ شاءَ ٱللهُ تعالىٰ .

وأَمَّا ٱلتَّفَهُّمُ : فسَببُهُ ـ بعدَ حضورِ ٱلقلبِ ـ إدمانُ ٱلفِكرِ[1] ، وصرفُ ٱلذِّهْنِ إلىٰ إدراكِ ٱلمعنىٰ .

وعلاجُهُ : ما هوَ علاجُ إحضارِ ٱلقلبِ معَ ٱلإقبالِ علىٰ ٱلفِكْرِ ، وٱلتَّشمُّرِ لدفعِ ٱلخواطرِ ٱلشَّاغلةِ .

وعلاجُ دَفْعِ ٱلخواطِرِ ٱلشَّاغِلةِ : قَطْعُ مَوادِّها ؛ أَعني ٱلتَّفرُّغَ عَنْ تِلْكَ ٱلأَسبابِ ٱلَّتي تنجذِبُ ٱلخواطِرُ إليها ، وما لَمْ تنقطعْ تلكَ ٱلموادُّ . . لا تنصرفُ عنها ٱلخواطرُ .

فمَنْ أَحبَّ شيئاً . . أَكثرَ مِنْ ذِكْرِهِ ، فذِكْرُ ٱلمحبوبِ يهجُمُ علىٰ ٱلقلبِ بٱلضَّرورةِ ، فكذلكَ مَنْ أَحبَّ غيرَ ٱللهِ . . لا تَصفو لَهُ صلاةٌ مِنَ ٱلخواطِرِ ٱلمذمومَةِ .

وأَمَّا ٱلتَّعظيمُ : فهوَ حالةٌ للقلبِ تتولَّدُ مِنْ مَعْرِفتَيْنِ :

إحداهُما : معرفةُ جَلالِ ٱللهِ تعالىٰ وعظمتهِ ، وهوَ مِنْ أُصولِ

---

(١) أَي : إدامتُهُ .

ٱلإيمانِ ، فإنَّ مَنْ لا يَعتقِدُ عظمتَهُ . . لا تُذْعِنُ ٱلنَّفْسُ لتعظيمهِ .

والثَّانيةُ : معرفةُ حقارةِ ٱلنَّفْسِ وخِسَّتها ، وكونِ صاحبها عَبداً مُسَخَّراً مربوباً[١] ، حتَّىٰ يتولَّدَ مِنَ ٱلمعرفتَيْنِ ٱلاسْتكانَةُ وٱلانكسارُ وٱلخشوعُ للهِ تعالىٰ ، فيُعَبَّرُ عنهُ بٱلتَّعظيمِ ، وما لَمْ تَمتزِجْ معرفةُ حَقارَةِ ٱلنَّفْسِ بمعرفَةِ جلالِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ . . لا تَنْتظِمُ حالَةُ ٱلتَّعظيمِ وٱلخشوعِ .

فإنَّ ٱلمستغنيَ عَنْ غيرهِ ، ٱلآمِنَ علىٰ نفسِهِ . . يجوزُ أَنْ يَعرِفَ مِنْ غيرِهِ صفاتِ ٱلعظمةِ ، ولا يكونُ ٱلتَّعظيمُ وٱلخشوعُ حالةً لَهُ ؛ لأَنَّ ٱلقرينةَ ٱلأُخرىٰ ـ وهي معرفةُ حقارةِ ٱلنَّفْسِ وخِسَّتِها ـ لَمْ تَقْتَرِنْ إليهِ .

وأَمَّا ٱلهيبةُ وٱلخوفُ[٢] : فحالةٌ للنَّفْسِ تتولَّدُ مِنَ ٱلمعرفةِ

---

(١) مربوباً : مقهوراً .

(٢) جاءَ في هامشِ ٱلمخطوطِ :

فائدةٌ : ٱلخوفُ وٱلوَجَل والرَّهبةُ مُتقاربةٌ .

فالأَوَّلُ ـ [يعني : ٱلخوفَ] ـ : توقُّعُ ٱلعقوبةِ علىٰ مجاريْ ٱلأنفاسِ ، وٱضطرابُ ٱلقلبِ مِنْ ذِكرِ ٱلمخوِّفِ .

وٱلخشيةُ : أَخصُّ منهُ ، إذ هيَ خوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ ، ومِنْ ثَمَّ قالَ ٱللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقيلَ : ٱلخوفُ : حركةٌ ، وٱلخشيةُ : سكونٌ ، أَلا ترىٰ أَنَّ مَنْ يَرىٰ عدوّاً تتولَّدُ لَهُ حالةٌ تُحرِّكُهُ للهرب عنهُ ؛ وهيَ : ٱلخوفُ ، وحالةُ ٱستقرارٍ في محلٍّ لا يصلُ إليه : وهي ٱلخشيةُ .
=

بقُدرةِ ٱللهِ تعالىٰ وسَطْوتِهِ ، ونفوذِ مشيئتِهِ فيهِ معَ قِلَّةِ ٱلْمُبالاةِ ، وأَنَّهُ لَو أَهْلَكَ ٱلأَوَّلِيْنَ وٱلآخِرينَ . . لَمْ يَنْقُصْ مِنْ مُلْكِهِ ذَرَّةٌ ، وهـٰذا معَ مطالعةِ ما يجري علىٰ ٱلأَنبياءِ وٱلأَولياءِ مِنَ ٱلمصائبِ وأَنواعِ ٱلبلاءِ معَ ٱلقـدرةِ علـىٰ ٱلـدَّفْـعِ ، علـىٰ خـلافِ مـا يُشـاهَـدُ مِـنْ مُلـوكِ ٱلأَرضِ(١) .

وبِٱلجملةِ : كُلَّما زَادَ ٱلعلمُ بِٱللهِ . . زادتِ ٱلخشيةُ وٱلهيبةُ وٱلخوفُ(٢) ، وسيأْتي في (كتابِ ٱلخوفِ) مِنْ رُبْعِ ٱلمنجياتِ .

= و[الثاني] : الرَّهبةُ : ٱلإمعان في ٱلهربِ مِنَ ٱلمكروه .
و[الثالث] : ٱلوَجَلُ : خفقانُ ٱلقلبِ عندَ ذكرِ مَنْ يخافُ سطوتَهُ .
والهيبةُ : خوفٌ مقترنٌ بتعظيمٍ وإجلال ، وأكثرَ ما يكونُ معَ ٱلمحبَّةِ وٱلمعرفةِ . وٱلإجلالُ : تعظيمٌ مقترنٌ بٱلحبِّ .
وٱلخـوفُ للعـامَّـةِ ، وٱلخشيـةُ للعلمـاءِ ٱلعـارفيـنَ ، وٱلهيبـةُ للمحبِّيـنَ ، والإجلالُ للمقرَّبينَ .
وعلىٰ قَدْرِ ٱلعلمِ وٱلمعرفةِ يكونُ ٱلعملُ وٱلخشيةُ ، ومِنْ ثَمَّ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ : « أَنَا أَتْقَاكُمْ للهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً » . [قالَ ٱلعراقيُّ : (١٥٢١٤) أخرجَهُ مِنْ حديثِ أَنسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلبخاريُّ بلفظِ : « وَٱللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ »] .
ٱنتهىٰ مِنْ « شرحِ الشَّمائلِ » للشيخ ٱبن حجرٍ رحمه الله تعالىٰ ونفعَ بهِ . آمينَ .

(١) مِنْ نفادِ خزائِنِهم بٱلأُعطيَةِ ، وعَدَمِ ٱلقدرةِ علىٰ دفعِ ما نَزَلَ بِهم . « إتحاف » (٣/ ١٢٣) .
(٢) وكذا كلَّما زادَ ٱلعلمُ باللهِ . . زادت محبَّتُهُ .

وأَمّا ٱلرَّجاءُ : فسَبَبُهُ معرفةُ لُطْفِ ٱللهِ تعالىٰ ، وكرمِهِ ، وعَميمِ إنعامِهِ ، ولطائفِ صُنعِهِ ، ومعرفةُ صدقِهِ في وعدِهِ ٱلجنَّةَ بٱلصَّلاةِ ، فإذا حَصَلَ ٱليقينُ بوعدِهِ وٱلمعرفةُ بلطفهِ . . ٱنبعثَ مِنْ مجموعِها ٱلرَّجاءُ لا محالةَ .

وأَمّا ٱلحياءُ : فٱستشعارُهُ ٱلتَّقصيرَ في ٱلعبادةِ ، وعلمُهُ بٱلعجزِ عَنِ ٱلقيامِ بعظيمِ حَقِّ ٱللهِ تعالىٰ ، ويَقوىٰ ذلكَ بٱلمعرفةِ بعيُوبِ ٱلنَّفسِ ، وآفاتِها ، وقلَّةِ إخلاصِها ، وخُبْثِ دِخْلتها[1] ، وميلِها إلىٰ ٱلحَظِّ ٱلعاجلِ في جميعِ أَفعالِها ، معَ ٱلعلمِ بعظيمِ ما يقتضيهِ جلالُ ٱللهِ ، وٱلعلمِ بأَنَّهُ مُطَّلِعٌ علىٰ ٱلسَّريرةِ وٱلشَّهوةِ وخَطَراتِ ٱلقلبِ ، وَإِنْ دَقَّتْ وخَفِيَتْ .

وهـٰذِهِ ٱلمعارفُ إذا حصلَتْ يَقيناً . . ٱنبعثتْ منها ضرورةً حالةٌ تُسمّىٰ ٱلحياءَ .

فهـٰذِهِ أَسبابُ [هـٰذِهِ] ٱلصِّفاتِ .

وكلُّ ما طُلِبَ تحصيلُهُ . . فعلاجُهُ إِحضارُ سَببهِ ، ففي مَعرفةِ ٱلسَّبَبِ . . معرفةُ ٱلعلاجِ .

ورابطةُ جميعِ هـٰذِهِ ٱلأَسبابِ : ٱلإيمانُ بٱللهِ ، وٱليقينُ ـ أَعني بهِ هـٰذِهِ ٱلمعارفَ ٱلَّتي ذكرناها ـ ومعنىٰ كونِها يقيناً ٱنتفاءُ ٱلشَّكِّ ،

---

(١) دِخْلتها : جوانبها .

وٱستيلاؤها علىٰ ٱلقلبِ ، كما سبقَ في بابِ ٱليقينِ مِنْ (كتاب ٱلعلمِ) ، وبقَدرِ ٱليقينِ . . يَخْشَعُ ٱلقلبُ ، ولذلكَ قالتْ عائِشَةُ رضيَ ٱللهُ عنها : (كانَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يُحدِّثُنا ونُحدِّثُهُ ، فإذا حَضَرَتِ ٱلصَّلاةُ . . فكأَنَّهُ لَمْ يعرِفْنا ولَمْ نعرِفْهُ)[1] .

وقد رُوِيَ : أَنَّ ٱللهَ تعالىٰ أَوحىٰ إلىٰ موسىٰ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ :

(يا موسىٰ . . إذا ذَكرَتَني . . فٱذكُرني وأَنتَ تَنْتَفِضُ أَعضاؤُكَ ، وكُنْ عِندَ ذِكْرِيْ خاشِعاً مطمئِنّاً ، وإذا ذكَرْتَني . . فٱجعلْ لسانَكَ مِنْ وراءِ قلبِكَ ، وإذا قُمْتَ بينَ يديَّ . . فقُمْ مَقامَ ٱلعبدِ ٱلذَّليلِ ، وناجِني بقلبٍ وَجِلٍ ولسانٍ صادقٍ) .

ورُوِيَ عنهُ أَيضاً صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ أُوحيَ إليهِ :

(قُلْ لِعُصاةِ أُمَّتِكَ لا يذكُروني ، فإنِّي آليتُ علىٰ نفسي أَنَّ مَن ذَكَرَني . . ذَكَرْتُهُ ، فإذا ذَكَروني . . ذَكَرْتُهُمْ بٱللَّعنةِ) .

هٰذا في عاصٍ غيرِ غافِلٍ في ذِكْرِهِ ، فكيفَ إذا ٱجتمعتِ ٱلغفلةُ وٱلعصيانُ ؟!

---

(١) سبق تخريجه .

وبٱختلافِ ٱلمعاني ٱلَّتي ذَكَرناها في ٱلقُلوبِ . ٱنقسمَ ٱلنَّاسُ إلىٰ :

١ـ غافلٍ يُتَمِّمُ صلاتَهُ ولَمْ يَحضُرْ قلبُهُ في لحظةٍ منها .

٢ـ وإلىٰ مَنْ يُتمِّمُ [صلاتَهُ] ولَمْ يَغِبْ قلبُهُ في لحظةٍ ، بل رُبَّما كانَ مُستوعِبَ ٱلهمِّ بها ، بحيثُ لا يَحُسُّ فيها بما يجري بينَ يديهِ .

ولذلكَ لَمْ يَحُسَّ مُسلمُ بنُ يسارٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ بسقوطِ أسطوانةٍ في ٱلمسجدِ ٱجتمعَ ٱلنَّاسُ عليها .

وبعضُهم[١] حضرَ ٱلجماعةَ ولَمْ يَعرِفْ قطُّ مَنْ علىٰ يمينهِ وشمالِهِ .

وقد كانَ وَجِيْبُ قَلْبِ إبراهيمَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ يُسْمَعُ علىٰ [بُعْدِ] ميلَيْنِ .

وجماعَةٌ كانت تَصْفَرُّ وجوهُهم وترتَعِدُ فرائِصُهُم[٢] .

وكلُّ ذلكَ غيرُ مُسْتَبْعَدٍ ، فإنَّ أَضعافَهُ مُشاهَدٌ في هِمَمِ أَهلِ ٱلدُّنيا وخَوفِ مُلوكِ ٱلدُّنيا معَ ضَعفِهِمْ وعَجْزِهِمْ وخَساسَةِ ٱلحظوظِ

---

(١) وهوَ سعيدُ بنُ ٱلمسيِّب رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ ، كما في « قوت القلوب » .

(٢) ومنهُم : عليُّ ٱبن أَبي طالبٍ ، وعليُّ بنُ ٱلحُسينِ بنِ عليٍّ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُم ، وهٰذا ديدنُ ٱلصَّالحينَ ٱلخاشعينَ .

ٱلحاصِلَةِ منهُمْ ، حتَّىٰ يدخلَ ٱلواحِدُ علىٰ مَلِكٍ أَو وزيرٍ ويُحدِّثَهُ بمُهِمَّةٍ ثمَّ يخرُجَ ، ولو سُئِلَ عَمَّن حَوَالَيْهِ أَو عَنْ ثوبِ ٱلمَلِكِ . . لَكانَ لا يَقدِرُ علىٰ ٱلإخبارِ عنهُ ؛ لاشتغالِ هَمِّهِ بهِ عَنْ ثوْبِهِ وعنِ ٱلحاضرينَ حولَهُ .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ . . ﴾[1] .

فحظُّ كلٍّ واحدٍ مِنْ صلاتِهِ . . بِقدرِ خَوْفِهِ وخشوعِهِ وتعظيمِهِ .

فإِنَّ مَوضْعَ نَظرِ ٱللهِ تعالىٰ إِلىٰ ٱلقلوبِ دونَ ظاهرِ ٱلحركاتِ .

ولذلكَ قالَ بعضُ ٱلصَّحابةِ رضيَ ٱللهُ عنهُم : (يُحشَرُ ٱلنَّاسُ يومَ ٱلقيامةِ علىٰ مِثلِ هيآتِهِم في ٱلصَّلاةِ مِنَ ٱلطُّمأْنينةِ وٱلهدوءِ ، ومِنْ وجودِ ٱلنَّعيمِ بها وٱللَّذَّةِ) .

ولقد صَدَقَ ، فإِنَّهُ يُحشَرُ كُلٌّ علىٰ ما ماتَ عليهِ ، ويموتُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويُراعىٰ في ذلكَ حالُ قلبِهِ ، لا حالُ قالَبِهِ .

فَمِنْ صِفاتِ ٱلقلوبِ تُصاغُ الصُّوَرُ في ٱلآخِرَةِ ، ولا ينجو إِلاَّ مَنْ أَتىٰ ٱللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ .

* * *

---

(١) سورة الأنعام : (١٣٢) .

بيانُ ٱلدَّواءِ ٱلنَّافعِ في حضورِ ٱلقلبِ[1] :

ٱِعلَمْ : أَنَّ ٱلمؤمنَ لا بُدَّ وأَنْ يكونَ مُعَظِّماً للهِ تعالىٰ ، وخائِفاً منهُ ، وراجياً لَهُ ، ومستحيياً مِنْ تقصيرِهِ ، فلا ينفكُّ عَنْ هـٰذهِ ٱلأَحوالِ بعدَ إِيمانهِ ، وإِنْ كانتْ قُوَّتُها بقدرِ قوَّةِ يقينهِ .

فٱنفكاكُهُ عنها في ٱلصَّلاةِ لا سببَ لَهُ إِلاَّ تفريقُ ٱلفِكْرِ ، وتقسيمُ ٱلخاطِرِ ، وغَيبةُ ٱلقلبِ عَنِ ٱلمناجاةِ ، وٱلغَفلةُ عَنِ ٱلصَّلاةِ .

فلا يُلهي عَنِ ٱلصَّلاةِ . . إِلاَّ ٱلخواطِرُ ٱلوارِدةُ ٱلشَّاغِلةُ .

وٱلدَّواءُ في إِحضارِ ٱلقلبِ هوَ : دفعُ تلكَ ٱلخواطِرِ ٱلوارِدةِ ، ولا يُدْفَعُ ٱلشَّيءُ إِلاَّ بدفعِ سببهِ . فَلْيُعلَمْ سببُهُ .

وسببُ توارُدِ ٱلخواطِرِ : إِمَّا أَنْ يكونَ أَمراً خارِجاً ، أَو أَمراً في ذاتهِ باطناً .

أَمَّا ٱلخارجُ : فما يَقرعُ ٱلسَّمعَ ، أَو يَظهرُ للبصرِ ، فإِنَّ ذلكَ قد يَخْتَطِفُ ٱلهَمَّ حتَّىٰ يتبعَهُ وينصرِفَ فيهِ ، ثمَّ ينجَرُّ منهُ ٱلفِكْرُ إِلىٰ غيرِهِ ويتسلسلُ ، ويكونُ ٱلإِبصارُ سبباً للأَفكارِ ، ثمَّ تصيرُ بعضُ تلكَ ٱلأَفكارِ سبباً للبعضِ .

وَمَنْ قَويتْ نِيَّتُهُ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ . . لَمْ يُلْهِهِ ما يجري علىٰ حواسِّهِ .

---

(١) كما في « الإحياء » (٢/ ٢٩٣) .

ولـٰكنَّ ٱلضَّعيفَ لا بُدَّ أَنْ يتفرَّقَ فِكرُهُ ، فعلاجُهُ : قَطْعُ هـٰذهِ ٱلأَسبابِ ؛ بأَنْ يَغُضَّ بصرَهُ ، أَو يصلِّيَ في بيتٍ مُظْلِمٍ ، ولا يترُكَ بينَ يديهِ ما يشغَلُ حِسَّهُ ، ويقرُبَ مِنْ حائطٍ عندَ صلاتهِ حتَّىٰ لا تتَّسِعَ مسافةُ بصرِهِ ، ويحترزَ مِنَ ٱلصَّلاةِ علىٰ ٱلشَّارِعِ ، وفي ٱلمواضعِ ٱلمنقوشةِ ٱلمصنوعةِ ، وعلىٰ ٱلفُرُشِ ٱلمصبوغةِ .

ولذلكَ كانَ ٱلمتعبِّدونَ منهُم يتعبَّدونَ في بيتٍ صغيرٍ مُظلِمٍ ، سَعَتُهُ بقدرِ ٱلسُّجودِ ؛ ليكونَ ذلكَ أَجمعَ لِلْهَمِّ .

وٱلأَقوياءُ كانوا يحضرونَ ٱلمساجدَ ، ويَغُضُّونَ ٱلبصرَ ، ولا يُجاوِزونَ بهِ موضعَ ٱلسُّجودِ ، وَيرَوْنَ كمالَ ٱلصَّلاةِ في أَلاَّ يَعرِفَ أَحدُهُم مَنْ علىٰ يمينهِ أَو شمالهِ .

وكانَ ٱبنُ عُمَرَ رضيَ ٱللهُ عنهُما لا يَدَعُ في موضعِ ٱلصَّلاةِ مُصحَفاً ولا سَيْفاً إِلاَّ نزعهُ ، ولا كتاباً إِلاَّ مَحَاهُ(١) .

أَمَّا ٱلأَسبابُ ٱلباطنةُ : فهيَ أَشدُّ ، فإِنَّ مَنْ تشعَّبتْ بهِ ٱلهمومُ في أَوديةِ ٱلدُّنيا . . لَمْ ينحصِرْ فِكْرُهُ في فَنٍّ واحدٍ ، بل لا يزالُ يطيرُ مِنْ جانبٍ إِلىٰ جانبٍ ، وغَضُّ ٱلبصرِ لا يُغنيهِ ، فإِنَّ ما وقعَ في ٱلقلبِ مِنْ قَبْلُ . . كافٍ في ٱلشُّغُلِ ، فهـٰذا طريقهُ أَنْ يَرُدَّ ٱلنَّفْسَ

---

(١) ٱنظُر إِلىٰ هـٰذا وقارِنْهُ بما أُحدثَ في ٱلمساجدِ هـٰذا ٱلزَّمان مِنْ كثرةِ ٱلزَّخارفِ وٱللَّوحاتِ وٱلزِّيناتِ ممَّا يُشغِلُ ٱلمصلِّي عن صلاتِهِ ، وٱلذَّاكِرَ عن ذِكرِهِ . نسألُ ٱللهَ ٱلتَّوفيقَ لحُسْنِ ٱلاتِّباعِ وٱلابتعادَ عن شرِّ ٱلابتداعِ . آمينَ .

قهراً إِلىٰ فَهْمِ ما تقرؤُهُ في ٱلصَّلاةِ ، ويشغلَها بهِ عَنْ غيرِهِ ، ويعينُهُ علىٰ ذلكَ أَنْ يستعِدَّ لَهُ قبلَ ٱلتَّحريمِ بٱلصَّلاةِ بأَنْ يُجَدِّدَ علىٰ نفسهِ ذِكْرَ ٱلآخِرَةِ ، وموقفَ ٱلمناجاةِ ، وخَطَرَ ٱلمُقامِ بينَ يدي ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وهَوْلَ ٱلمَطْلَعِ ، ويفرِّغَ قلبَهُ قبلَ ٱلتَّحريمِ بٱلصَّلاةِ عَمَّا يُهِمُّهُ ، ولا يترُكَ لنفسهِ شُغُلاً يلتفتُ إِليهِ خاطرُهُ .

قالَ ٱلنَّبيُّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لعثمانَ ٱبنِ أَبي شَيْبَةَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ : « إِنِّي نَسِيْتُ أَنْ أَقُوْلَ لَكَ : تَخَمِّرِ ٱلْقِدْرَ ٱلَّذِيْ فِيْ ٱلْبَيْتِ »[1] ، فإِنَّهُ لا ينبغي أَنْ يكونَ في ٱلبيتِ شيءٌ يَشْغَلُ ٱلنَّاسَ عَنْ صلاتهِم ، فهٰذا طريقُ تسكينِ ٱلأَفكارِ .

فإِنْ كانَ لا يَسْكُنُ هائجُ ٱلأَفكارِ بهٰذا ٱلدَّواءِ ٱلمُسَكِّنِ . . فلا ينجيهِ إِلاَّ ٱلمُسهِلُ ٱلَّذي يقطعُ مادَّةَ ٱلدَّاءِ مِنْ أَعماقِ ٱلعُروقِ ، وهوَ أَن ينظُرَ في ٱلأُمورِ ٱلشَّاغِلَةِ ٱلصَّارِفَةِ لَهُ عَنْ إِحضارِ ٱلقلبِ ، ولا شكَّ في أَنَّها تعودُ إِلىٰ مُهِمَّاتِهِ ، وأَنَّها إِنَّما صارتْ مهمَّاتٍ لشهواتِهِ ، فيُعاقِبُ نفسَهُ بٱلنُّزوعِ عَنْ تلكَ ٱلشَّهوةِ ، وقطعِ تلكَ ٱلعلائقِ ، فكلُّ ما يشغلُهُ عَنْ صلاتِهِ . . فهوَ ضِدُّ دينهِ ، وَجُنْدُ إِبليسَ عَدوِّهِ ، وإِمساكُهُ أَضَرُّ عليهِ مِنْ إِخراجِهِ ، فيتخلَّصُ منهُ

---

(1) أَوردَهُ ٱلعراقيُّ (١/ ١٧٠) وقال فيهِ : أخرجه أبو داوود من حديث عثمانَ ٱلحجبي ؛ وهو عثمانُ بنُ طلحة كما في مسند أحمد ، ووقعَ للمصنِّف أنَّه قال ذلك لعثمانَ بنِ أبي شيبة ، وهو وهمٌ .

بإخراجِهِ ؛ كما رُوِيَ عنهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لَمَّا لَبِسَ ٱلخميصَةَ[1] ٱلَّتي أَتىٰ بها أَبو جَهْمٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ وعليها عَلَمٌ ، وصلَّىٰ بها . . نزعها بعدَ صلاتِهِ ، وقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « اِذْهَبُوْا بِهَا إِلَىٰ أَبِيْ جَهْمٍ ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِيْ آنِفاً عَنْ صَلاَتِيْ ، وَٱئْتُوْنِيْ بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِيْ جَهْمٍ »[2] .

وأَمَرَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بتجديدِ شِراكِ نعلهِ ، ثُمَّ نَظَرَ إليهِ في ٱلصَّلاةِ إِذْ كانَ جديداً ، فأَمرَ أَنْ يُنزعَ عنها ، ويُرَدَّ ٱلشِّراكُ ٱلخَلَقُ[3] .

وكان صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قَدِ ٱحتذىٰ نَعلاً فأَعجبَهُ حُسْنُها ، فسجدَ فقالَ : « تَوَاضَعْتُ لِرَبِّيْ كَيْلاَ يَمْقُتَنِيْ » ، ثُمَّ خرجَ بها فدفعَها إِلىٰ أَوَّلِ سائلٍ لقيَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ عليّاً كرَّمَ ٱللهُ وجهَهُ أَنْ

---

(١) ٱلخميصةُ : ثوبٌ أَسودُ أَو أَحمرُ ، لَهُ أَعلامٌ . « المعجم الوسيط » (١/ ٢٦٥) .

(٢) أخرجَهُ عن عائشة رضيَ ٱللهُ عنها أَحمد (٢٤٠٨٧) ، وٱلبخاريُّ (٧٥٢) ، ومسلمٌ (٥٥٦) ، وأَبو داوودَ (٩١٤) و(٤٠٥٣) ، وٱلنَّسائيُّ في « ٱلكبرىٰ » (٨٤٧) ، وٱبنُ ماجه (٣٥٥٠) . ٱلأَنبِجانيَّةُ : كساءٌ غليظٌ لا عَلَمَ لَهُ .

لمَّا خافَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مِنِ ٱنكسارِ خاطرِ أَبي جهم بأن يردّ هديته عليه ، وقد كرهها لأنها ألهته عن الصلاة . . قالَ : « ائتوني بأَنْبجانيَّةِ أَبِيْ جَهْمٍ » حتَّى يُدخلَ ٱلسُّرورَ علىٰ قلبهِ .

(٣) ٱلخلَقُ : البالي .

يشتري لَهُ نعلَينِ سِبْتِيَّيْنِ(١) جرداوينِ(٢) فلبِسَهُما(٣) .

وكانَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في يدهِ خاتَمُ ذهبٍ قبلَ ٱلتَّحريمِ ، وكانَ علىٰ ٱلمنبرِ فرماهُ ، وقالَ : « شَغَلَنِي هَـٰذَا ، نَظْرَةً إِلَيْهِ ، وَنَظْرَةً إِلَيْكُمْ »(٤) .

ورويَ : أَنَّ أَبا طلحةَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ صلَّىٰ في حائطٍ(٥) لَهُ فيهِ شجرٌ ، فأَعجبَهُ دُبْسِيٌّ(٦) طارَ في ٱلشَّجرِ يلتمِسُ مخْرَجاً ، فأَتبعَهُ بصرَهُ ساعةً ، ثُمَّ لَمْ يذكُر كمْ صلَّىٰ ، فذَكَرَ ذلكَ لرسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وما أَصابَهُ مِنَ ٱلفتنةِ ، ثمَّ قالَ : يا رسولَ ٱللهِ . . هوَ صَدَقَةٌ ، فَضَعْهُ حيثُ شئتَ(٧) .

وعَنْ رجلٍ آخرَ : أَنَّهُ صلَّىٰ في حائطٍ لَهُ وٱلنَّخلُ مُطَوَّقَةٌ

---

(١) سِبْتِيَّيْنِ ـ مثنَّىٰ سِبتيَّةٍ ، بكسرِ السِّينِ وسكونِ ٱلباءِ الموحَّدةِ ـ : جلودُ بقرٍ تُدبغُ ، وتصنَعُ منها النِّعالُ ، سُمِّيتْ بذلكَ ، لأَنَّ شعَرَها قد سبت عنها ؛ أَي : أُزيلَ .

(٢) جرداوين : لا شَعرَ فيهما ، تأكيداً لِمَا قبلَهُ .

(٣) قال ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : رواه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أبو عبد الله بن حقيق في « شرف ٱلفقراء » .

(٤) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أَخرجه عنِ ٱبنِ عبَّاسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما أَحمد (٢٩٦٣) ، وٱلنَّسائيُّ (٩٥٤٣) .

(٥) حائطٌ : بستانٌ .

(٦) دُبسيٌّ : طائرٌ صغيرٌ أَدكنُ يقرقِرُ ، قيلَ : هوَ ذَكَرُ ٱليمامِ ، وقيلَ : منسوبٌ إِلىٰ طيرٍ دبسٍ .

(٧) قالَ ٱلعراقيُّ : رواه ٱلإمامُ مالكٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « ٱلموطَّأ » .

بثمارِها ، فنظرَ إليهِ ، فأَعجبَهُ فلَمْ يَدْرِ كَمْ صلَّىٰ ، فذَكَرَ ذلكَ لعثمانَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ ، فقالَ : هوَ صَدَقَةٌ ، فٱجْعَلْهُ في سبيلِ ٱللهِ ، فباعَهُ عثمانُ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ بخمسينَ أَلفاً[1] .

وكانوا يفعلونَ ذلكَ قَطعاً لموادِّ ٱلفِكْرِ ، وكَفَّارَةً لِما جرىٰ مِنْ نُقصانِ ٱلصَّلاةِ بسببِهِ ، وهٰذا هوَ ٱلدَّواءُ ٱلقاطعُ لمادَّةِ ٱلغَفلةِ ، ولا يُغني غيرُهُ ، فإِنَّ ما ذكرناهُ مِنَ ٱلتلطُّفِ بٱلتَّسكينِ ، وٱلرَّدِّ إِلىٰ فهمِ ٱلذِّكْرِ . . ينفعُ في ٱلشَّهواتِ ٱلضَّعيفةِ ، وٱلهِمَمِ ٱلَّتي لا تَشْغَلُ إِلاَّ حواشيَ ٱلقلبِ .

فأَمَّا ٱلشَّهوةُ ٱلقويَّةُ ٱلمُرْهِقَةُ : فلا ينفعُ فيها ٱلتَّسكينُ ، بل لا تزالُ تُجاذِبُها وتُجاذِبُكَ حتَّىٰ تغلِبَكَ وتنقضي جميعُ صَلاتِكَ في شُغُلِ ٱلمُجاذَبَةِ .

ومثالُهُ : مثالُ رجلٍ تحتَ شجرةٍ أَرادَ أَنْ يصفوَ لَهُ فِكْرُهُ ، وكانتْ أَصواتُ ٱلعصافيرِ تشوِّشُ عليهِ ، فلَمْ يزلْ يُطَيِّرُها بخشبةٍ هيَ في يدهِ ، ويعودُ إِلىٰ فِكْرِهِ ، وتعودُ ٱلعصافيرُ ، فيعودُ إِلىٰ ٱلتَّنفيرِ بٱلخشبةِ ، فقيلَ لَهُ : إِنْ أَردتَ ٱلخلاصَ . . فٱقطعِ ٱلشَّجرةَ .

وكذلكَ شجرةُ ٱلشَّهوةِ إِذا تشعَّبتْ ، وٱرتفعتْ ، وتفرَّعتْ

---

(١) رواه مالكٌ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « ٱلموطَّأ » (٢٢٣) ، وٱبنِ ٱلمبارك في كتاب « الزهد » (٥٢٧) .

أَغصانُها . . ٱنجذبتْ إِليها ٱلأَفكارُ ٱنجذابَ ٱلعصافيرِ إِلىٰ ٱلأَشجار ، وٱنجذابَ ٱلذُّبابِ إِلىٰ ٱلأَقذارِ ، وٱلشُّغُلُ يطولُ في دفعها ، فإِنَّ ٱلذُّبابَ كلَّما ذُبَّ . . آبَ[1] ، ولأَجلهِ سُمِّيَ ذُباباً ، فكذا ٱلخواطِرُ .

وهٰذهِ ٱلشَّهواتُ كثيرةٌ ، وقلَّ مَا يخلو ٱلعبدُ عنها ، ويجمعُها أَصلٌ واحدٌ ، وهوَ حُبُّ ٱلدُّنيا ، وذلكَ رأْسُ كلِّ خطيئةٍ[2] ، وأَساسُ كلِّ نقصانٍ ، ومنبعُ كلِّ فسادٍ ، ومَنِ ٱنطوىٰ باطِنهُ علىٰ حُبِّ ٱلدُّنيا حتَّىٰ مالَ إِلىٰ شيءٍ منها ، لا ليتزوَّدَ منها ويستعينَ بها علىٰ طريقِ ٱلآخرةِ . . فلا يطمعنَّ في أَنْ تصفوَ لَهُ لَذَّةُ ٱلمناجاةِ في ٱلصَّلاةِ ، فإِنَّ مَنْ فَرِحَ بٱلدُّنيا . . فلا يفرحُ بٱللهِ ومناجاتهِ ، وَهِمَّةُ ٱلرَّجُلِ مَعَ قُرَّةِ عينهِ ، فإِنْ كانتْ قرَّةُ عينهِ في ٱلدُّنيا . . ٱنصرفَ لا محالةَ إِليها هَمُّهُ . ولٰكن معَ هٰذا فلا ينبغي أَنْ يترُكَ ٱلمُجاهدةَ ، وردَّ ٱلقلبِ إِلىٰ ٱلصَّلاةِ ، وتقليلَ ٱلأَسبابِ ٱلشَّاغِلَةِ لَهُ ، فهٰذا هوَ ٱلدَّواءُ ٱلمُرُّ ، ولمرارتهِ ٱسْتَبشَعَتْهُ أَكثرُ ٱلطَّبائعِ ، وبقيَتِ ٱلعِلَّةُ مُزْمِنَةً[3] ، وصارَ ٱلدَّاءُ عُضالاً ، حتَّىٰ إِنَّ ٱلأَكابرَ

---

(١) أَي : كلَّما طُرِدَ . . رَجعَ .

(٢) إِشارةً إِلى حديثِ الحسنِ مرسلاً : « حُبُّ ٱلدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ » ، قالَ ٱلعراقيُّ (٣/١٩٦) : رواهُ ٱبن أَبي ٱلدُّنيا في « ذمّ ٱلدُّنيا » وٱلبيهقيُّ في « ٱلشُّعب » من طريقه .

(٣) أَي : دائمةً زماناً طويلاً .

ٱجتهدُوا علىٰ أَنْ يُصَلُّوا رَكعتينِ ولا يحدِّثوا أَنفسَهُم فيها بشيءٍ مِنْ أُمورِ ٱلدُّنيا. . فعجزوا عَنْ ذلكَ ، فإِذاً. . لا مطمعَ فيهِ لأَمثالِنا ، وليتَهُ سَلِمَ مِنَ ٱلصَّلاةِ شطْرُها أَو ثلثُها عَنِ ٱلوسواسِ ، فنكونَ مِمَّنْ خَلَطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً .

وعلىٰ ٱلجملةِ : فَهِمَّةُ ٱلدُّنيا وهِمَّةُ ٱلآخِرَةِ في ٱلقلبِ مثلُ ٱلماءِ ٱلَّذي يُصَبُّ في قَدَحٍ مملوءٍ فيهِ خَلٌّ[1] ، فبقدَرِ ما يدخُلُ فيهِ مِنَ ٱلماءِ. . يخرُجُ ٱلخَلُّ لا مَحالةَ ، فلا يجتمعانِ .

* * *

بيانُ تفصيلِ ما ينبغي أَن يَحْضُرَ بٱلقلبِ عندَ كلِّ رُكْنٍ وشرطٍ مِنْ أَعمالِ ٱلصَّلاةِ[2]

فنقولُ : حقُّكَ إِنْ كنتَ مِنَ ٱلمريدينَ للآخرةِ أَلاَّ تغفُلَ أَوَّلاً عَنِ ٱلتَّنبيهاتِ ٱلَّتي مِنْ شروطِ ٱلصَّلاةِ وأَركانها .

أَمَّا ٱلشُّروطُ وٱلسَّوابقُ فهيَ : ٱلأَذانُ ، وٱلطَّهارةُ ، وسَتْرُ ٱلعورةِ ، وٱستقبالُ ٱلقِبْلَةِ ، وٱلانتصابُ قائِماً ، وٱلنِّيَّةُ .

---

(١) الخَلُّ : زيتُ ٱلسُّمسُمِ .

(٢) كما في « الإحياء » (٢/٢٩٦) .

فإذا سمعتَ نداءَ ٱلمؤذِّنِ . . فأَحضِرْ في قلبكَ هَوْلَ ٱلنِّداءِ يومَ ٱلقيامةِ ، وَشَمِّر بظاهرِكَ وباطنِكَ للإِجابةِ وٱلمُسارعةِ ، فإِنَّ ٱلمُسارِعينَ إِلىٰ هـٰذا ٱلنِّداءِ هُمُ ٱلَّذينَ يُنادَوْنَ بٱللُّطْفِ يومَ ٱلنِّداءِ ٱلأَكبرِ ، وٱعرِضْ قلبَكَ علىٰ هـٰذا ٱلنِّداءِ ، فإِنْ وجدتَهُ مملوءاً بٱلفرحِ وٱلاستبشارِ مشحوناً بٱلرَّغبةِ إِلىٰ ٱلابتدارِ . . فٱعلَمْ أَنَّهُ يأتيكَ ٱلنِّداءُ بٱلبُشْرىٰ وٱلفوزِ يومَ ٱلقضاءِ .

ولذلكَ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلاَلُ»[1]؛ أَي : أَرحنا بِها وبٱلنِّداءِ إِليها ، إِذْ كانَتْ قُرَّةُ عينِهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فيها .

وأَمَّا ٱلطَّهارةُ : إِذا أَتيتَ بها في مكانكَ ـ وهوَ ظرفُكَ ٱلأَبعدُ ـ ثمَّ في ثيابِكَ ـ وهوَ غِلافُكَ ٱلأَقربُ ـ ثمَّ في بشرتِكَ ـ وهيَ قِشْرُكَ ٱلأَدنى . . فلا تغفُلْ عَنْ لُبِّكَ ٱلَّذي هوَ ذاتُكَ وهوَ قلبُكَ .

فٱجتهِدْ أَنْ تُجَدِّدَ لها تطهيراً بٱلتَّوبةِ وٱلنَّدمِ علىٰ ما فَرَطَ ، وتصميمِ ٱلعزمِ علىٰ ٱلتَّركِ في ٱلعَودِ في ٱلمستقبلِ ، فتُطَهِّرُ بها باطِنَكَ فإِنَّهُ موقعُ نظرِ معبودِكَ .

وأَمَّا سَتْرُ ٱلعورةِ : فٱعلَمْ أَنَّ معناهُ تغطيةُ مَقابِحِ بدنِكَ عَنْ أَبصارِ ٱلخَلْقِ ، فإِنَّ ظاهرَ بدنِكَ موقعُ نظرِ ٱلخَلْقِ ، فما رأْيُكَ في

---

(١) أخرجَهُ عن رجل مِنَ ٱلصَّحابةِ أَبو داوودَ (٤٩٨٥) في الأَدبِ بلفظ : « يَا بِلاَلُ أَقِمِ ٱلصَّلاَةَ ، أَرِحْنَا بِهَا » .

عوراتِ باطنِكَ وفضائِحِ سِرِّكَ ٱلَّذي لا يطَّلِعُ عليهِ إلاَّ ربُّكَ عزَّ وجلَّ ؟!

فأَحضِرْ تلكَ ٱلقبائِحَ ببالِكَ ، وطالِبْ نفسكَ بسترِها ، وتحقَّقْ أَنَّهُ لا يستُرها عَنْ عينِ ٱللهِ سبحانَهُ ساترٌ ، وإِنَّما يُكَفِّرُها ٱلنَّدَمُ وٱلحياءُ وٱلخوفُ ، فتستفيدَ بإِحضارِها في قلبكَ ٱنبعاثَ جنودِ ٱلخوفِ وٱلحياءِ مِنْ مكامِنها ، فتَذِلَّ بها نفسُكَ ، ويستكينَ تحتَ ٱلخجلِ قلبُكَ ، وتقومَ بينَ يدي ٱللهِ تعالىٰ قيامَ ٱلعبدِ ٱلمُجرمِ ٱلمُسيءِ ٱلآبقِ ٱلَّذي نَدِمَ فرجَعَ إِلىٰ مولاهُ ناكِساً رأْسَهُ مِنَ ٱلحياءِ وٱلخوفِ .

وأَمَّا ٱلاستقبالُ : فهوَ صرفٌ لظاهرِ وجهِكَ عَنْ سائرِ ٱلجِهاتِ إِلىٰ جهةِ بيتِ ٱللهِ تعالىٰ .

أَفَترىٰ أَنَّ صَرفَ ٱلقلبِ عَنْ سائرِ ٱلأُمورِ إِلىٰ أَمرِ ٱللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ليسَ مطلوباً منكَ ؟!

هيهاتَ!! فلا مطلوبَ منكَ سواهُ ، وإِنَّما هـٰذهِ ٱلظَّواهرُ تحريكاتٌ للبَواطنِ ، وضبطٌ للجوارحِ ، وتسكينٌ لها بٱلإثباتِ في جهةٍ واحدةٍ حتَّىٰ لا تبغي علىٰ ٱلقلبِ ، فإِنَّها إِذا بَغَتْ وظلمَتْ في حركاتِها وٱلتفاتِها إِلىٰ جهاتها . ٱستتبعتِ ٱلقلب[1] ، وٱنقلبَتْ بهِ عَنْ وجهِ ٱللهِ تعالىٰ ، وَلْيَكُنْ وجهُ قلبِكَ معَ وجهِ بدنِكَ .

---

(١) أَي : جعلتْهُ تابعاً لها .

وٱعلَمْ : أَنَّهُ كما لا يتَوَجَّهُ ٱلوجهُ إلىٰ جهةِ ٱلبيتِ إلاَّ بٱلصَّرفِ عنْ غيرِها . . فلا ينصرِفُ ٱلقلبُ إلىٰ ٱللهِ تعالىٰ إلاَّ بٱلانصرافِ عمَّا سواهُ تعالىٰ .

فقد قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِذَا قَامَ ٱلْعَبْدُ إِلَىٰ صَلاَتِهِ وَكَانَ هَوَاهُ وَوَجْهُهُ وَقَلْبُهُ إِلَىٰ ٱللهِ تَعَالَىٰ . . ٱنْصَرَفَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »[1] .

وأَمَّا ٱلاعتدالُ قائِماً : فإنَّما هوَ مُثولٌ بٱلشَّخصِ وٱلقلبِ بينَ يدي ٱللهِ تعالىٰ فَلْيَكُنْ رأسُكَ ٱلَّذي هوَ أَرفعُ أَعضائِكَ مُطرِقاً مُطأْطِئاً مُستكيناً ، وَلْيَكُنْ وضعُ ٱلرَّأسِ علىٰ ٱرتفاعهِ تنبيهاً علىٰ إلزامِ ٱلقلبِ ٱلتَّواضعَ وٱلتَّذلُّلَ وٱلتَّبرِّيَ عَنِ ٱلتَّرؤُّسِ وٱلتَّكبُّرِ ، وَلْيَكُنْ علىٰ ذُكْرِكَ[2] هاهُنا خطرُ ٱلمَقامِ بينَ يدي ٱللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ في هَوْلِ ٱلمُطَّلَعِ عِنْدَ ٱلعرضِ للسُّؤالِ .

وٱعلَمْ في الحالِ : أَنَّكَ قائمٌ بينَ يدي ٱللهِ عزَّ وجلَّ وهوَ مُطَّلِعٌ عليكَ ، فقُمْ بينَ يديهِ قيامَكَ بينَ يدي بعضِ مُلوكِ ٱلزَّمانِ إنْ كنتَ تعجَزُ عَنْ معرفةِ كُنْهِ جلالهِ ، بل قَدِّرْ في دوامِ قيامِكَ في صلاتِكَ كأَنَّكَ ملحوظٌ ومرقوبٌ بعينِ كالِئَةٍ مِنْ رَجُلٍ صالحٍ مِنْ أَهلِكَ ،

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : لم أجدهُ بهذا اللّفظ ، ولمسلمٍ نحو معناه . كما في « إتحاف » (٣/ ١٣٩) .

(٢) الذُّكر ـ بضم الذّال ـ : ذكرُ ٱلقلبِ .

وممَّنْ ترغَبُ في أَنْ يَعرِفَكَ بٱلصَّلاحِ ، فإِنَّهُ تهدأُ عندَ ذلكَ أَطرافُكَ ، وتخشَعُ جوارحُكَ ، وتسكُنُ جميعُ أَجزائِكَ خيفةَ أَنْ ينْسِبَكَ ذلكَ ٱلعاجزُ ٱلمسكينُ إلىٰ قِلَّةِ ٱلخشوعِ ، وإِذا أَحسَسْتَ مِنْ نفسِكَ بٱلتَّماسُكِ عندَ ملاحظةِ عبدٍ مسكينٍ . . فعاتِبْ نفسَكَ ، وقُلْ : إِنَّكِ تَدَّعينَ معرفتَهُ تعالىٰ وحُبَّهُ ، أَفلا تَسْتحينَ مِنِ ٱستجرائِكِ عليهِ معَ توقيرِكِ عبداً مِنْ عبادِهِ ، أَوَتَخْشَيْنَ ٱلنَّاسَ ولا تَخْشينَهُ ، وهوَ أَحقُّ أَنْ يُخْشَىٰ ؟!

فلذلكَ لَمَّا قالَ أَبو هريرةَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ : كيفَ ٱلحياءُ مِنَ ٱللهِ تعالىٰ يا رسولَ ٱللهِ ؟ فقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ : « تَستَحِيْ مِنْهُ كَمَا تَسْتَحِيْ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ مِنْ أَهْلِكَ »[1] .

وأَمَّا ٱلنِّيَّةُ : فٱعزِمْ علىٰ إِجابةِ ٱللهِ تعالىٰ ، كما أَمرَكَ ٱللهُ في ٱمتثالِ أَمرِهِ في ٱلصَّلاةِ وإِتمامِها ، وٱلكَفِّ عَنْ نواقِضِها ومُفسداتِها ، وإِخلاصِ جميعِ ذلكَ لوجْهِ ٱللهِ تعالىٰ ، رجاءً لثوابِهِ ، وخوفاً مِنْ عقابِهِ ، وطلَباً للمَقْرُبَةِ منهُ ، متقلِّداً للمِنَّةِ بإِذْنِهِ إِيَّاكَ في ٱلمناجاةِ معَ سوءِ أَدبِكَ وكثرةِ عصيانِكَ ، وعَظِّمْ في نفسِكَ قَدْرَ مناجاتِهِ ، وٱنظُرْ مَنْ تُناجي ؟ وكيفَ تُناجي ؟ وبماذا تُناجي ؟

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في تخريج أَحاديثِ « ٱلإِحياءِ » :
أَخرجه عن سعيد بن زيد ٱلخرائطيُّ في « مكارمِ ٱلأَخلاقِ » وٱلبيهقيُّ في « شُعبِ ٱلإيمان » .

وعندَ هٰذا فينبغي أَنْ يَعرَقَ جبينُكَ مِنَ ٱلخَجْلةِ ، وترتعِدَ فرائِصُكَ[1] مِنَ ٱلهيبةِ ، ويصفرَّ وجهُكَ مِنَ ٱلخوفِ .

وأَمَّا التَّكبيرُ : فإِذا نطقَ بهِ لسانُكَ . . فينبغي أَلاَّ يكذِّبَهُ قلبُكَ ، وإِنْ كانَ في قلبِكَ شيءٌ أَكبرَ مِنَ ٱللهِ تعالىٰ . . فٱللهُ يشهدُ إِنَّكَ لكاذبٌ ، وإِنْ كانَ ٱلكلامُ صِدقاً كما شَهِدَ علىٰ ٱلمنافقينَ في قولِهم : ﴿ . . قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ . . ﴾[2] ، فإِنْ كانَ هواكَ أَغلبَ عليكَ مِنْ أَمرِ ٱللهِ تعالىٰ . . فأَنْتَ أَطوعُ لَهُ مِنكَ للهِ عزَّ وجلَّ ، فقدِ ٱتَّخذتهُ إِلٰهَكَ وَكَبَّرتَهُ ، فيوشِكُ أَنْ يكونَ قولُكَ : (ٱللهُ أَكبرُ) كلاماً بٱللِّسانِ ٱلمجرَّدِ ، وقد تخلَّفَ ٱلقلبُ عَنْ مُساعدتِهِ ، وما أَعظمَ ٱلخطَرَ في ذلكَ لولا ٱلتَّوبةُ ، وٱلاستغفارُ ، وَحُسْنُ ٱلظَّنِّ بكرمِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ وعفوِهِ .

وأَمَّا دعاءُ ٱلاستفتاحِ : فأَوَّلُ كلماتِهِ قولكَ : (**وجَّهتُ وَجهِيَ لِلَّذي فطرَ ٱلسَّماواتِ وٱلأَرضَ**) ، وليسَ ٱلمرادُ بٱلوجهِ وجهَ ٱلظَّاهِرِ ؛ فإِنَّكَ إِنَّما وجَّهتَهُ إِلىٰ جهةِ ٱلقِبْلةِ ، وٱللهُ عزَّ وجلَّ يتقدَّسُ عَنْ أَنْ تَحُدَّهُ ٱلجهاتُ ، حتَّىٰ تُقْبِلَ بوجهِ بَدَنِكَ عليهِ ، وإِنَّما وجهُ

---

(١) الفرائصُ ـ جمعُ فَرِيصَة ـ : لحمةٌ بينَ ٱلكتفِ وٱلصَّدرِ ، ترتعِدُ عندَ ٱلفَزَعِ ، وهُما فريصتانِ ، وفي علم ٱلتَّشريحِ : هيَ ٱلعضلاتُ ٱلصَّدريَّةُ . « المعجم الوسيط » (٢/٧٠٨) .

(٢) سورة المنافقون : (١) .

ٱلقلبِ هوَ ٱلَّذي يُتوجَّهُ بهِ إِلىٰ فاطرِ ٱلسَّماواتِ وٱلأَرضِ ، فٱنظُرْ إِليهِ أَمُتَوَجِّهٌ هوَ إِلىٰ أَمانيهِ ، وَهَمِّهِ في ٱلبيتِ وٱلسُّوقِ ، وجميعِ ٱلشَّهواتِ ؟ أَو مُقبلٌ علىٰ فاطرِ ٱلسَّماواتِ ؟

وإِيَّاكَ أَنْ يكونَ أَوَّلُ مُفاتَحَتِكَ ٱلمناجاةَ بٱلكذبِ وٱلاختلاقِ ، ولنْ يَنْصرِفَ ٱلوجهُ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ إِلاَّ بٱنصرافِهِ عمَّا سِواهُ ، فٱجتهد في ٱلحالِ في صرفهِ إِليهِ ، وإِنْ عجزتَ عنهُ علىٰ ٱلدَّوامِ . . فليَكُنْ ذلكَ في ٱلحالِ صادِقاً .

فإِذا قُلتَ : (حنيفاً مُسْلِماً) . . فيَنبغي أَنْ تُحضِرَ ببالِكَ أَنَّ ٱلمُسلِمَ هوَ ٱلَّذي يَسْلَمُ ٱلمُسلمونَ مِنْ لسانهِ ويدِهِ ، فإِنْ لَمْ تكُنْ كذلكَ . . كُنتَ كاذِباً ، فٱجتهِد في أَن تعزِمَ عليهِ في ٱلاستقبالِ ، وتندمَ علىٰ ما سبقَ مِنَ ٱلأَحوالِ .

فإِذا قلتَ : (وما أَنا مِنَ ٱلمُشركينَ) . . فأَخطِر ببالِكَ ٱلشِّركَ ٱلخفيَّ ، فإِنَّ قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ . . فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[1] . . نَزَلَ في مَنْ يقصدُ بعبادَتِهِ وجهَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ وَحَمدَ النَّاسِ ، وَكُنْ مُتَّقياً مِنْ هٰذا ٱلشِّركِ ، وٱستشعِرِ ٱلخَجْلَةَ في قلبِكَ بأَنْ وَصَفْتَ نفسَكَ بأَنَّكَ لَستَ مِنَ ٱلمُشركينَ ، مِنْ غيرِ براءَةٍ مِنْ هٰذا ٱلشِّركِ ، فإِنَّ ٱسمَ ٱلشِّركِ يقعُ علىٰ ٱلقليلِ وٱلكثيرِ مِنهُ .

---

(١) سورة الكهف : (١١٠) .

فإذا قُلتَ : (إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي للهِ) . . فٱعلَمْ أَنَّ هـٰذا حالُ عَبْدٍ مفقودٍ لنفسهِ موجودٍ لسيِّدِهِ[1] ، وأَنَّهُ إِنْ صَدَرَ مِمَّنْ رِضاهُ وغضبُهُ ، وقيامُهُ وقعودُهُ ، ورغبتُهُ في ٱلحياةِ ورهبتُهُ مِنَ ٱلمماتِ لأُمورِ ٱلدُّنيا . . لَمْ يكُنْ مُلائِماً لهـٰذهِ ٱلحالِ .

وإذا قُلتَ : (أَعوذُ بٱللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيْمِ) . . فٱعلَمْ أَنَّهُ عدوُّكَ ومترصِّدٌ لِغَفْلَتِكَ ؛ كي يَصرِفَ قلبكَ عَنِ ٱللهِ ، حَسَداً لكَ علىٰ مُناجاتِكَ معَ ٱللهِ تعالىٰ وسجودِكَ لَهُ ، معَ أَنَّهُ لُعِنَ بسببِ سَجدَةٍ وَاحدةٍ تَركها ولَمْ يُوَفَّقْ لها .

وأَنَّ ٱستعاذَتَكَ بٱللهِ منهُ . . بتركِ ما يُحبُّهُ وتبديلهِ بما يُحبُّ ٱللهُ عزَّ وجلَّ ، لا بمجرَّدِ قَولِكَ[2] ، فإِنَّ مَنْ قَصَدَهُ سَبُعٌ أَو عَدُوٌّ لِيَفْتَرِسَهُ أَو يقتلَهُ ، فقالَ : (أَعوذُ منكَ بذلكَ ٱلحِصنِ ٱلحصينِ) ، وهوَ ثابتٌ علىٰ مكانهِ . . فإِنَّ ذلكَ لا ينفعُهُ ، بل لا يفيدُهُ إِلاَّ تبديلُ ٱلمكانِ بٱلحِصنِ ، وكذلكَ مَنْ يتبعُ ٱلشَّهواتِ

---

(١) فإِنَّ مَن فَنِيَ عَنْ نفسِهِ . . بقيَ بٱللهِ تعالىٰ ، ومَنْ راقبَ علىٰ قلبهِ بوحدانيَّةِ ٱللهِ تعالىٰ ، وطردَ ما سواهُ . . وجدَ ٱللهَ وإِحسانَهُ ، وحينئذٍ يفوزُ بعلمِ ٱليقينِ ، وهوَ أَنْ يَرىٰ حياتَهُ وموتَهُ بهِ ولَهُ ، وأَنَّهُ هوَ ٱلمحيي وهوَ ٱلمُمِيْتُ ، ثمَّ يزيدُ حضوراً إِلىٰ أَنْ يترقَّىٰ إِلىٰ عينِ ٱليقينِ ، ثمَّ يزيدُ ٱستغراقاً يُدَرِّجُهُ إِلىٰ حقِّ ٱليقينِ ، ثُمَّ يَفنىٰ عَنْ ذلكَ بهِ ، وذلكَ حقيقةُ ٱليقين . « إتحاف » (٣/ ١٤٤) .

(٢) أَي : لا بمجردِ ٱستعاذَتِكَ باللِّسانِ ، وقولِكَ : (أَعوذُ بٱللهِ مِنَ ٱلشَّيطانِ ٱلرَّجيمِ) .

ٱلَّتي هيَ مَحابُّ ٱلشَّيطانِ ، ومكارِهُ ٱلرَّحمـٰنِ . . لا يُغنيهِ مجرَّدُ ٱلقولِ ، فَلْيقترِنْ قولُهُ بِٱلعَومِ علىٰ ٱلتَّعوُّذِ بحصنِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ شَرِّ ٱلشَّيطانِ .

وحصنُهُ (لا إِلـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ) ، إِذْ قالَ تعالىٰ فيما أَخبرَ عنهُ نَبيُّنا صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ حِصْنِيْ ، فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِيْ . . أَمِنَ مِنْ عَذَابِيْ »[1] ، وٱلمتحصِّنُ بهِ مَنْ لا معبودَ لَهُ سوىٰ ٱللهِ عزَّ وجلَّ .

فأَمَّا مَنِ ٱتَّخذَ إِلـٰهَهُ هواهُ : فهوَ في ميدانِ ٱلشَّيطانِ ، لا في حِصنِ ٱللهِ تعالىٰ .

وٱعلَمْ : أَنَّ مِنْ مكائِدِهِ أَنْ يشغَلَكَ في ٱلصَّلاةِ بذِكْرِ ٱلآخرةِ وتدبيرِ فعلِ ٱلخيراتِ ؛ ليمنَعكَ عَنْ فهمِ ما تقرأُ .

وٱعلَمْ : أَنَّ كُلَّ ما يشغَلُكَ عنْ فَهْمِ معاني قراءَتِكَ . . فهوَ وسواسٌ ، فإِنَّ حركةَ ٱللِّسانِ غيرُ مقصودةٍ ، بلِ ٱلمقصودُ معانيها[2] .

---

(1) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في تخريج أَحاديث « ٱلإحياء » : أَخرجَهُ عن عليٍّ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلحاكِمُ في « ٱلتَّاريخ » ، وأَبو نعيم في « ٱلحليةِ » .

(2) اِعلَمْ أَنَّ ٱلخواطرَ ٱلَّتي تَرِدُ علىٰ ٱلقلوبِ علىٰ ٱلمصلِّي في صلاتهِ علىٰ أَقسامٍ :

ـ منها : ما يخطُرُ بهِ من ٱلخيرِ ، فلْيُسارِعْ إِلى فعلِهِ ، فذلكَ مِنْ أَحبِّ ٱلأَشياءِ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ .

ـ ومنها : ما يخطُرُ بهِ مِنَ ٱلمكروهِ ٱلممقوتِ ، فليَجتنبْهُ ، فإِنَّهُ هوَ ٱلَّذي يبعدُهُ مِنْ قُربِ ٱللهِ تعالىٰ . =

وأَمَّا ٱلقراءَةُ : فٱلنَّاسُ فيها ثلاثةٌ :

١ـ رجلٌ يتحرَّكُ لسانُهُ ، وقلبُهُ غافِلٌ .

= ـ ومنها : ما يخطُرُ بِهِ مِنْ خاطرِ تمنٍّ أَو ممَّا يهمُّهُ ممَّا يأتي أَو مضىٰ ، فذلكَ وسوسةٌ مِنَ ٱلعدوِّ ، فليحذَرْ منهُ .

ـ ومنها : ما يخطُرُ بهِ مِنْ أَمرِ ٱلمعاشِ وتصريفِ ٱلأحوالِ وتدبيرِ ٱلأُمورِ مِنَ ٱلمباحاتِ ، فذلكَ مِنْ قِبَلِ ٱلنَّفسِ وفكْرِها بما توسوسُ بهِ مِنْ أُمورِها ، وكذلكَ هـٰذا ينبغي ٱجتنابُهُ .

ـ ومنها : ما يخطُرُ مِنَ همَّةٍ مذمومةٍ وفِكرةٍ محظورةٍ في معصيةٍ مأزورة .

فإِذا ٱبتُليَ ٱلمصلِّي بهـٰذهِ ٱلمعاني في صلاتِهِ . . فقد ٱختبرَ في ذلكَ ، فعليهِ أَن يَعملَ في نفيهِ ولا يُصغي إِليه بعقلهِ ، فيستولي عليهِ ، ولا يُطاولهُ فيخرجهُ عن حدِّ ٱلذِّكْرِ وٱليقظةِ إِلىٰ مُسامَرةِ ٱلجهلِ وٱلغفلةِ ، وكلُّ عملٍ محذورٍ فٱلهمّةُ فيهِ محذورةٌ ، ونفيهُا فرضٌ ، وكلُّ عملٍ مباحٍ فٱلهمَّةُ فيهِ مباحةٌ ، ونفيهُا فضيلةٌ ، وما خطرَ بقلبهِ مِنَ ٱلخيراتِ ٱلمتأخِّرةِ فعلهُا فليعتقدِ ٱلنيَّةَ بذلكَ ، ثمَّ ليمضِ في صلاتِهِ ولا يشتغل بتدبيره كيف يكون؟ ومتى يكون؟ أكيف يكونُ فيهِ ، وعندَهُ إِذا كانَ ؟ فيفوتُهُ ٱلإقبالُ في ٱلحالِ بتدبير شأنهِ في ٱلمآلِ ، وهـٰذا هوَ ٱستراقٌ مِنَ ٱلعدوِّ عليهِ ، وإِلقاءٌ مِنْ خِدَعِهِ عليهِ ، فإِنْ جاهَدَ هـٰذا ٱلمصلِّي نفسَهُ عن مسامرةِ ٱلفكرةِ ، وقاتلَ عدوَّهُ في دفعِ وسواسِهِ في ٱلصَّدرِ . . كانَ مجاهداً في سبيلِ ٱللهِ ، مقاتلاً لمَنْ يليه مِنْ أَعداءِ ٱللهِ تعالىٰ ، فلَهُ أَجرانِ : أَجرُ ٱلصَّلاةِ للتَّقرُّبِ إِلىٰ ٱلكريمِ ، وأَجرُ ٱلمصابرةِ وٱلمحاربةِ لعدوِّهِ ٱلرَّجيم .

فهـٰذا حكمُ ٱلخواطرِ ، وبهِ يتَّضحُ كلامُ ٱلمصنّف رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ . « إتحاف » (١٤٨/٣) .

٢ـ ورجلٌ يتحرَّكُ لسانُهُ ، وقلبُهُ يتَّبِعُ ٱللِّسانَ ؛ فيسمَعُ ويفهَمُ منهُ كأنَّهُ يسمعُهُ مِنْ غيرِهِ ، وهـٰذهِ درجةُ أصحابِ ٱليمينِ .

٣ـ ورجلٌ يسبِقُ قلبُهُ [لسانَهُ] إلىٰ ٱلمعاني أوَّلاً ، ثُمَّ يخدِمُ ٱللِّسانُ قلبَهُ فيُترجِمُهُ ؛ فَفَرقٌ بينَ أَن يكونَ ٱللِّسانُ تَرجُمانَ ٱلقلبِ ، أَو أَنْ يكونَ مُعَلِّمَ ٱلقلبِ ، وٱلمقَرَّبونَ لسانُهم تَرجُمانٌ يَتْبَعُ ٱلقلبَ ولا يتبعُهُ ٱلقلبُ .

وتفصيلُ ترجمةِ ٱلمعاني : أنَّكَ إذا قُلتَ : ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمـٰنِ ٱلرَّحِيْمِ﴾ . . فٱنْوِ بهِ ٱلتَّبرُّكَ لابتداءِ ٱلقراءَةِ لِكلامِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وٱفهَمْ أَنَّ معناها أَنَّ ٱلأُمورَ كلَّها بٱللهِ تعالىٰ ، وأَنَّ ٱلمرادَ هاهنا بٱلاسمِ هوَ ٱلمسمَّىٰ .

فإذا كانتِ ٱلأُمورُ بٱللهِ تعالىٰ . . فلا جَرَمَ كانَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ، ومعناهُ أَنَّ ٱلشُّكْرَ للهِ تعالىٰ ، إذِ ٱلنِّعَمُ مِنَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ .

وَمَنْ يرىٰ مِنْ غيرِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ نِعمةً ، أَو يقصدُ غيرَ ٱللهِ تعالىٰ بشكرِهِ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ مُسَخَّرٌ مِنَ ٱللهِ تعالىٰ . . ففي تسميتهِ وتحميدِهِ نُقصانٌ بقدرِ ٱلتفاتِهِ إلىٰ غيرِ ٱللهِ تعالىٰ .

فإذا قُلتَ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ . . فأَحضِر في قلبِكَ أَنواعَ لُطفهِ ؛ لتَتَّضِحَ لكَ رحمتُهُ ، فينبعِثَ بهِ رجاؤُكَ ، ثمَّ ٱستشعِر مِنْ قلبكَ ٱلتَّعظيمَ وٱلخوفَ بقولكَ : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ .

أَمَّا ٱلعظمةُ : فلأنَّهُ لا مِلْكَ إلاَّ لَهُ ، وأَمَّا ٱلخوفُ : فلهولِ يومِ

ٱلجزاءِ وٱلحسابِ ٱلَّذي هوَ مالِكُهُ .

ثُمَّ جَدِّدِ ٱلإخلاصَ بقولِكَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ .

ثُمَّ جَدِّدِ ٱلعجزَ وٱلاحتياجَ وٱلتَّبَرُّؤَ عَنِ ٱلحَولِ وَٱلقُوَّةِ بقولِكَ : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ ، وتحقَّقْ أَنَّهُ مَا يُسِّرَتْ طاعتُكَ إلاَّ بإعانتهِ ، وأَنَّ لَهُ ٱلمِنَّةَ إِذْ وفَّقَكَ لطاعتِهِ ، وٱستخدمَكَ لعبادتِهِ ، وجَعَلَكَ أَهلاً لمناجاتهِ ، ولو حَرَمَكَ ٱلتَّوفيقَ . . لكُنتَ مِنَ ٱلمطرودِيْنَ معَ ٱلشَّيطانِ ٱلرَّجيمِ .

ثُمَّ إذا فرغتَ مِنَ ٱلتَّعوُّذِ ، ومِنْ قولِكَ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحيمِ ، ومن ٱلتَّحميدِ ، ومِنْ إِظهارِ ٱلحاجَةِ إِلىٰ ٱلإِعانةِ مُطلقاً . . فعيِّنْ سؤالَكَ ، فلا تطلُبْ إلاَّ أَهمَّ حاجاتِكَ[1] ، وقُلْ : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ٱلَّذي يَسوقُنا إِلىٰ جوارِكَ ، ويُفْضي بنا إِلىٰ مرضاتِكَ ، وزِدهُ شرحاً وتفصيلاً وتأْكيداً وٱستشهاداً بٱلَّذينَ أَفاضَ ٱللهُ عليهِمْ نعمةَ ٱلهدايةِ ، مِنَ ٱلنَّبيِّيْنَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ ، دونَ ٱلَّذينَ غَضِبْتَ عليهِم مِنَ ٱلكُفَّارِ ، وٱلزَّائغينَ مِنَ ٱليهودِ وٱلنَّصارَىٰ وٱلصَّابئينَ ، ثُمَّ ٱلتمسِ ٱلإجابَةَ[2] وقُلْ : (آمينَ) .

فإِذا تلوتَ ٱلفاتحةَ كذلكَ . . فعسىٰ أَنْ تكونَ ممَّنْ قالَ ٱللهُ تعالىٰ فيهم فيما أَخبرَ عنهُ ٱلنَّبيُّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ :

---

(١) أَي : ممّا يُناسبُ مقامَ ٱلتَّوفيقِ . « إتحاف » (٣/ ١٥٠) .

(٢) بكلِّ قلبكَ وجوارحكَ ، فٱلمعوَّلُ علىٰ ٱلإجابةِ وٱلقَبولِ .

« قَسَمْتُ ٱلصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِيْ نِصْفَيْنِ ، فنَصْفُهَا لِيْ ، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِيْ، وَلِعَبْدِيْ مَا سَأَلَ، يَقُوْلُ ٱلْعَبْدُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فَيَقُوْلُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ : حَمِدَنِيْ عَبْدِيْ وَأَثْنَىٰ عَلَيَّ ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِكَ : (سَمِعَ ٱللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) . . . »[1] ٱلحديثَ إلىٰ آخرِهِ .

فإنْ لَمْ يكُنْ لكَ مِنْ صلاتِكَ حَظٌّ سوىٰ ذِكْرِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ لكَ في جلالِهِ وعظمتهِ . . فناهيكَ بهِ غنيمةً ، فكيفَ بما ترجوهُ مِنْ ثوابِهِ وفضلهِ ؟!

وكذلكَ ينبغي أَنْ يَفْهَمَ ممَّا يقرؤُهُ مِنَ ٱلسُّورَةِ ، كما سيأْتي في كتابِ (تلاوةِ ٱلقرآنِ) ، فلا تَغْفُلْ عَنْ أَمرهِ ونهيهِ ، ووعدِهِ ووعيدِهِ ، ومواعظِهِ وأَخبارِ أَنبيائِهِ ، وذكرِ مِنَّتِهِ وإِحسانِهِ ، فلكلٍّ واحدٍ حَقٌّ .

فٱلرَّجاءُ حَقُّ ٱلوَعدِ ، وٱلخَوفُ حَقُّ ٱلوعيدِ ، وٱلعزمُ حَقُّ ٱلأَمرِ وٱلنَّهيِ ، وٱلاتِّعاظُ حَقُّ ٱلموعظةِ ، والشُّكْرُ حَقُّ ذِكْرِ ٱلمِنَّةِ ، وٱلاعتبارُ حَقُّ أَخبارِ ٱلأَنبياءِ .

ورُوِيَ : أَنَّ زُرارَةَ ٱبنَ أَبي أَوفىٰ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ٱنتهىٰ إلىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾[2] . . فخرَّ ميْتاً[3] .

---

(١) أخرجَهُ عن أَبي هريرةَ رضيَ ٱللهُ عنهُ مسلم (٣٩٥) ، والترمذي (٢٩٥٣) .
(٢) سورة المدثر : (٨) .
(٣) ذكرَهُ أبو نُعيمٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « الحليةِ » (٢/ ٢٥٨) .

وكانَ إبراهيمُ ٱلنَّخَعِيُّ[1] رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ إذا سَمِعَ قولَهُ تعـالـىٰ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[2] . . ٱضطـربَ حتّـىٰ تضطـرِبَ أوصالُه[3] .

وقالَ عبدُ ٱللهِ بنُ واقدٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : رأيتُ ٱبنَ عُمَرَ رضيَ ٱللهُ عنهُما يُصلِّي مَقْلُوّاً[4] ، وحُقَّ لَهُ أَنْ يحترِقَ قلبُهُ بوعدِ سَيِّدِهِ ووعيدِهِ ، فإنَّهُ عَبْدٌ ذليلٌ مُذْنِبٌ بينَ يَدي جبَّارٍ قاهرٍ .

وتكونُ هـٰذِهِ ٱلمعاني بحَسَبِ درجاتِ ٱلفهمِ ، ويكونُ ٱلفهمُ بحَسَبِ وُفورِ ٱلعلمِ وصفاءِ ٱلقلبِ ، ودرجاتُ ذلكَ لا تنحصِرُ ، وٱلصَّلاةُ مفتاحُ ٱلقلوبِ ، فيها تنكشفُ أَسرارُ ٱلكلماتِ ، فهـٰذا حَقُّ ٱلقراءَةِ ، وهوَ حَقُّ ٱلأذكارِ وٱلتَّسبيحاتِ أَيضاً ، ثُمَّ يراعي ٱلهيئةَ في ٱلقراءَةِ فيرتِّلُ ولا يَسْرُدُ ، فإنَّ ذلكَ أَيسرُ للتَّأَمُّلِ ، ويُفَرِّقُ بينَ نَغَماتهِ في آيةِ ٱلرَّحمةِ وٱلعذابِ ، وٱلوعدِ وٱلوعيدِ ، وٱلتَّحميدِ وٱلتَّعظيمِ .

كانَ ٱلنَّخَعِيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ إذا مَرَّ بمثلِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ مَا

---

(١) كذا في النسخ ، وفي بعضها : إبراهيمُ بنُ أَدهمٍ ، وٱللهُ أَعلمُ . « إتحاف » (٣/ ١٥٢) .

(٢) سورة الانشقاق : (١) .

(٣) أي : مفاصلَهُ . « إتحاف » (٣/ ١٥٢) .

(٤) أَي : علىٰ هيئةِ ٱلمَقْلُوِّ علىٰ ٱلنَّارِ . « إتحاف » (٣/ ١٥٢) .

ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ . . ﴾[1] . . يَغُضُّ صوتَهُ كالْمُسْتَحيي عَنْ أَنْ يذكرَهُ بكلِّ شيءٍ لا يليقُ بهِ .

ويُروىٰ : أَنَّهُ يُقالُ لصاحبِ ٱلقرآنِ : « اِقْرَأْ وَٱرْقَ ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِيْ ٱلدُّنْيَا »[2] .

وأَمَّا دوامُ ٱلقيامِ : فهوَ تنبيهٌ علىٰ إقامَةِ ٱلقلبِ معَ ٱللهِ تعالىٰ علىٰ نَعْتٍ واحدٍ مِنَ ٱلحضورِ .

قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ مُقْبِلٌ عَلَىٰ ٱلْمُصَلِّيْ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ »[3] .

وكما يَجبُ حراسةُ ٱلرَّأْسِ وٱلعينينِ عَنِ ٱلالتفاتِ إِلىٰ ٱلجهاتِ . . فكذلكَ يَجبُ حراسةُ ٱلسِّرِّ عَنِ ٱلالتفاتِ إِلىٰ غيرِ ٱللهِ تعالىٰ في ٱلصَّلاةِ .

فإِنِ ٱلتفتَ إِلىٰ غيرِهِ . . فذكِّرهُ باطِّلاعِ ٱللهِ تعالىٰ عليهِ ، وقُبْحِ ٱلتَّهاونِ بٱلمُناجىٰ عندَ غفلةِ ٱلمناجي ؛ ليعودَ إِليهِ ، وأَلْزِمِ ٱلخشوعَ للقلبِ ، فإِنَّ ٱلخَلاصَ عَنِ ٱلالتفاتِ باطناً وظاهراً . . ثمرةُ

---

(١) سورة المؤمنون : (٩١) .

(٢) قال ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أَخرجَهُ عنِ ٱبنِ عمرَ رضيَ ٱللهُ عنهمُا أبو داوودَ وٱلتِّرمذيُّ (٣٠٨١) .

(٣) قال ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : رواه عن أَبي ذرٍّ رضيَ ٱللهُ عنهُ أَبو داوود والنّسائيّ والحاكم .

ٱلخشوعِ ، ومهما خَشَعَ ٱلباطنُ . . خَشَعَ ٱلظَّاهِرُ .

قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ وقد رأَىٰ مُصَلِّياً يعبَثُ بلحيتهِ في ٱلصَّلاةِ ـ : «أَمَا إِنَّ هَـٰذَا لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ . . لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»[1] .

فإِنَّ الرَّعيةَ بحكمِ ٱلرَّاعي ؛ ولهـٰذَا وَرَدَ في ٱلدُّعاءِ : (اَللَّهُمَّ . . أَصلِحْ ٱلرَّاعي وٱلرَّعيةَ) ، وهوَ ٱلقلبُ وٱلجوارحُ .

وكانَ ٱلصِّدِّيقُ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ في صَلاتهِ كأَنَّهُ وَتِدٌ[2] ، وٱبنُ ٱلزُّبيرِ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ كأَنَّهُ عَمودٌ ، وبعضُهُم كانَ يسكُنُ في ركوعهِ بحيثُ تقعُ ٱلعصافيرُ عليهِ كأَنَّهُ جمادٌ .

وكلُّ ذلكَ يقتضيهِ ٱلطَّبْعُ بينَ يَدَيْ مَنْ يُعَظَّمُ مِنْ أَبناءِ ٱلدُّنيا ، فكيفَ لا يتقاضاهُ بينَ يَدَيْ مَلِكِ ٱلملوكِ عندَ مَنْ يَعرِفُ مَلِكَ ٱلملوكِ ؟!

ومَنْ يَطمئنُّ بينَ يَدَيْ غيرِ ٱللهِ خاشعاً ، ثُمَّ تَضطرِبُ أَطرافُهُ بينَ يَدَي ٱللهِ تعالىٰ[3] . . فذلكَ لقصورِ معرفتهِ عَنْ جلالِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وعَنِ ٱطِّلاعِهِ علىٰ سِرِّهِ وضميرِهِ .

وقالَ عِكْرِمَةُ مولىٰ ٱبنِ عباسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما في قولهِ تعالىٰ :

---

(١) سبقَ تخريجه .

(٢) وَتِد : ككتف ، جمعُهُ: أَوتادٌ ، شبهه به في صلابتهِ ورسوخهِ وعدمِ تميُّلهِ وٱلتفاته .

(٣) أي : عابثاً . « إتحاف » (٣/ ١٥٤) .

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[1] قالَ : قيامَهُ وركوعَهُ ، وسجودَهُ وجلوسَهُ .

أَمَّا ٱلرُّكوعُ وٱلسُّجودُ : فينبغي أَنْ تُجدِّدَ عندَهُما ذِكْرَ كبرياءِ ٱللهِ تعالىٰ ، وترفعَ يديكَ مُستجيراً بعفوِ ٱللهِ تعالىٰ مِنْ عقابِهِ ، ومُتَّبِعاً سُنَّةَ نبيِّهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، ثُمَّ تستأْنِفَ لَهُ ذُلّاً وتواضعاً بركوعِكَ ، وتجتهدَ في ترقيقِ قَلبكَ ، وتجديدِ خُشوعِكَ ، وتستشعِرَ ذلكَ ، وَعِزَّ مولاكَ ، وٱتِّضَاعَكَ[2] ، وعُلُوَّ ربِّكَ[3] ، وتستعينَ علىٰ تقريرِ ذلكَ في قلبِكَ بلسانِكَ . . فتسبِّحَ ربَّكَ ، وتشهدَ لَهُ بٱلعظمةِ ، وأَنَّهُ أَعظمُ مِنْ كُلِّ عظيمٍ[4] ، وتُكرِّرَ ذلكَ علىٰ قلبِكَ ؛ لتؤكِّدَهُ بٱلتَّكرارِ ، ثُمَّ ترتفعَ عَنْ ركوعِكَ راجياً أَنَّهُ أَرحمُ بكَ ، ومؤكِّداً للرَّجاءِ في نفسِكَ بقولِكَ : (سمعَ ٱللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) ؛ أَي : أَجابَ ٱللهُ لِمَنْ شَكَرَهُ ، ثُمَّ تُردِفُ ذلكَ بٱلشُّكْرِ ٱلمتقاضي للمزيدِ[5] ، فتقولُ : (ربَّنا لكَ ٱلحمدُ) ، وتُكثِرَ ٱلحمدَ بقولِكَ : (ملءَ ٱلسَّماواتِ وملءَ ٱلأَرضِ) ، ثُمَّ تَهوِيْ إِلىٰ

---

(١) سورة الشعراء : (٢١٨) .

(٢) أَي : بوصفِ ٱلعبوديَّةِ . « إتحاف » (٣/ ١٥٤) .

(٣) أَي : بالرُّبوبيَّةِ .

(٤) بل كلُّ عظيمٍ عندَ عظمتهِ سبحانَهُ وتعالىٰ يتلاشىٰ ويَضمحلُّ . « إتحاف » (٣/ ١٥٤) .

(٥) أَشارَ بذلكَ إِلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ١٤] .

ٱلسُّجودِ ، وهوَ أَعلىٰ درجاتِ ٱلاستكانَةِ ، فتمكِّنَ أَعَزَّ أَعضائِكَ ؛ وهوَ ٱلوجْهُ مِنْ أَذَلِّ ٱلأَشياءِ ، وهوَ ٱلتُّرابُ ، وإِنْ أَمكنَكَ أَلاَّ تجعلَ بينَهُما حائِلاً فتسجُدَ علىٰ ٱلأَرضِ . . فٱفعلْ ، فإِنَّهُ أَجلَبُ للخضوعِ ، وأَدَلُّ علىٰ ٱلذُّلِّ .

وإِذا وضعْتَ نفسَكَ موضعَ ٱلذُّلِّ . . فٱعلَمْ أَنَّكَ أَوضعتَها مَوْضِعَها ، ورَدَدْتَ ٱلفرعَ إِلىٰ أَصلهِ ، فإِنَّكَ مِنَ ٱلتُّرابِ خُلِقْتَ ، وإِليهِ رُدِدْتَ ، فعندَ هٰذا جَدِّد علىٰ قلبِكَ عظمةَ ٱللهِ تعالىٰ ، وقُلْ : (سبحانَ ربِّيَ ٱلأَعلىٰ) ثلاثاً ، وأَكِّدْهُ بِٱلتَّكرارِ ، فإِنَّ ٱلكَرَّةَ ٱلواحدةَ ضعيفةُ ٱلأَثرِ .

وإِذا رَقَّ قلبُكَ وظهرَ ذلكَ[1] . . فَلْيَصدُقْ رجاؤُكَ في رَحمةِ ربِّكَ ، فإِنَّ رحمةَ ٱللهِ تعالىٰ تتسارَعُ إِلىٰ ٱلضَّعفِ وٱلذُّلِّ ، لا إِلىٰ ٱلتَّكبُّرِ وٱلبَطَرِ ، وٱرفعْ رأْسَكَ مكبِّراً ، وسائِلاً حاجتَكَ ، وقائلاً : (رَبِّ ٱغفِر وٱرحَمْ ، وتجاوَزْ عمَّا تَعلَم)[2] ، وما أَردتَ مِنَ ٱلدُّعاءِ ، ثُمَّ أَكِّدِ ٱلتَّواضُعَ بِٱلتَّكرارِ ، وَعُد إِلىٰ ٱلسُّجودِ ثانياً كذلكَ .

وأَمَّا ٱلتَّشَهُّدُ : فإِذا جلستَ لَهُ . . فٱجلِسْ مُتأَدِّباً ، وصَرِّح بأَنَّ جميعَ ما تُدلي بِهِ مِنَ ٱلصَّلواتِ وٱلطَّيِّباتُ ؛ أَي : ٱلأَخلاقِ

---

(١) بإثباتِ ٱلعلوِّ ٱلمطلَقِ لربِّكَ جل وعزّ . « إتحاف » (٣/ ١٥٦) .

(٢) فإنَّكَ أَنتَ ٱلأَعزُّ ٱلأَكرمُ .

ٱلطَّاهِرَةِ للهِ تعالىٰ ، وكذلكَ ٱلمُلْكُ للهِ تعالىٰ ، وهوَ معنىٰ ٱلتَّحيَّاتِ[1] .

وأَحضِر في قلبِكَ ٱلنَّبيَّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وشخْصَهُ ٱلكريمَ ، وقُل : (السَّلامُ عليكَ أَيُّها ٱلنَّبيُّ ورحمةُ ٱللهِ وبركاتُهُ) ، وَلْيَصْدُقْ أَمَلُكَ في أَنَّهُ يَبْلُغُهُ ، وَيَرُدُّ عليكَ ما هوَ أَوفَىٰ منهُ ، ثُمَّ تُسلِّمَ علىٰ نفسِكَ ، وعلىٰ جميعِ عبادِ ٱللهِ ٱلصَّالحينَ ، وتأْمُلُ أَنْ يَرُدَّ ٱللهُ سبحانَهُ عليكَ سلاماً وافياً بعددِ عبادِ ٱللهِ ٱلصَّالحينَ .

ثُمَّ تشهدَ للهِ تعالىٰ بٱلواحدانيةِ ، ولمحمَّدٍ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ بٱلرِّسالةِ ، مُجَدِّداً عهدَ ٱللهِ تعالىٰ بإِعادةِ كلمتي ٱلشَّهادةِ ، ومستأنِفاً للتَّحصُّنِ بها .

ثُمَّ ٱدعُ في آخِرِ صلاتِكَ بٱلدُّعاءِ ٱلمأْثورِ ، معَ ٱلتَّواضعِ وٱلخُشوعِ وٱلضَّراعَةِ وٱلابتهالِ وصِدقِ ٱلرَّجاءِ بٱلإِجابةِ ، وأَشرِكْ في دُعائِكَ والدَيْكَ وسائرَ ٱلمؤمنينَ .

وٱقصُد عندَ ٱلتَّسليمِ ٱلسَّلامَ علىٰ ٱلملائكةِ وٱلحاضِرينَ ، وٱنْوِ بِهِ خَتْمَ ٱلصَّلاَةِ ، وٱسْتَشعِر شكرَ ٱللهِ تعالىٰ علىٰ توفيقهِ إِيَّاكَ لإِتمامِ

---

(١) التحيّاتُ ـ جمعُ تحيَّة ـ : وهيَ السَّلامُ ، أَوِ ٱلبقاءُ ، أَوِ ٱلمُلْكُ ، أَوِ ٱلعظمةُ ؛ أَي : أَنواعُ ذلكَ كلِّهِ ، وٱلمصنِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ٱقتصرَ علىٰ معنىً واحدٍ . « إتحاف » (٣/ ١٥٨) .

هـٰذِهِ ٱلطَّاعَةِ ، وتوهَّمْ أَنَّكَ مودِّعٌ لِصلاتِكَ هـٰذه ، وأَنَّكَ لا تعيشُ لِمثلِها .

قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لِلَّذي وَصَّاهُ : « صَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ »[1] .

ثُمَّ أَشْعِر قلبكَ ٱلوَجَلَ وٱلحياءَ مِنَ ٱلتَّقصيرِ في ٱلصَّلاةِ ، وخَفْ أَلاَّ تُقْبَلَ صلاتُكَ ، وأَنْ تَكونَ ممقوتاً بذنبٍ ظاهرٍ أَو باطنٍ . . فتُرَدَّ صلاتُكَ في وجهِكَ ، وترجو معَ ذلكَ أَنْ يقبلَها ٱللهُ بفضلهِ وكرمهِ .

وكانَ يحيىٰ بنَ وثَّابٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ إِذا صلَّىٰ . . مَكَثَ ما شاءَ ٱللهُ ، تُعرَفُ عليهِ كآبَةُ ٱلصَّلاةِ .

وكانَ إِبراهيمُ [ٱلنَّخَعِيُّ] رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ يمكُثُ بعدَ ٱلصَّلاةِ ساعةً كأَنَّهُ مريضٌ .

وهـٰذا تفصيلُ صلاةِ ٱلخاشعينَ ٱلَّذينَ هُمْ علىٰ صلاتِهِم يُحافظونَ[2] ، وٱلَّذينَ هُمْ علىٰ صلاتِهِم دائمونَ[3] ، وٱلَّذينَ هُمْ يُناجونَ ٱللهَ علىٰ قَدْرِ ٱستطاعَتِهِمْ في ٱلعبوديَّةِ .

---

(١) سبقَ تخريجه .

(٢) إشارةً إِلىٰ قولهِ تعالىٰ : في مطلع سورة ٱلمؤمنون ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩].

(٣) قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج : ٢٣] .

فليَعرِضِ ٱلإنسانُ نفسَهُ علىٰ هـٰذهِ ٱلصَّلاةِ ، فبِٱلقدرِ ٱلَّذي تيسَّرَ لَهُ مِنْهُ . . ينبغي أَنْ يَفرَحَ بهِ ، وعلىٰ قَدرِ ما يفوتُهُ منها . . ينبغي أَنْ يتحسَّرَ ، وفي مُداومَةِ ذلكَ ينبغي أَن يجتهدَ .

وأَمَّا صلاةُ ٱلغافلينَ : فإِنَّها مُخطِرَةٌ ، إلاَّ أَنْ يتغمَّدَهُمُ ٱللهُ ٱلكريمُ برحمتِهِ ، وٱلرَّحمةُ واسعةٌ ، وٱلكَرَمُ فائِضٌ ، فنسأَلُ ٱللهَ تعالىٰ أَنْ يَتغمَّدَنا برحمتِهِ ، ويغمُرَنا بمغفرتِهِ ، إِذْ لا وسيلةَ لنا إلاَّ ٱلاعترافُ بٱلعجزِ عَنِ ٱلقيامِ بطاعَتِهِ .

وٱعلَمْ : أَنَّ تخليصَ ٱلصَّلاةِ عَنِ ٱلآفاتِ ، وإِخلاصَها لِوَجهِ ٱللهِ تعالىٰ ، وأَداءَها بٱلشُّروطِ ٱلباطِنَةِ ٱلَّتي ذكرناها ، مِنَ ٱلخشوعِ وٱلتَّعظيمِ وٱلحياءِ . . سببٌ لحضورِ أَنوارٍ في ٱلقلبِ ، تكونُ تلكَ ٱلأَنوارُ مفاتيحَ علومِ ٱلمكاشفةِ .

فأَولياءُ ٱللهِ تعالىٰ ٱلمُكاشَفونَ بملكوتِ ٱلسَّماواتِ وٱلأَرضِ وأَسرارِ الرُّبوبيَّةِ ، إِنَّما يُكاشَفونَ بها في ٱلصَّلاةِ ، لا سيَّما في ٱلسُّجودِ ، إِذْ يقتربُ ٱلعبدُ بٱلسُّجودِ مِنْ رَبِّهِ ، ولذلكَ قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾[1] .

وتكونُ مُكاشفةُ كُلِّ مُصَلٍّ علىٰ قدرِ صفائِهِ عَنْ كُدوراتِ ٱلدُّنيا .

---

(١) سورة العلق : (١٩) .

ويختلفُ ذلكَ بٱلقوَّةِ وٱلضَّعفِ ، في ٱلقِلَّةِ وٱلكثرةِ ، وبٱلجلاءِ وٱلخفاءِ ، حتَّىٰ ينكشِفَ لبعضِهِمُ ٱلشَّيءُ بعينِهِ ، وينكشِفَ لبعضِهِمُ ٱلشَّيءُ بمثالٍ ، كما كُوشِفَ بعضُهمْ بٱلدُّنيا في صورةِ جيفةٍ[1] ، وٱلشَّيطانِ في صورةِ كلبٍ جاثمٍ عليها يدعو إليها .

ويختلِفُ أيضاً بما فيهِ ٱلمكاشفةُ ، فبعضُهُمْ ينكشِفُ لَهُ مِنْ صفاتِ ٱللهِ تعالىٰ وجمالِهِ ، ولبعضِهِمْ مِنْ أفعالِهِ ، ولبعضِهِمْ مِنْ دقائقِ أَسرارِ علومِ ٱلمُعاملةِ .

ويكونُ لتعيينِ تلكَ ٱلمعاني في كُلِّ وقتٍ . . أَسبابٌ خفيَّةٌ لا تُحصىٰ ، وأَشَدُّها مناسبةً : ٱلهِمَّةُ[2] ، فإنَّها إذا كانتْ مَصروفةً إلىٰ شيءٍ معيَّنٍ . . كانَ ذلكَ الشَّيءُ أَولىٰ بٱلانكشافِ ، ولمَّا كانتْ هـٰذِهِ ٱلأُمورُ لا تتراءىٰ إلاَّ في ٱلمِرآةِ الصَّقيلَةِ ، وكانتِ ٱلمرآةُ كلُّها صَدِئَةً ، وٱحتجبتْ عنها ٱلهدايةُ ، لا لبخلٍ مِنْ جهةِ ٱلمُنعمِ بٱلهدايةِ ، بل بخُبثِ تراكُمِ ٱلصَّدإِ علىٰ مَصَبِّ ٱلهدايةِ[3] . .

---

(١) ويشهدُ في ذلكَ ٱلأثرُ : (ٱلدُّنْيَا جِيْفَةٌ ، وَطُلاَّبُهَا كِلاَبٌ) .
قالَ ٱلشَّافعيُّ :

وَمَنْ يَذُقِ ٱلدُّنْيَا فَإِنِّيْ طَعِمْتُهَا ... وَسِيْقَ إِلَيَّ عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
وَمَا هِيَ إِلاَّ جِيْفَةٌ مُسْتَحِيْلَةٌ ... عَلَيْهَا كِلاَبٌ هَمُّهُنَّ ٱجْتِذَابُهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا . . كُنْتَ سِلْماً لأَهْلِهَا ... وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَازَعَتْكَ كِلاَبُهَا

(٢) وهي توجّه ٱلقلب بجميع قواه الرُّوحانية . « إتحاف » (٣/ ١٦٣) .
(٣) وٱلصَّدأُ : ٱلرَّانُ بسببِ ٱلذُّنوبِ ، ومصبُّ ٱلهدايةِ : ٱلقلبُ .

تسارعتِ ٱلألسُنُ إلىٰ إنكارِ مثلِ ذلكَ ، إذِ ٱلطَّبعُ مجبولٌ علىٰ إنكارِ غيرِ ٱلحاضرِ ، ولَو كانَ للجنينِ عقلٌ . . لأنكرَ مكانَ وجودِ ٱلإنسانِ في مُتَّسَعِ ٱلهوىٰ ، ولو كانَ للطِّفلِ تمييزٌ ما . . رُبَّما أَنكَرَ ما يزعمُ ٱلعقلاءُ إدراكَهُ مِنْ ملكوتِ ٱلسَّماواتِ وٱلأَرضِ ، وهـٰكذا ٱلإنسانُ في كُلِّ طورٍ يكادُ يُنكِرُ ما بعدَهُ ، ومَنْ أنكرَ طورَ ٱلولايةِ . . لَزِمَهُ أَنْ يُنكِرَ طورَ ٱلنُّبوَّةِ ، وقد خُلِقَ ٱلخَلْقُ أَطواراً ، فلا ينبغي أَنْ يُنكِرَ كُلُّ واحدٍ ما وراءَ درجتِهِ .

نَعَمْ ، لَمَّا طلبوا هـٰذا مِنَ ٱلمجادلةِ وٱلمباحَثةِ ٱلمشوِّشَةِ ، ولَمْ يطلبوهُ مِنْ تصفيةِ ٱلقلبِ عمَّا سوىٰ ٱللهِ تعالىٰ . . فقدوهُ وأَنكروهُ ، ومَنْ لَمْ يكُنْ مِنْ أَهلِ ٱلمكاشفَةِ . . فلا أَقلَّ مِنْ أَنْ يُؤمِنَ بٱلغيبِ ويُصدِّقَ بهِ ، إلىٰ أَنْ يُشاهدَهُ بِٱلتَّجربَةِ .

ففي ٱلخبرِ : « إِنَّ ٱلْعَبْدَ إِذَا قَامَ إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ . . رَفَعَ ٱللهُ تَعَالَىٰ ٱلْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَوَاجَهَهُ بِوَجْهِهِ ٱلْكَرِيْمِ ، وَقَامَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ مِنْ لَدُنِ مَنْكِبَيْهِ إِلَىٰ ٱلْهَوَاءِ ، يُصَلُّوْنَ بِصَلَاتِهِ ، وَيُؤَمِّنُوْنَ عَلَىٰ دُعَائِهِ ، وَإِنَّ ٱلْمُصَلِّيَ لَيُنْثَرُ عَلَيْهِ ٱلْبِرُّ مِنْ عَنَانَ ٱلسَّمَاءِ إِلَىٰ مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، وَيُنَادِيْهِ مُنَادٍ : لَوْ عَلِمَ ٱلْمُنَاجِيْ مَنْ يُنَاجِيْ . . مَا ٱلْتَفَتَ ، وَإِنَّ أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ تَنْفَتِحُ لِلْمُصَلِّيْنَ ، وَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يُبَاهِيْ مَلَائِكَتَهُ بِصِدْقِ ٱلْمُصَلِّيْ »[1] .

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ كما في « ٱلإتحاف » (٣/ ١٦٤) : لم أجدهُ . ٱلعَنانُ : ما يبدو=

ففتحُ أَبوابِ ٱلسَّماءِ ومواجهةُ ٱللهِ تعالىٰ إِيَّاهُ بوجههِ . . كنايةٌ عَنِ ٱلكشفِ ٱلَّذي ذكرناهُ .

وفي ٱلتَّوراةِ مكتوبٌ[1] : ﴿يَا ٱبْنَ آدمَ . . لاَ تَعْجَزْ أَنْ تَقُوْمَ بَيْنَ يَدَيَّ مُصَلِّياً بَاكِياً . . فَإِنِّيْ أَنَا ٱللهُ تَعَالَىٰ ٱلَّذِيْ ٱقْتَرَبَ مِنْ قَلْبِكَ ، وَبِٱلْغَيْبِ رَأَيْتَ نُوْرِيْ﴾ .

قالَ : وكنَّا نرىٰ أَنَّ تلكَ ٱلرِّقَّةَ وٱلبُكاءَ وٱلفتوحَ وٱلفرحَ ٱلَّذي يجِدُهُ ٱلمُصلِّي في قلبِهِ . . مِنْ دُنُوِّ ٱلرَّبِّ تعالىٰ لاقترابِهِ مِنَ ٱلقلبِ ، وإِذا لَمْ يكُنْ هـٰذا الدُّنُوُّ هوَ ٱلقُربَ بٱلمكانِ . . فلا معنىٰ لَهُ إِلاَّ ٱلدُّنُوُّ بٱلهدايةِ وٱلرَّحمةِ وكَشْفِ ٱلحجابِ .

ويُقالُ : إِنَّ ٱلعبدَ إِذا صَلَّىٰ ركعتينِ . . عَجِبَتْ منهُ عشرةُ صنوفٍ مِنَ ٱلملائكةِ ، كُلُّ صنفٍ منهُم عَشَرَةُ آلافٍ ، وباهىٰ ٱللهُ بهِ مئةَ أَلفِ مَلَكٍ .

وذلكَ أَنَّ ٱلعبدَ قد جَمَعَ في ٱلصَّلاةِ بينَ ٱلقيامِ وٱلقُعودِ وٱلرُّكوعِ وٱلسُّجودِ ، وقد فُرِّقَ ذلكَ علىٰ أَربعينَ أَلفِ مَلَكٍ .

فٱلقائمونَ لا يركعونَ إِلىٰ يَومِ ٱلقيامةِ ، وٱلسَّاجدونَ لا يَرفعونَ إِلىٰ يومِ ٱلقيامةِ ، وهـٰكذا ٱلرَّاكعونَ وٱلقاعدونَ ، فإِنَّ ما رَزَقَ ٱللهُ

= لكَ مِنَ السَّماءِ إِذا نظرتَ إِليها ، وٱلعنانُ أَيضاً : السَّحابُ ، وعَنانُ كلِّ شيءٍ : ناصيتهُ اهـ . « المعجم الوسيط » (٢/ ٦٥٦) .

(١) وكذا ٱلنصُّ في « قوتِ ٱلقلوبِ » .

ٱلملائكةَ مِنَ ٱلقُربِ وٱلرُّتبةِ . . لازمٌ لَهُمْ مستمِرٌّ علىٰ حالٍ واحدٍ ، لا يَزيدُ ولا يَنقصُ ، ولذلكَ قالوا : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴾[1] .

وفارقَ ٱلإنسانُ ٱلملائكةَ في ٱلتَّرقِّي مِنْ درجةٍ إلىٰ درجةٍ ، فإنَّهُ لا يزالُ يتقرَّبُ إلىٰ ٱللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فيستفيدُ بهِ مَزيداً ، وبابُ ٱلمزيدِ مَسدودٌ عليهم[2] ، وليسَ لكلٍّ واحدٍ إلاَّ رتبتُهُ ٱلَّتي هوَ واقِفٌ عليها ، وعبادتُهُ ٱلَّتي هوَ مشغولٌ بها ، لا يَنتقِلُ إلىٰ غيرِها ولا يَفْتُرُ عنها . ﴿ . . لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾[3] .

ومفتاحُ مَزيدِ ٱلدَّرجاتِ هيَ ٱلصَّلواتُ ، قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾[4] .

فمدَحَهُمْ بعدَ ٱلإيمانِ بصلاةٍ مخصوصةٍ ، وهيَ ٱلمقرونةُ بٱلخشوعِ .

ثُمَّ خَتَمَ أَوصافَ ٱلمفلحينَ أَيضاً فقالَ في آخرِها : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾[5] .

---

(١) سورة الصافات : (١٦٤) .
(٢) أي : علىٰ ٱلملائكةِ عليهمُ ٱلسَّلام .
(٣) سورة الأنبياء : (١٩ـ٢٠) .
(٤) سورة المؤمنون : (١ـ٢) .
(٥) سورة المؤمنون : (٩) .

ثُمَّ قالَ تعالىٰ في ثَمَرَةِ تلكَ ٱلصِّفاتِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] .

فوصفَهُمْ بِٱلفلاحِ أَوَّلاً ، وبِوِراثةِ ٱلفِردَوسِ آخِراً .

وما عندي أَنَّ هَذْرَمَةَ ٱللِّسانِ[2] معَ غَفْلَةِ ٱلقَلبِ . . تنتهي درجتُهُ إِلىٰ هـٰذا ٱلحَدِّ ، ولذلكَ قالَ ٱللهُ تعالىٰ في وَصفِ أَضدادِهِمْ : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[3] .

وٱلمصلُّونَ : هُمْ ورثةُ ٱلفردوسِ ، وهُمُ ٱلمشاهِدونَ لنورِ ٱللهِ تعالىٰ ، وٱلمتنعِّمونَ بدنوِّهِ وقُربهِ مِنْ قلوبِهِمْ .

نسأَلُ ٱللهَ أَنْ يَجعلَنا منهُم ، وأَنْ يُعيذَنا مِنْ عقوبةِ مَنْ تزيَّنَتْ أَقوالُهُ ، وقَبُحَتْ أَفعالُهُ ، إِنَّهُ ٱلكريمُ ٱلمنَّانُ ، ٱلقديمُ ٱلإحسانِ .

* * *

---

(١) سورة المؤمنون : (١٠ـ١١) .

(٢) أَي : سُرعتَهُ بحيثُ يصيرُ غيرَ مفهومٍ .

(٣) سورة المدثر : (٤٢ـ٤٣) .

حكاياتٌ وأَخبارٌ في صَلاةِ ٱلخاشعينَ

ٱعلَمْ : أَنَّ ٱلخشوعَ ثمرةُ ٱلإيمانِ ، ونتيجةُ ٱليقينِ ٱلحاصِلِ بجلالِ ٱللهِ سبحانَهُ .

ومَنْ رُزِقَ ذلكَ . . فإِنَّهُ يكونُ خاشعاً في ٱلصَّلاةِ وفي غيرِها ، بَلْ في جَلَواتِهِ وخَلَواتِهِ ، وفي بيتِ ٱلماءِ عندَ قضاءِ ٱلحاجَةِ ، فإِنَّ مُوجِبَ ٱلخشوعِ . . معرفةُ ٱطِّلاعِ ٱللهِ تعالىٰ علىٰ ٱلعبدِ ، ومعرفةُ جلالِهِ ، ومعرفةُ تَقْصيرِ ٱلعبدِ ، فَمِنْ هٰذهِ ٱلمعارفِ يتولَّدُ ٱلخُشوعُ ، وليسَتْ مختصَّةً بٱلصَّلاةِ ، ولذلكَ رُوِيَ عَنْ بعضِهِم : (أَنَّهُ لَمْ يرفَعْ رأْسَهُ إِلىٰ ٱلسَّماءِ أَربعينَ سنةً حياءً مِنَ ٱللهِ وخشوعاً لَهُ) .

وكانَ ٱلرَّبيعُ بنُ خُثَيمٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ مِنْ شِدَّةِ غَضِّهِ لِلبَصرِ وإِطراقِهِ . . يَظنُّ بعضُ ٱلنَّاسِ أَنَّهُ أَعمىٰ ، وكانَ يختلفُ إِلىٰ منزلِ ٱبنِ مَسعودٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ عشرينَ سنةً ، فإِذا رأَتْهُ جاريتُهُ . . قالتْ لابنِ مسعودٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ : صديقُكَ ذلكَ ٱلأَعمىٰ قد جاءَ ، وكانَ يضحَكُ ٱبنُ مسعودٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ قولِها ، وكانَ إِذا دَقَّ ٱلبابَ . . تخرجُ إِليهِ ٱلجاريةُ ، فتراهُ مُطرِقاً غاضّاً بصرَهُ .

وكانَ ٱبنُ مسعودٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ إذا نظرَ إليهِ . . يقولُ : (﴿ . . وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[1] ، أَمَا وٱللهِ لو رآكَ مُحَمَّدٌ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . لَفَرِحَ بِكَ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (لأَحَبَّكَ)[2]

ومشىٰ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ذاتَ يومٍ معَ ٱبنِ مسعودٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ إلىٰ ٱلحدَّادِيْنَ ، فلمَّا نظرَ إلىٰ ٱلأكيارِ[3] تُنفَخُ ، وإلىٰ ٱلنِّيرانِ تلتهبُ . . صُعِقَ وَخَرَّ مَغْشياً عليهِ إلىٰ ٱلسَّاعةِ ٱلَّتي صُعِقَ فيها مِنَ ٱلغَدِ ، وفاتَتْهُ خمسُ صلواتٍ : (ٱلصُّبحُ ، وٱلظُّهْرُ ، وٱلعصرُ ، وٱلمغربُ ، وٱلعِشاءُ) ، وٱبنُ مسعودٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ عندَ رأسِهِ يقولُ : (وٱللهِ هـٰذا هُوَ ٱلخوفُ)[4] .

وكانَ ٱلرَّبيعُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ يقولُ : (ما دخلتُ في صلاةٍ قَطُّ فأَهمَّني فيها إلاَّ ما أَقولُ وما يقالُ لي)[5] .

وكان عامرُ بنُ عبدِ ٱللهِ [بنِ ٱلزُّبيرِ بنِ ٱلعوَّامِ] رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ خاشِعيْ ٱلمُصَلِّينَ ، وكانَ إذا صَلَّىٰ . . ضَرَبَتِ ٱبْنَتُهُ آمنةُ

---

(١) سورة الحج : (٣٤) .
(٢) الخبر في « قوت ٱلقلوبِ » ، و« عوارِفِ ٱلمعارِفِ » .
(٣) ٱلأَكيار ـ جمعُ كيرٍ ـ : جهازٌ مِنْ جِلْدٍ أَو نحوِهِ يستخدمُهُ ٱلحدَّادُ وغيرُهُ للنَّفخِ في ٱلنَّارِ لإذكائِها . « المعجم الوسيط » (٢/ ٨٣٩) .
(٤) وكذا في « قوت ٱلقلوب » (١/ ١٩٨) .
(٥) وكذا جاء في « قوتِ ٱلقلوبِ » ، وفي « عوارِفِ ٱلمعارِفِ » .

بٱلدُّفِّ ، ويتحدَّثُ ٱلنِّساءُ بما يُرِدنَ في ٱلبيتِ ، ولَمْ يكُنْ يَسمعُ ذلكَ ولا يَعْقِلُه[1] .

وقيلَ لَهُ ذاتَ يومٍ : هل تحدِّثُ نفسَكَ في ٱلصَّلاةِ بشيءٍ ؟ قالَ : (نَعَمْ ، بوقوفي بينَ يدي ٱللهِ تعالىٰ ، ومُنصرفي إلىٰ إحدىٰ ٱلدَّارَيْنِ) ، قيلَ : فهَل تجدُ شيئاً ممَّا يجدُ ٱلنَّاسُ مِنْ أُمورِ ٱلدُّنيا ؟ قالَ : (لا ، لأَنْ تَخْتَلِفَ ٱلأَسِنَّةُ[2] فيَّ . . أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَجِدَ في ٱلصَّلاةِ ما يَجدونَ)[3] .

وكانَ يقولُ : (لو كُشِفَ ٱلغِطاءُ . . ما ازددتُ يقيناً)[4] .

وقد كانَ مُسلِمُ بنُ يَسارٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ منهُم ، وقد نَقلْنا أَنَّهُ لَمْ يشعُرْ بِسُقوطِ ٱسطوانةٍ في ٱلمَسجِدِ[5] .

وتآكلَ طَرَفٌ مِنْ أَطرافِ بعضِهم ، وٱحتيجَ إلىٰ ٱلقطعِ فلَمْ

---

(١) أَي : لخشوعهِ في ٱلصَّلاةِ ، وهوَ في « قوتِ ٱلقلوبِ » (٢/ ١٩٨) .

(٢) الأَسِنَّةُ : ٱلرِّماحُ .

(٣) وهوَ في « قوتِ ٱلقلوبِ » (٢/ ١٩٨) ، و« عوارفِ ٱلمعارِفِ » ، وهٰكذا كانَ ٱلصَّالحونَ يَرَوْنَ أَنَّ ٱلغفلةَ وٱلذَّنبَ عِقابٌ أَشدُّ مِنْ نارِ ٱلجحيمِ ؛ لأَنَّهُم لا يُطيقونَ ٱلغفلةَ عن حبيبِهم ، ويَرَوْنَ نارَ ٱلبعدِ أَشدَّ إحراقاً مِنْ نارِ ٱلجحيمِ .

(٤) وأورده صاحب « قوتِ ٱلقلوبِ » (٢/ ١٩٨) ، وٱلمشهور أَنَّهُ مِنْ قولِ عليٍّ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ .

(٥) بجامع ٱلبصرةِ .

يُمَكِّنْ منهُ ، فقيلَ : (إنَّهُ في ٱلصَّلاةِ لا يَحُسُّ بما يَجري عليهِ) ، فقُطِعَتْ وهوَ في ٱلصَّلاةِ[1] .

وقالَ بعضُهم : (الصَّلاَةُ مِنَ ٱلآخرةِ ، فإذا دخَلْتُ في ٱلصَّلاَةِ . . خَرَجتُ مِنَ ٱلدُّنيا)[2] .

وقيلَ لآخَرَ : هلْ تُحدِّثُ نفسَكَ في ٱلصَّلاةِ بشيءٍ مِنَ ٱلدُّنيا ؟ قال : (لا ، لا في ٱلصَّلاةِ ، ولا في غيرِها)[3] .

وسُئِلَ بعضُهم : هل تذكُر في ٱلصَّلاةِ شيئاً ؟ قالَ : (وهلْ شيءٌ أَحبُّ إليَّ مِنَ ٱلصَّلاَةِ فأَذْكُرَهُ فيها)[4] .

وكانَ أَبو ٱلدَّرداءِ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ يقولُ : (مِنْ فِقْهِ ٱلرَّجُلِ : أَنْ يَبدأَ بحاجتِهِ قَبْلَ دُخولِهِ في ٱلصَّلاَةِ ؛ ليدخُلَ في ٱلصَّلاَةِ وقَلبُهُ فارغٌ)[5] .

---

(١) المرادُ بهِ : عروةُ بنُ ٱلزُّبيرِ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ وقد وقعت ٱلأَكَلَةُ في رِجلهِ ، فقيلَ لَهُ : أَلا ندعو لكَ طبيباً؟ قالَ : إنْ شئتم ، فجاءَ ٱلطَّبيبُ فقالَ : أَسقيك شراباً يزولُ فيهِ عقلُكَ . فقالَ : ٱمضِ لشأْنِكَ ، ما ظننتُ أَنَّ خَلْقاً يَشربُ شراباً يزولُ فيهِ عقلُهُ حتَّىٰ لايعرفَ ربَّهُ ، قال : فوضعَ ٱلمنشارَ على رُكبتهِ ٱليسرىٰ ونحنُ حولَهُ وهوَ يُصلِّي ، فما سمعنا لَهُ حِسّاً ، فلمَّا قطعناها . . جعلَ يقولُ : (لَئِنْ أَخذتَ لقد أَبقيتَ ، ولَئِنْ ٱبتليتَ لَقد عافيتَ) . « إتحاف » (٣/ ١٦٨).

(٢) كذا في « قوتِ ٱلقلوبِ » (٢/ ١٩٨) .

(٣) كذا في « قوتِ ٱلقلوبِ » (٢/ ١٩٨) و« عوارفِ ٱلمعارِفِ » .

(٤) وكذا جاء في « قوتِ ٱلقلوبِ » .

(٥) أَي: ذلكَ مِنْ فهمهِ في ٱلدِّينِ، وٱتِّباعهِ طريقَ صالح ٱلمسلمينَ. «إتحاف» (٣/ ١٦٩). =

وكانَ بعضُهُم يُخَفِّفُ ٱلصَّلاةَ خيفةَ ٱلوسواسِ .

ورُوِيَ : أَنَّ عمَّارَ بنَ ياسرٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ صَلَّىٰ صلاةً فأَخفَّها ، فقيلَ : خفَّفتَ يا أَبا ٱليقظانِ ؟ فقالَ : (هَلْ رأيتموني نقصتُ مِنْ حدودِها شيئاً) ؟ قالوا : لا ، قالَ : (فإِنِّي قد بادرتُ سهوَ ٱلشَّيطانِ ، إِنَّ رسولَ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ : « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُصَلِّيْ ٱلصَّلاَةَ فَلاَ يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا نِصْفُهَا ، وَلاَ ثُلُثُهَا ، وَلاَ رُبْعُهَا ، وَلاَ خُمْسُهَا ، وَلاَ سُدُسُهَا ، وَلاَ عُشْرُهَا »[1] .

وكانَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يقولُ : « إِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاَتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا »)[2] .

ويقالُ : إِنَّ طلحةَ وٱلزُّبيرَ وطائفةً مِنَ ٱلصَّحابةِ رِضوانُ ٱللهِ تعالىٰ عليهِم أَجمعينَ كانوا أَخفَّ ٱلنَّاسِ صلاةً ، وقالوا : (نُبَادِرُ بها وسوسةَ ٱلشَّيطانِ) .

ورُوِيَ : أَنَّ عُمرَ بنَ ٱلخطَّابِ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ قالَ علىٰ ٱلمنبرِ : (إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيشيبُ عارِضاهُ في ٱلإِسلامِ وما أَكملَ للهِ تعالىٰ صلاةً) ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : (لا يُتِمُّ خشوعَها وتواضُعَها وإِقبالَهُ علىٰ ٱللهِ فيها)[3] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) وكذا في « قوتِ ٱلقلوبِ » ، و« عوارفِ ٱلمعارِفِ » . لأنَّهُ دائماً يترقَّىٰ في =

وسُئِلَ أَبو ٱلعاليةِ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ عن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[1]؟ قال : (هوَ ٱلَّذي يَسْهو عَنْ صَلاتِهِ ، فلا يدري علىٰ كَمْ ينصرِف ، أَعَلىٰ شَفْعٍ ، أَو علىٰ وِتْرٍ !!)[2] .

وقالَ ٱلحَسَنُ [ٱلبَصريُّ] رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : هوَ ٱلَّذي يَسْهو عَنْ وَقتِ ٱلصَّلاَةِ حتَّىٰ يَخرُجَ .

وقالَ بعضهُم : هوَ ٱلَّذي إِنْ صلاَّها في أَوَّلِ ٱلوقتِ . . لَمْ يَفرَح ، وإِنْ أَخَّرَها عَنِ ٱلوقتِ . . لَمْ يَحزَنْ ، فلا يَرىٰ بتعجليها بِرّاً ، ولا بتأخيرِها إِثماً .

وٱعلمْ : أَنَّ ٱلصَّلاةَ قد يُحسَبُ بعضُها ، ويُكتَبُ بعضُها دونَ بعضٍ ، كما دَلَّتِ ٱلأَخبارُ عليهِ ، وإِنْ كانَ ٱلفقيهُ يقولُ : إِنَّ ٱلصَّلاةَ في ٱلصِّحَّةِ لا تَتجزَّأُ ، ولـٰكنَّ ذلكَ لَهُ معنىً آخرَ ذكرناهُ ، وهـٰذا ٱلمعنىٰ دَلَّتْ عليهِ ٱلأَحاديثُ ، إِذْ وردَ جَبْرُ نَقْصِ ٱلفرائضِ بٱلنَّوافِلِ .

وفي ٱلخبرِ : قالَ عيسىٰ عليهِ ٱلسَّلامُ : يقولُ ٱللهُ تعالىٰ :

= معرفةِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، فكلَّما ٱزدادَ معرفةً بٱللهِ سبحانَهُ . . أَوجبَ علىٰ نفسِهِ زيادةَ تعظيمِهِ سبحانَهُ ، وٱستشعرَ عظيمَ تقصيرِهِ في أَداءِ واجبِهِ نحوَ ربِّهِ سبحانَهُ ، وهـٰكذا فلا يصلُ إِلىٰ كمالِ ٱلمعرفةِ أَبداً .

(١) سورة الماعون : (٥) .

(٢) كذا في « قوتِ ٱلقلوبِ » (٢/ ١٩٩) .

﴿بِالْفَرَائِضِ نَجَا مِنِّيْ عَبْدِيْ ، وَبِالنَّوَافِلِ تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ﴾[1] .

وقالَ النَّبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿لاَ يَنْجُوْ مِنِّيْ عَبْدِيْ إِلاَّ بِأَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ﴾ »[2] .

ورويَ : أَنَّ النَّبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ صلَّىٰ صلاةً فتركَ مِنْ قراءَتِها آيةً ، فلمَّا انفتَلَ.. قالَ : « مَاذَا قَرَأْتُ ؟ » ، فسكتَ القومُ ، فسأَلَ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ فقالَ : (قرأْتَ سورةَ كذا ، وتركتَ آيةَ كذا ، فلا أدري أنسيتَ أَمْ رُفِعَتْ؟) ، فقالَ : « أَنْتَ لَهَا يَا أُبَيُّ » ، ثُمَّ أَقبلَ علىٰ القوم ، فقالَ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَحْضُرُوْنَ صَلاَتَهُمْ ، وَيُتَمِّمُوْنَ صُفُوْفَهُمْ ، وَنَبِيُّهُمْ بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ ، لاَ يَدْرُوْنَ مَا يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ؟! أَلاَ إِنَّ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ كَذَا فَعَلُوْا.. فَأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ نَبِيِّهِمْ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ تَحْضُرُوْنِيْ بِأَبْدَانِكُمْ ، وَتَذْكُرُوْنِيْ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، وَتُغَيِّبُوْنَ عَنِّيْ قُلُوْبَكُمْ.. بَاطِلٌ مَا تَذْهَبُوْنَ إِلَيْهِ »[3] .

وهٰذا يدُلُّ علىٰ أَنَّ استماعَ المأمومِ ما يقرأُ الإمامُ وفهمَهُ.. بدلٌ عَنْ قراءَةِ السُّورةِ بنفسهِ .

---

(١) وذكرَهُ أَبو طالبٍ المكِّي في « قوتِ القلوبِ » (٢/ ١٩٩) عن سيِّدنا عيسىٰ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

(٢) قالَ العراقيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : لم أَجدهُ .

(٣) وكذا ذكره في « قوتِ القلوبِ » (٢/ ٢٠١) .

وقالَ بعضُهُم : (إِنَّ ٱلعبدَ لَيسجدُ ٱلسَّجدةَ ، وعندَهُ أَنَّهُ يتقرَّبُ بها إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ ، ولو قُسِمَتْ ذُنُوبُهُ في سَجْدتِهِ علىٰ أَهلِ مَدينَتِهِ . . هَلكوا) ، قيلَ : فكيفَ يكونُ ذلكَ ؟ قالَ : (يكونُ ساجداً للهِ تعالىٰ وقلبُهُ مُصغٍ إِلىٰ هَواهُ ، ويُشاهِدُ ٱلباطلَ ، وقدِ ٱستولىٰ عليهِ)[1] .

فهٰذِهِ صفةُ ٱلخاشعينَ .

فَتَدُلُّ هٰذِهِ ٱلحكاياتُ وٱلأَخبارُ معَ ما سَبَقَ علىٰ أَنَّ ٱلأَصلَ في الصَّلاةِ : **ٱلخشوعُ ، وحضورُ ٱلقلبِ .**

فإِنَّ مُجرَّدَ ٱلحركاتِ معَ ٱلغفلةِ . . قليلُ ٱلجدوىٰ في ٱلمَعادِ .

وٱللهُ أَعلَمُ

* * *

---

(١) وكذا ذكرَهُ في « قوتِ ٱلقلوبِ » (٢/ ٢٠١) ، ثمَّ قالَ : وهٰذا لأَنَّ فيهِ ٱنتهاكَ حُرمةِ ٱلقُربِ ، وسقوطِ هيبةِ ٱلرَّبِّ تعالىٰ .

وَمِنْ كتابِ الصومِ[1] قولهُ :

الفصلُ الثَّاني[2] في أَسرارِ الصَّوم ، وشروطِهِ ٱلباطِنَةِ :

اِعلَمْ : أَنَّ للصَّومِ ثلاثَ درجاتٍ :

١ـ صومَ ٱلعمومِ .

٢ـ وصومَ ٱلخُصوصِ .

٣ـ وصومَ خُصوصِ ٱلخُصوص .

أَمَّا صَومُ ٱلعمومِ : فهوَ كَفُّ ٱلبَطْنِ وَٱلفَرجِ عنْ قضاءِ ٱلشَّهوةِ ، كَما سَبَقَ تَفْصيلُهُ .

وأَمَّا صومُ ٱلخُصوصِ : فهوَ كَفُّ ٱلسَّمعِ وٱلبصرِ وٱللِّسانِ وٱليدِ وٱلرِّجْلِ وسائرِ ٱلجوارِحِ عَنِ ٱلآثامِ .

وأَمَّا صومُ خُصوصِ ٱلخُصوصِ : فصومُ ٱلقلبِ عَنِ ٱلْهِمَمِ

---

(١) كما في « الإحياء » (٣/ ٤٢٦) .

(٢) بيَّنَ ٱلإمامُ ٱلغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ شروطَ ٱلصَّومِ ٱلظَّاهرةِ وٱلباطنةِ مِنْ خلالِ ثلاثةِ فصولٍ هيَ :

الأَوَّلُ : في ٱلواجباتِ وٱلسُّنَنِ ٱلظَّاهرةِ وٱللَّوازمِ بإفسادِهِ .

الثَّاني : في أَسرارِ ٱلصَّومِ وشروطهِ ٱلباطنةِ ، وقد ذكرَهُ ٱلمصنِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَعلاهُ .

الثَّالث : في ٱلتَّطوُّعِ بٱلصِّيامِ وترتيب ٱلأَورادِ فيه .

ٱلدَّنِيَّةِ وٱلأَفكارِ ٱلدُّنيويَّةِ ، وكَفُّهُ عَنْ سِوىٰ ٱللهِ عزَّ وجلَّ بٱلكُلِّيَّةِ[1] .

ويحصُلُ ٱلفِطرُ في هـٰذا ٱلصَّومِ بٱلفِكْرِ فيما سِوىٰ ٱللهِ وٱليوم ٱلآخِرِ ، وبٱلفِكْرِ في ٱلدُّنيا إلاَّ دنيا تُرادُ للدِّينِ ، فإنَّ ذلكَ زادُ ٱلآخِرَةِ وليسَ مِنَ ٱلدُّنيا ، حتَّىٰ قالَ أَربابُ ٱلقلوبِ : (مَنْ تحرَّكتْ هِمَّتُهُ بٱلتَّصرُّفِ في نهارِهِ لتدبيرِ مَا يُفطِرُ عليهِ .. كُتِبتْ عليهِ خطيئةٌ) ، فإنَّ ذلكَ مِنْ قِلَّةِ ٱلوثوقِ بفضلِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وقِلَّةِ ٱليقينِ برزقِهِ ٱلموعودِ .

وهـٰذهِ رُتبةُ ٱلأَنبياءِ وٱلصِّدِّيقينَ وٱلمُقرَّبينَ ، ولا نُطيلُ ٱلنَّظرَ في تفصيلِهِ قَولاً ، ولـٰكنْ في ٱلحقيقةِ عملاً ، فإنَّهُ إِقبالٌ بكُنْهِ ٱلهمَّةِ علىٰ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وٱنصرافٌ عنْ غيرِ ٱللهِ تعالىٰ ، وتلبُّسٌ بمعنىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿ .. قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[2] .

وأَمَّا صومُ ٱلخُصوصِ ـ وهوَ صومُ ٱلصَّالحينَ ـ : فهوَ كَفُّ ٱلجوارحِ عَنِ ٱلآثامِ ، وتمامُهُ بستَّةِ أُمورٍ :

ٱلأَوَّلُ : غضُّ ٱلبصرِ ، وَكَفُّهُ عَنِ ٱلاتِّساعِ في ٱلنَّظرِ إِلىٰ كُلِّ

---

(١) وذلكَ يحصُلُ بمراعاةِ ٱلقلبِ ، وحفظِ ٱلأَنفاسِ ، بأَنْ يعكِفَ ٱلهمم عليهِ ، فيقطعَ ٱلخواطِرَ وٱلأَفكارَ ، ويترُكَ ٱلتَّمنِّي ٱلَّذي لا يُجدي . « إتحاف » (٤/ ٢٤٤) .

(٢) سورة الأنعام : (٩١) .

ما يُذَمُّ وَيُكْرَهُ ، وإِلىٰ كُلِّ ما يَشْغَلُ ٱلقلبَ ويُلْهي عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ .

قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱلنَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُوْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيْسَ [لَعنَهُ ٱللهُ] ، فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفاً مِنَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ . . آتَاهُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ إِيْمَاناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فِيْ قَلْبِهِ »(١) .

ورویٰ جابرٌ عَنْ أَنسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما عَنْ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « خَمْسٌ يُفَطِّرْنَ ٱلصَّائِمَ : ٱلْكَذِبُ ، وَٱلْغِيْبَةُ ، وَٱلنَّمِيْمَةُ ، وَٱلْيَمِيْنُ ٱلْكَاذِبَةُ ، وَٱلنَّظَرُ بِشَهْوَةٍ »(٢) .

ٱلثَّاني : حفظُ ٱللِّسانِ عَنِ ٱلهَذَيانِ ، وٱلكذبِ ، وٱلغيبةِ ، وٱلنَّميمةِ ، وٱلفُحشِ ، وٱلجفاءِ ، وٱلخصومةِ ، وٱلمِراءِ ، وإِلزامُهُ ٱلسُّكوتَ ، أَو شُغْلُهُ بذكرِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وتلاوةِ ٱلقرآنِ . **فهٰذَا صومُ ٱللِّسانِ** .

وقد قالَ سُفيانُ [ٱلثَّوريُّ] رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (ٱلغِيبةُ تُفسِدُ ٱلصَّومَ) ، رواهُ بِشْرُ بنُ ٱلحارثِ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ .

---

(١) أخرجَهُ عن حذيفة رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلحاكِمُ وصحَّحهُ ، وأَقَرَّه ٱلعراقيُّ .

(٢) أورده في « فتح القدير » (٣/٤٥٩) ، والديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٢٩٧٩) ، وهوَ حديثٌ موضوعٌ ؛ وجميعُ ما وردَ فيهِ قد نُهيَ عنهُ ولهُ أصلٌ في غيرِ هـٰذا ٱلموضعِ .

وروىٰ ليثٌ ، عَنْ مُجاهدٍ رحمَهُما ٱللهُ تعالىٰ : (خَصلتانِ تُفسدانِ ٱلصَّومَ : ٱلغِيبةُ وٱلكذبُ)[1] .

وقد قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا ٱلصَّوْمُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً . فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ ، فَإِنْ ٱمْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ . فَلْيَقُلْ : إِنِّيْ صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً »[2] .

وجاءَ في ٱلخبرِ : أَنَّ ٱمرأتينِ صامتا علىٰ عهدِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فأَجهدَهُما ٱلجوعُ وٱلعطشُ مِنْ آخرِ ٱلنَّهارِ حتَّىٰ كادَتا أَنْ تَتْلَفا ، فَبعثتا إِلىٰ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ تستأْذناهُ في ٱلإفطارِ ، فأَرسلَ إِليهما قَدَحاً ، وقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ للرَّسولِ : « قُلْ لَهُمَا قِيْئَا فِيْهِ مَا أَكَلْتُمَا » ، فقاءَتْ إِحداهُما نصفَهُ دَماً عَبيطاً[3] ، ولحماً غَرِيْضاً[4] ، وقاءَتِ ٱلأُخرىٰ مثلَ ذلكَ حتَّىٰ مَلأَتاهُ ، فعَجبَ ٱلنَّاسُ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ : « هَاتَانِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ ٱللهُ لَهُمَا ، وَأَفْطَرَتَا عَلَىٰ مَا حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِمَا ، فَغَدَتْ إِحْدَاهُمَا

---

(١) وذكرهُ في « قوتِ ٱلقلوبِ » (٢/ ٢٢٢) .

(٢) أَخرجَهُ عن أبي هريرة رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلبخاريُّ (١٧٩٥) ، ومسلمٌ (١١٥١) ، وأَبو داوودَ (٢٣٦٢) وغيرهم .

(٣) أَي : خالصاً .

(٤) أَي : طريّاً .

إِلَىٰ ٱلأُخْرَىٰ فَجَعَلَتَا تَغْتَابَانِ ٱلنَّاسَ ، فَهَـٰذَا مَا أَكَلَتَا مِنْ لُحُومِهِمْ»[1] .

ٱلثَّالثُ : كَفُّ ٱلسَّمْعِ عَنِ ٱلإصغاءِ إِلىٰ كُلِّ مكروهٍ ؛ لأَنَّ كُلَّ ما حَرُمَ قولهُ . . حَرُمَ ٱلإصغاءُ إليهِ[2] .

ولذلِكَ سَوَّىٰ ٱللهُ سبحانَهُ بينَ ٱلمُستمعِ . . وآكِلِ ٱلسُّحْتِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ . . ﴾[3] .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ . . ﴾[4] .

فٱلسُّكوتُ علىٰ ٱلغِيبةِ حرامٌ .

وقالَ أَيضاً : ﴿ . . فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ . . ﴾[5] .

ولذلكَ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱلْمُغْتَابُ وَٱلْمُسْتَمِعُ . . شَرِيْكَانِ فِيْ ٱلإِثْمِ »[6] .

---

(١) قال ٱلعراقيُّ رحمه الله تعالىٰ : رواه من حديث عبيد مولى رسول الله صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ أحمد بسندٍ فيهِ مجهولٌ .

(٢) لذلكَ قالوا رحمَهُمُ ٱللهُ تعالىٰ : (لا تُمكِّنْ زائغَ قلبٍ من أُذنيكَ لا تدري ما يعلقكَ من ذلكَ) .

(٣) سورة المائدة : (٤٢) .

(٤) سورة المائدة : (٦٣) .

(٥) سورة النساء : (١٤٠) .

(٦) قال ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : غريبٌ ، وللطبرانيِّ من حديثِ ٱبنِ عمرَ =

ٱلرَّابعُ : كَفُّ بَقِيَّةِ ٱلجوارِحِ مِنْ ٱليدِ وٱلرِّجْلِ عَنِ ٱلمكارِهِ ، وٱلبَطنِ عَنِ ٱلشُّبُهاتِ وقتَ ٱلإفطارِ ، فَلا مَعنىٰ للصَّوم وهوَ ٱلكَفُّ عَنِ ٱلطَّعامِ ٱلحلالِ ثُمَّ ٱلإفطارُ علىٰ ٱلحرامِ ، فإِنَّ ٱلطَّعامَ ٱلحلالَ إِنَّما يَضُرُّ بِكثرتِهِ لا بنَوعِهِ ، فٱلصَّومُ لتقليلِهِ ، وتاركُ ٱلاستكثارِ مِنَ الدَّواءِ خوفاً مِنْ ضَررِهِ إِذا عَدَلَ إِلىٰ تَناولِ ٱلسُّمِّ . . كانَ سفيهاً[1] ، وٱلحرامُ سُمٌّ يُهْلِكُ ٱلدِّيْنَ ، وٱلحلالُ دواءٌ ينفَعُ قليلُهُ ويضُرُّ كثيرُهُ ، وقَصْدُ الصَّومِ تقليلُهُ .

وقد قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ . . إِلاَّ ٱلْجُوْعُ وَٱلْعَطَشُ »[2] ، فقيلَ : (هوَ ٱلَّذي يُفطِرُ علىٰ ٱلحرامِ) ، وقيلَ : (هوَ ٱلَّذي لا يحفَظُ جوارحَهُ عَنِ ٱلآثامِ) .

ٱلخامِسُ : أَلاَّ يَستَكثرَ مِنَ ٱلحلالِ وقتَ ٱلإفطارِ بحيثُ يمتلىءُ جوفُهُ ، فما وِعاءٌ أَبغضَ إِلىٰ ٱللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ بَطنٍ تُمْلأُ مِنْ حلالٍ ، فكيفَ يُستفادُ مِنَ ٱلصَّومِ قهرُ عدوِّ ٱللهِ عزَّ وجلَّ وكسْرُ

= رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُما بسندٍ ضعيفٍ : « نهى رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عن ٱلغيبة ، وعنِ ٱلاستماع إِلىٰ ٱلغيبة » . اهـ « إتحاف » (٢٤٧/٤) .

(١) سخيفَ ٱلعقلِ .

(٢) قالَ ٱلسُّيوطيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « ٱلجامع ٱلصَّغيرِ » : رواهُ ٱلطَّبرانيُّ عن ٱبنِ عمرَ رضيَ ٱللهُ عنهُما وعن أبي هريرة أحمد في « مسنده » والنسائي (١٧٠٥) ، وابن ماجه ، والبيهقي في « السنن » ، وأشار إلى صحته .

ٱلشَّهوةِ إذا تداركَ ٱلصَّائِمُ عندَ فِطرِهِ ما فاتَهُ نهارَهُ ، وربَّما يَزيدُ عليهِ في أَلوانِ ٱلطَّعامِ ، حتَّىٰ ٱستمرَّتِ ٱلعاداتُ بأَنْ يُدَّخَرَ جميعُ ٱلأَطعمةِ لرمضانَ ، فيؤْكَلُ فيهِ مِنَ ٱلأَطعمةِ ما لا يُؤكَلُ في عِدَّةِ أَشهرٍ .

ومَعلومٌ أَنَّ مقصودَ ٱلصَّومِ ٱلْخَوَىٰ[1] ، وكَسْرُ ٱلهوىٰ ؛ لتقوىٰ ٱلنَّفسِ علىٰ ٱلتَّقوىٰ ، فإذا دُفعَتِ ٱلمعدةُ ضحوةَ ٱلنَّهارِ إلىٰ ٱلعِشاءِ حتَّىٰ هاجت شهوتُها وقويت رغبتُها ، ثُمَّ أُطعِمَت مِنَ ٱللَّذاتِ وأُشبعتْ . . زادتْ لذَّتُها وتضاعفتْ قوَّتها ، وٱنبعثتْ مِنَ ٱلشَّهواتِ ما عَساها كانت راقدةً لو تُرِكَتْ علىٰ عادتها .

فروحُ ٱلصَّومِ وسِرُّهُ تُضْعِفُ ٱلقِوىٰ ٱلَّتي هيَ وسائِلُ ٱلشَّيطانِ في ٱلقَوْدِ[2] إلىٰ ٱلشُّرورِ ، ولنْ يحصُلَ ذلكَ إلاَّ بٱلتَّقليلِ ، وهوَ أَنْ يأْكُلَ أُكلتَهُ ٱلَّتي كانَ يأْكلَها كلَّ ليلةٍ لو لَمْ يَصُمْ .

فأَمَّا إذا جمعَ ما كانَ يأْكُلُ ضَحوةً إلىٰ ما كانَ يَأْكُلُ ليلاً . . فلَنْ يَنتفِعَ بصومِهِ .

بل مِنْ ٱلأَدبِ أَلاَّ يُكْثِرَ ٱلنَّومَ بٱلنَّهارِ حتَّىٰ يَحُسَّ بٱلجوعِ وٱلعَطَشِ ، ويستشعرَ ضَعفَ ٱلقُوىٰ ، فَيَصفُوَ عندَ ذلكَ قلبُهُ ، ويستديمَ في ليلهِ قدراً مِنَ ٱلضَّعفِ ، حتَّىٰ يَخِفَّ عليهِ تهجُّدُهُ

---

(١) الخوىٰ : ٱلجوعُ . « لسان العرب » (١٥/ ٢٤٥) .

(٢) القَوْدُ : ٱلجذبُ مِنَ ٱلخلفِ .

وأَورادُهُ ، فعسىٰ ٱلشَّيطانُ لا يحومُ علىٰ قلبهِ . . فينظرَ إِلىٰ ملكوتِ ٱلسَّماءِ .

وليلةُ ٱلقدرِ عبارةٌ عَن ٱللَّيلةِ ٱلَّتي ينكشِفُ فيها شيءٌ مِنَ ٱلملَكوتِ، وهوَ ٱلمرادُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾[1] .

ومَنْ جعلَ بينَ قلبهِ وبينَ صدرهِ مِخْلاةً مِنَ ٱلطَّعامِ . . فهوَ عَنْ ملكوتِ ٱلسَّماءِ محجوبٌ ، ومَنْ أَخلىٰ مَعِدَتَهُ . . فلا يَكفيهِ ذَلكَ لرفعِ ٱلحجابِ ما لَمْ تَخلُ همَّتُهُ مِنْ غَيرِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وذلكَ هوَ ٱلأَمرُ كلُّهُ ، ومبدأُ ذلكَ تقليلُ ٱلطَّعامِ .

وسيأَتي مزيدُ بيانٍ في (كتابِ ٱلأَطعمةِ) إِنْ شاءَ ٱللهُ تعالىٰ .

ٱلسَّادِسُ : أَنْ يكونَ قلبُهُ بعدَ ٱلإفطارِ مُعَلَّقاً مُضطرِباً بينَ ٱلخوفِ وٱلرَّجاءِ ، إِذ ليسَ يَدري أَيُقبَلُ صومُهُ فهوَ مِنَ ٱلمُقرَّبينَ؟ أَوْ يُرَدُّ فهوَ مِنَ ٱلمَمْقوتينَ؟ ولْيَكُنْ كَذلكَ في آخِرِ كُلِّ عبادةٍ يَفرُغُ منها .

وروىٰ ٱلحَسَنُ ٱبنُ أَبي ٱلحَسَنِ رحمَهُما ٱللهُ تعالىٰ : أَنَّهُ مَرَّ بقومٍ يومَ ٱلعيدِ ـ وهُمْ يضحكونَ ـ فقالَ : (إِنَّ ٱللهَ جعلَ شَهْرَ رمضانَ مِضْماراً[2] لخَلْقِهِ يستَبقونَ فيهِ لطاعتهِ ، فسبقَ أَقوامٌ

---

(١) سورة القدر : (١) .

(٢) ٱلمِضْمارُ : هوَ ٱلمكانُ ٱلَّذي تتسابقُ فيهِ ٱلخيلُ . « المعجم الوسيط » (١/ ٥٦٤) .

ففازوا ، وتخلَّفَ أقوامٌ فخابوا ، فالعَجبُ كُلُّ العَجبِ للضَّاحِكِ اللاَّعِبِ في اليومِ الَّذي فازَ فيهِ السَّابقونَ المُسارِعونَ ، وخَابَ فيهِ المُبطلونَ ، أَمَا واللهِ لَوْ قد كُشِفَ الغِطاءُ . . لاشتغلَ المُحسِنُ بإِحسانِهِ ، والمُسيءُ بإِساءَتِهِ) ؛ أَي : كانَ سرورُ المقبولِ يشغَلُهُ عَنِ اللَّعِبِ ، وحَسرةُ المَردودِ تَسدُّ عليهِ بابَ الضَّحِكِ[1] .

وعَنِ الأَحنفِ بْنِ قيسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ أَنَّهُ قيلَ لَهُ : إِنَّكَ شيخٌ كبيرٌ ، وإِنَّ الصِّيامَ يُضعِفُكَ ، فقالَ : (إِنِّي أُعِدُّهُ لسيرٍ طويلٍ ، والصَّبرُ علىٰ طاعةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ . . أَهونُ مِنَ الصَّبرِ علىٰ عذابِهِ) .

فهٰذهِ هِيَ المعاني الباطنةُ في الصَّومِ .

فإِنْ قلتَ : فَمَنِ اقتصرَ علىٰ كَفِّ شهوةِ البطنِ والفرجِ ، وتَركَ هٰذهِ المعاني ، فقد قالَ الفقهاءُ : (صومُهُ صحيحٌ) . . فما معناهُ ؟

فاعلَمْ : أَنَّ فقهاءَ الظَّاهِرِ يُثْبِتونَ الشُّروطَ الظَّاهِرَةَ بأَدلَّةٍ ، وهيَ أَضعفُ مِنْ هٰذهِ الأَدلَّةِ الَّتي أَوردناها في هٰذهِ الشُّروطِ الباطنةِ ، لاسيَّما الغِيبةُ وأَمثالُها ، ولٰكنْ ليسَ إِلىٰ فقهاءِ الظَّاهِرِ مِنَ التَّكليفاتِ إِلاَّ ما تيسَّرَ علىٰ عمومِ الغافلينَ المُقبلينَ علىٰ الدُّنيا الدُّخولُ تحتَهُ .

---

(١) أَي : كيفَ يليقُ بهِ الانبساطُ والسُّرورُ وقد رُدَّ عملُهُ؟! .

وأَمَّا عُلماءُ ٱلآخِرَةِ : فيعنونَ بٱلصِّحَّةِ . . ٱلقَبولَ ، وبٱلقَبولِ . . ٱلوصولَ إِلىٰ ٱلمقصودِ ، ويفهمونَ أَنَّ ٱلمقصودَ مِنَ ٱلصَّومِ . . ٱلتَّخَلُّقُ بخُلُقٍ مِنْ أَخلاقِ ٱللهِ تعالىٰ وهوَ ٱلصَّمَديَّةُ[1] ، وٱلاقتداءُ بٱلملائكةِ في ٱلكَفِّ عَنِ ٱلشَّهواتِ بحَسَبِ ٱلإمكانِ ، فإِنَّهُمْ مُنزَّهونَ عَنِ ٱلشَّهواتِ .

وٱلإنسانُ رتبتُهُ فوقَ رُتبةِ ٱلبهائمِ ؛ لِقدرتهِ بنورِ ٱلعقلِ علىٰ كسرِ شهوتهِ ، ودونَ رُتبةِ ٱلملائكةِ ؛ لاستيلاءِ ٱلشَّهواتِ عليهِ ، فكونُهُ مُبْتَلىً بمجاهَدَتِها ، فكلَّما ٱنهمَكَ في ٱلشَّهواتِ . . ٱنحطَّ إِلىٰ أَسفلِ سافلينَ ، وٱلتحقَ بغمارِ ٱلبهائِمِ ، وكلَّما قَمَعَ ٱلشَّهوةَ . . ٱرتفعَ إِلىٰ علِّيينَ ، وٱلتحقَ بأُفُقِ ٱلملائِكةِ ، وٱلملائكةُ يُقرَّبونَ مِنَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وٱلَّذي يَقتدي بهِم ، ويتشبَّهُ بأَخلاقِهِم ، يُقَرَّبُ مِنَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ كَقُربِهم ، فإِنَّ ٱلشَّبيهَ مِنَ ٱلقريبِ . . قريبٌ ، وليسَ ٱلقربُ ثَمَّ بٱلمكانِ ، بلْ بٱلصِّفاتِ .

وإِذا كانَ هـٰذا سِرَّ ٱلصَّومِ عِنْدَ أَربابِ ٱلأَلبابِ ، وَأَصحابِ ٱلقلوبِ . . فأَيُّ جَدوىٰ لتأْخيرِ أَكْلَةٍ وجمعِ أَكلتينِ عندَ ٱلعشاءِ معَ ٱلانهماكِ في ٱلشَّهواتِ ٱلأُخرىٰ ، وجوعِ طولِ ٱلنَّهارِ ؟!

ولَوْ كانَ لذلكَ جدوىٰ . . فأَيُّ معنىً لِقولهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ

---

(١) علىٰ معنىٰ أَنَّ ٱلصَّمدَ هوَ ٱلَّذي لا يَطعَمُ ، وقالَ أَبو عمرٍو : ٱلصَّمدُ مِنَ ٱلرجالِ هوَ ٱلَّذي لايعطشُ ولا يجوعُ في الحربِ . « لسان العرب » .

وسلَّمَ : «كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ ٱلْجُوْعُ وَٱلْعَطَشُ»[1] .

ولِهٰذا قالَ أَبو ٱلدَّرداءِ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ : (يا حَبَّذا نومُ ٱلأَكياسِ وفِطرُهُم ، كَيْفَ يَعيبونَ صومَ ٱلحمقىٰ وسهرَهُم؟!) .

ولَذرَّةٌ مِنْ ذي يقينٍ وتقوىٰ . . أَفضلُ وأَرجحُ مِنْ أَمثالِ ٱلجبالِ عبادةً مِنَ ٱلمغبونينَ .

ولِذلكَ قالَ ٱلعلماءُ : كَمْ مِنْ صائِمٍ مفطِرٌ!! وكمْ مِنْ مُفطِرٍ صائِمٌ!

فٱلمُفطرُ ٱلصَّائِمُ : هوَ ٱلَّذي حَفِظَ جوارِحَهُ عَنِ ٱلآثامِ ، ويأْكلُ ويَشرَبُ .

والصَّائِمُ ٱلمفطِرُ : هوَ ٱلَّذي يجوعُ ويَعطَشُ ، ويُطلِقُ جوارِحَهُ في ٱلآثامِ .

وَمَنْ فَهِمَ معنىٰ ٱلصَّوم وسِرَّهُ . . عَلِمَ أَنَّ مَثَلَ مَنْ كَفَّ عَنِ ٱلأَكلِ وٱلجماعِ ، وأَفطرَ لِمُخالَطةِ ٱلآثامِ . . كمنْ مَسَحَ كلَّ عضوٍ مِنْ أَعضائِهِ في ٱلوضوءِ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فقد وَافقَ في ظاهرِهِ ٱلعددَ ، إِلاَّ أَنَّهُ تركَ ٱلمهمَّ وهوَ ٱلغُسلُ ، فصلاتُهُ مَردودةٌ عليهِ بجهلهِ .

ومَثَلَ مَنْ أَفطرَ بٱلأَكلِ ، وصامَ بجوارحِهِ عَنِ ٱلمكارهِ . . كمَنْ

---

(١) سبق تخريجه .

غَسَلَ أَعضاءَهُ مرَّةً مرَّةً ، فصلاتُهُ مُتقبَّلَةٌ ـ إن شاءَ ٱللهُ ـ لإحكامهِ ٱلأَصلَ ، وإِنْ تركَ ٱلأَفضلَ .

ومَثَلَ مَنْ جَمَعَ بينَهُما . . كَمَنْ غَسَلَ كُلَّ عضوٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فجمعَ بينَ ٱلأَصلِ وٱلفضلِ ، وهوَ ٱلكمالُ .

فقد قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا ٱلصَّوْمُ أَمَانَةٌ ، فَلْيَحْفَظْ أَحَدُكُمْ أَمَانَتَهُ »[١] .

ولمَّا تلا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا . . ﴾[٢] . . وضعَ يدَهُ علىٰ سمعهِ وبصرهِ فقالَ ـ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ ـ : « ٱلسَّمْعُ أَمَانَةٌ ، وٱلْبَصَرُ أَمَانَةٌ »[٣] ، ولولا أَنَّهُ مِنْ أَماناتِ ٱلصَّومِ . . لَمَا قالَ ـ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « فَلْيَقُلْ إِنِّيْ صَائِمٌ »[٤] ؛ أَي : إِنِّي أُودعتُ لساني لأَحفَظَهُ ، فكيفَ أُطلقُهُ بجوابكَ ؟!

فإذاً : قد ظهرَ لكَ أَنَّ لكلِّ عبادةٍ ظاهراً وباطناً ، وقشراً ولُبّاً ،

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أخرجه من حديثِ ٱبنِ مسعودٍ رضيَ ٱلله تعالىٰ عنهُ ٱلخرائطيُّ في « مكارمِ ٱلأخلاقِ » ، وإسنادهُ حَسنٌ .

(٢) سورة النساء : (٥٨) .

(٣) رواه من حديث أبي هريرة رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ أبو داوود دونَ قولهِ : « السمعُ أمانةٌ » .

(٤) متفق عليه ، من حديث أَبي هريرةَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ .

ولقشورِها درجاتٌ ، ولكلِّ درجةٍ طبقاتٌ .

فإِليكَ ٱلخِيرَةُ ٱلآنَ في أَنْ تقنعَ بٱلقِشْرِ عَنِ ٱللُّبَابِ ، أَو تتحيَّزَ إِلىٰ غِمارِ[1] ذَوي ٱلأَلبابِ .

* * *

(١) غِمارُ ٱلنَّاسِ : جمعُهُم ٱلمزدحم ٱلمتكاتِفِ . « المعجم الوسيط » (٢/ ٦٨٥) .

ومن كتابِ أسرارِ ٱلطَّهارةِ[1] قولهُ :

ٱلخامِسُ[2] : ما يَجتمعُ في ٱللِّحيةِ مِنَ ٱلوسخ وٱلقَمْلِ إذا لَمْ يُتعهَّدْ ، ويُستحبُّ إزالةُ ذلكَ بٱلغَسلِ وٱلتَّسريحِ بِٱلمُشْطِ .

وفي ٱلخبرِ ٱلمشهورِ[3] : (أنَّهُ عليهِ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ كانَ لا يُفارِقُهُ ٱلمُشطُ وٱلمِدرىٰ[4] وٱلمِرآةُ في سفرٍ ولا حضرٍ)، وهيَ سُنَّةُ ٱلعَربِ .

---

(١) كما في « الإحياء » (٢/ ٢٤٤) .

(٢) مِنَ الأوساخِ وٱلرُّطوباتِ ٱلمترشِّحةِ ٱلَّتي ينبغي تنظيفُها ، وهيَ ثمانيةٌ :

١ـ ما يَجتمعُ في شَعَرِ ٱلرَّأسِ مِنَ ٱلدَّرنِ وٱلقَمْلِ .

٢ـ ما يَجتمعُ مِنَ ٱلوسخِ في معاطِفِ ٱلأُذُنِ .

٣ـ ما يَجتمعُ في داخلِ ٱلأنفِ مِنَ ٱلرُّطوباتِ ٱلمنعقدةِ .

٤ـ ما يَجتمعُ علىٰ ٱلأسنانِ وطرفِ ٱللِّسانِ مِنَ ٱلقَلْحِ .

٥ـ ما يَجتمعُ في ٱللِّحيةِ مِنَ ٱلوسخِ وٱلقَمْلِ ، وقد ذكرَهُ ٱلمصنِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أعلاهُ .

٦ـ وسخُ ٱلبراجِمِ ، وهيَ معاطفُ ظهورِ ٱلأناملِ .

٧ـ تنظيفُ ٱلرَّواجِبِ ، وهي بواطنُ مفاصلِ ٱلأصابع .

٨ـ ٱلدَّرنُ ٱلَّذي يَجتمعُ علىٰ جميعِ ٱلبَدَنِ برشحِ ٱلعَرَقِ وغُبارِ ٱلطَّريق .

(٣) قالَ ٱلعراقيُّ : أخرجَهُ مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنه ٱبنُ طاهرٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في كتاب « صفة ٱلتَّصوُّف » .

(٤) ٱلمِدرىٰ : شيءٌ يُعمَلُ مَنْ حديدٍ أو خشبٍ علىٰ شكلِ سِنٍّ مِنْ أسنانِ ٱلمُشطِ وأطولُ منهُ ، يُسرَّحُ بهِ ٱلشَّعرُ ٱلمتلبِّدُ . « النهاية في غريب الحديث » (ج ١ ـ حرف الدال) .

وفي خبرٍ غريبٍ[1] : (أنَّهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ كانَ يُسرِّحُ لِحيتَهُ في ٱليومِ مرَّتينِ) .

وكانَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كَثَّ ٱللِّحيةِ قد ملأَتْ ما بينَ مَنْكِبيْهِ .

وكذلكَ كانَ أَبو بكرٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ .

وكانَ عثمانُ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ طويلَ ٱللِّحيةِ رقيقَها .

وكانَ عليٌّ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ عريضَ ٱللِّحيةِ قد ملأَتْ ما بين مَنْكِبيْهِ .

وفي حديثٍ أَغربَ منهُ : قالت عائشةُ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنها : ٱجتمعَ قومٌ إلىٰ باب رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فخرجَ إليهمْ ، فرأيتُهُ تَطَلَّعَ في ٱلحُبِّ[2] ؛ سَوَّىٰ مِنْ رأْسهِ ولحيتهِ ، قلتُ : أَوَتفعلُ ذلكَ يا رسولَ ٱللهِ؟! فقالَ : « نَعَمْ ، إنَّ ٱللهَ يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَتَجَمَّلَ لإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ »[3] .

وٱلجاهلُ ربَّما يَظنُّ ذلكَ مِنْ حُبِّ التَّزيُّنِ للنَّاسِ قياساً علىٰ

---

(1) أخرجه التِّرمذيُّ عن الحكم مرسلاً رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ في « ٱلشَّمائل » ، والخطيب في « ٱلجامع » ، كما في « الإتحاف » (٢/ ٣٩٦) .

(2) ٱلحُبُّ : ٱلجرَّةُ ، أَوِ ٱلضَّخمةُ منها . « القاموس المحيط » (١/ ١٧٨) .

(3) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ : أخرجَهُ ٱبن عديٍّ في ٱلكاملِ .

أَخلاقِ غيرِه ، وتشبيهاً للملائكةِ بِٱلحَدَّادِيْنَ[1] .

وهيهاتَ! فقد كانَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مَأْموراً بِٱلدَّعوةِ ، وكانَ مِنْ وظائفهِ أَنْ يسعىٰ في تعظيمِ أَمرِ نفسهِ في قلوبهمْ ؛ كي لا تَزْدَرِيَهُ نفوسُهُم ، وتحسينِ صورتهِ في أَنْفسِهم ؛ كي لا تستصغِرَهُ أَعينُهُم ؛ فينفِّرُهُمْ ذلكَ ، ويتعلَّقُ ٱلمنافقونَ بذلكَ في تَنْفيرِهِم .

وهـٰذا ٱلقصدُ واجبٌ علىٰ كُلِّ عالمٍ يتصدَّىٰ لِدعوةِ ٱلخَلْقِ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ ، وهوَ أَنْ يُراعيَ مِنْ ظاهرِهِ ما لا يُوجبُ نَفْرَةَ ٱلنَّاسِ عنهُ ، وٱلاعتمادُ في مثلِ هـٰذهِ ٱلأُمورِ علىٰ ٱلنِّيَّةِ ، فإِنَّها في أَنفَسِها أَعمالٌ تكتَسِبُ ٱلأَوصافَ مِنَ ٱلمقصودِ .

فٱلتَّزَيُّنُ علىٰ هـٰذا ٱلقصدِ . . محبوبٌ ، وتركُ ٱلتَّشعُّثِ بِٱللِّحيةِ إِظهاراً للزُّهدِ ولقلَّةِ ٱلمبالاةِ بِٱلنَّفسِ . . مَحذورٌ ، وتركهُ شُغلاً بِما هوَ أَهمُّ منهُ . . محبوبٌ .

وهـٰذهِ أَحوالٌ باطنةٌ بينَ ٱلعبدِ وبينَ ٱللهِ تعالىٰ ، وٱلنَّاقِدُ بصيرٌ ،

---

(١) يعني : أَنَّ مَنْ يَظُنَّ أَنَّ ٱلنَّبيَّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مِمَّنْ يُظهِرُ زينتَهُ ليراها ٱلنَّاسُ قياساً علىٰ أَخلاقِ باقي الناسِ . . فهوَ عديمُ ٱلتَّمييزِ ، إِذ كيفَ يُشبِّهُ رسولَ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ بغيرِهِ مِنَ ٱلبَشَرِ؟!
فما ذاكَ إِلاَّ كتشبيهِ ٱلملائكةِ ٱلعُلويِّينَ بِٱلحدَّادين المستَفِلِينَ . وٱللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَعلمُ بِٱلصَّوابِ .

والتَّلبيسُ غيرُ رائجٍ عليهِ بحالٍ .

وكمْ مِنْ جاهلٍ يتعاطىٰ هـٰذهِ ٱلأُمورَ ٱلتفاتاً إلىٰ ٱلخلقِ وهوَ يُلَبِّسُ علىٰ نفسهِ وعلىٰ غيرهِ ، ويزعُمُ أَنَّ قصدَهُ ٱلخيرُ .

فترىٰ جماعةً مِنَ ٱلعلماءِ يَلبَسونَ ٱلثِّيابَ ٱلفاخِرةَ ، ويزعمونَ أَنَّ قصدَهُم إرغامُ ٱلمبتدعةِ وٱلمخالفينَ وٱلتَّقرُّبُ إلىٰ ٱللهِ تعالىٰ بهِ ، وهـٰذا أمرٌ ينكشفُ يومَ تُبلىٰ ٱلسَّرائِرُ ، ويومَ يُبعثَرُ ما في ٱلقبورِ ، ويُحصَّلُ ما في ٱلصُّدورِ ، فعندَ ذلكَ تتميَّزُ ٱلسَّبيكةُ ٱلخالصةُ مِنَ ٱلبَهْرَجِ[1] .

فنعوذُ بٱللهِ مِنَ ٱلخِزيِ يومَ ٱلفزَعِ ٱلأَكبرِ .

ومنهُ [أي « الإحياء » ٢/ ٢٥٢] :

قولُهُ : ولا تظنَّنَّ أَنَّ أفعالَهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في جميعِ حركاتهِ كانتْ خارجةً عَنْ وَزنٍ وقانونٍ وترتيبٍ[2] ، بلْ جميعُ ٱلأُمورِ ٱلاختياريَّةِ ٱلَّتي ذَكَرْنا يتردَّدُ ٱلفاعلُ فيها بينَ قِسْمينِ أَو أَقسامٍ ، وكانَ لا يقدِمُ علىٰ واحدٍ معيَّنٍ بٱلاتِّفاقِ ، بلْ لمعنىً يقتضي ٱلإقدامَ وٱلتَّقديمَ ، فإِنَّ ٱلاسترسالَ مهملاً ـ كيفَ يتَّفقُ ـ سجيَّةُ ٱلبهائمِ ، وضبطُ ٱلحركاتِ ، ووزْنُها بموازينِ ٱلمعاني

(١) ٱلبهرج : زائفٌ باطلٌ رديءٌ . كما في « ٱلقاموس » .
(٢) (قانون) إلهيّ و(ترتيب) ربَّاني .

سجيَّةُ أَولياءِ ٱللهِ تعالىٰ ، وكلَّما كانت حركاتُ ٱلإنسانِ وخطراتُهُ إلىٰ ٱلضَّبطِ أَقربَ ، وعَنِ ٱلإهمالِ وتركِهِ سُدىً أَبعدَ . . كانتْ مرتبتُهُ إلىٰ رتبةِ ٱلأَنبياءِ وٱلأَولياءِ أَكثرَ ، فكانَ قُربهُ إلىٰ ٱللهِ تعالىٰ أَظهرَ ، إذِ ٱلقريبُ إلىٰ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . هوَ ٱلقريبُ مِنَ ٱللهِ تعالىٰ ، والقريبُ مِنَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ . . لا بُدَّ وَأَنْ يكونَ قَريباً ، فٱلقريبُ مِنَ ٱلقَريبِ . . قريبٌ ، بٱلإضافةِ إلىٰ غيرِهِ .

فنعوذُ بٱللهِ أَنْ يكونَ زِمامُ حَركاتِنا وسكناتِنا في يدِ ٱلشَّيطانِ بواسِطَةِ ٱلهوىٰ .

ومنهُ [كما في « الإحياء » ٢/٢٥٣] :

قولُهُ : وٱعلَمْ : أَنَّ ٱلعالِمَ لا يكونُ وارثاً للنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . إلاَّ إذا ٱطَّلعَ علىٰ جميعِ معاني ٱلشَّريعةِ ، حتَّىٰ لا يكونَ بينَهُ وبينَ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إلاَّ درجةٌ واحدةٌ ، وهيَ دَرجةُ ٱلنُّبوَّةِ(١) ، وهيَ ٱلفارِقةُ بينَ ٱلوارثِ وٱلموروثِ ، إذِ ٱلموروثُ هوَ ٱلَّذي حَصَلَ ٱلمالُ لَهُ ، وٱشتغلَ

---

(١) لأَنَّها موهوبةٌ غيرَ مكتسبةٍ . « إتحاف » (٢/ ٤١٦) .
قالَ صاحبُ « الجوهرة » :
وَلَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ مُكْتَسَبَهْ ... وَلَوْرَقَىٰ فِيْ ٱلْفَضْلِ أَعْلَىٰ عَقَبَهْ

بتحصيلِهِ ، وٱقتدرَ عليهِ ، وٱلوارِثُ هوَ ٱلَّذي لَمْ يحصَلِ ٱلمالُ لَهُ ، ولَمْ يقدِرْ عليهِ ، ولٰكنِ ٱنتقلَ إِليهِ وتلقَّاهُ مِنهُ بعدَ حُصولِهِ لَهُ[1] .

* * *

(١) يتَّضحُ هٰذا ٱلمعنىٰ في حديثِ ٱبن مسعودٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ عندَ ٱلبخاريِّ وٱلنَّسائيِّ كما في « ٱلفتح الكبير » (١/ ٤٩٢) ، قالَ : قالَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ، فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » .

ومالُ ٱلإنسانِ ٱلحقيقيِّ هوَ ما بيَّنهُ صلواتُ ٱللهِ وسلامُهُ عليهِ في حديثِ عبدِ ٱللهِ بنِ الشِّخيرِ رضيَ ٱللهُ عنهُ عندَ أحمدَ ومسلمٍ وٱلتِّرمذيِّ وٱلنَّسائيِّ كما في « الفتح الكبير » (٣/ ٤٢٩) ، قالَ : « يَقُولُ ٱبْنُ آدَمَ : مَالِيْ مَالِيْ ، وَهَلْ لَكَ يَا ٱبْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » .

البابُ ٱلثَّالثُ[1]

في أَعمالِ ٱلباطنِ في ٱلتِّلاوةِ

وهيَ عَشَرَةٌ :

١ـ فَهْمُ أَصلِ ٱلكلامِ ، ٢ـ ثُمَّ ٱلتَّعظيمُ ، ٣ـ ثُمَّ حُضورُ ٱلقلبِ ، ٤ـ ثُمَّ ٱلتَّدبُّرُ ، ٥ـ ثُمَّ ٱلتَّفَهُّمُ ، ٦ـ ثُمَّ ٱلتَّخلِّي عَنْ موانعِ ٱلفهمِ ، ٧ـ ثُمَّ ٱلتَّخصيصُ ، ٨ـ ثُمَّ ٱلتَّأثُّرُ ، ٩ـ ثُمَّ ٱلتَّرقِّي ، ١٠ـ ثُمَّ ٱلتَّبَرِّي .

فٱلأَوَّلُ : فَهْمُ عظمةِ ٱلكلامِ وعلوِّهِ ، وفضلِ ٱللهِ سُبحانَهُ وتعالىٰ ولُطفهِ بخَلْقِهِ في نُزولهِ عَنْ عَرشِ جلالهِ إِلىٰ درجةِ إِفهامِ خَلقِهِ .

ٱلثَّاني : ٱلتَّعظيمُ للمتكلِّمِ ، فٱلقارىءُ عندَ ٱلبدايةِ بتلاوةِ ٱلقرآنِ . . ينبغي أَنْ يُحضِرَ في قلبهِ عظمةَ ٱلمتكلِّمِ .

ٱلثَّالثُ : حضورُ ٱلقلبِ ، وتركُ حديثِ ٱلنَّفسِ .

ٱلرَّابعُ : ٱلتَّدبُّرُ ؛ وهوَ وراءَ حضورِ ٱلقلبِ .

ٱلخامِسُ : ٱلتَّفهُّمُ ؛ وهوَ أَنْ يستوضحَ مِنْ كُلِّ آيةٍ ما يليقُ بها ،

---

(١) كما في « الإحياء » (٣/ ٥٠٧) .

إِذِ ٱلقرآنُ يَشتملُ علىٰ ذكرِ صفاتِ ٱللهِ ، وذكرِ أَفعالهِ : وذكرِ أَوامرِهِ وزواجرِهِ ، وذكرِ ٱلجنَّةِ وٱلنَّارِ ، وأَعظمُ علوم ٱلقرآنِ تحتَ أَسماءِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِهِ ، إِذْ لَمْ يُدرِكْ أَكثرُ ٱلخَلْقِ منها إِلاَّ أُموراً لائقةً بأَفهامِهِمْ ، ولَمْ يعثُروا علىٰ أَغوارِها ، وأَمَّا أَفعالُهُ فكذِكْرِهِ خَلْقَ ٱلسَّماواتِ وٱلأَرضِ وغيرِها ، فليَفْهَمِ ٱلتَّالي منها صفاتِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ وجلالَه ؛ إِذِ ٱلفعلُ يَدُلُّ علىٰ ٱلفاعِلِ ، فتَدُلُّ عظمتُهُ علىٰ عظمتِهِ ، فينبغي أَنْ يَشهدَ في ٱلفِعْلِ ٱلفاعِلَ دونَ ٱلفعلِ ، فمَنْ عرفَ ٱلحَقَّ . . رآهُ في كُلِّ شيءٍ ، إِذْ كُلُّ شيءٍ فهوَ منهُ ، وإِليهِ ، وبهِ ، ولَهُ ، وفيهِ ، فهوَ ٱلكُلُّ علىٰ ٱلتَّحقيقِ ، ومَنْ لا يراهُ في كُلِّ ما يراهُ . . فكأَنَّهُ ما عرفَهُ ، ومَنْ عرفَهُ . . عَرَفَ أَنَّ كُلَّ شيءٍ ما خلا ٱللهَ باطلٌ[1] ، وأَنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إِلاَّ وجهَهُ ، لا أَنَّهُ سَيبْطُلُ في ثاني ٱلحالِ ، بلْ هوَ ٱلآنَ باطلٌ ، إِنِ ٱعتبرَ ذاتَهُ مِنْ حيثُ هوَ ، إِلاَّ أَنْ يَعتبرَ وجودَهُ مِنْ حيثُ إِنَّهُ موجودٌ بٱللهِ عزَّ وجلَّ وبقُدْرَتِهِ . . فيكونُ لَهُ بطريقِ ٱلتَّبعيَّةِ ثباتٌ ، وبطريقِ ٱلاستقلالِ بُطلانٌ مَحضٌ ، وهٰذا مَبْدأٌ مِنْ مبادىءِ عِلمِ ٱلمكاشَفةِ . ومَنْ لَمْ يكُنْ لَهُ فهمٌ مَّا في ٱلقُرآنِ ، ولو في أَدنىٰ

---

(١) قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا ٱلشَّاعِرُ . كَلِمَةُ لَبِيْدٍ : أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ ٱللهَ بَاطِلُ » ، قالَ ٱلنَّبهانيُّ في « ٱلفتح الكبير » : أَخرجَهُ عن أَبي هُريرةَ ٱلبخاريُّ ومسلمٌ وٱبنُ ماجه .

ٱلدَّرجاتِ . . دخلَ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا . . ﴾[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ . . ﴾[2] .

وٱلطَّابعُ : هوَ ٱلموانعُ ٱلَّتي سنذكرُها في موانعِ ٱلفهمِ .

ٱلسَّادسُ : **ٱلتَّخلِّي عَنْ موانعِ ٱلفهمِ**[3] ؛ فإنَّ أكثرَ ٱلنَّاسِ مُنِعوا مِنْ فَهمِ ٱلقرآنِ لأَستارٍ وحُجُبٍ أَسدلَها ٱلشَّيطانُ علىٰ قُلوبِهِمْ ، فَعُمِّيَتْ عليهِم عجائبُ أُسرارِ ٱلقُرآنِ .

قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لَوْلاَ أَنَّ ٱلشَّيَاطِيْنَ يَحُوْمُوْنَ عَلَىٰ قُلُوْبِ بَنِيْ آدَمَ . . لَنَظَرُوْا إِلَىٰ ٱلْمَلَكُوْتِ »[4] . ومعاني ٱلقرآنِ مِنْ جُملةِ ٱلملكوتِ ، وكلُّ ما غابَ عَنِ ٱلحواسِّ ولَمْ يُدركْ إلاَّ بنورِ ٱلبصيرةِ . . فهوَ مِنَ ٱلمَلكوتِ .

---

(١) سورة محمد : (١٦) .

(٢) سورة النحل : (١٠٨) .

(٣) أَي : ٱلإعراضُ عَنِ ٱلأُمورِ ٱلَّتي هيَ أَسبابٌ للمنعِ عَنِ ٱلفهمِ في ٱلقرآن ٱلكريم . « إتحاف » (٤/ ٥١٢) .

(٤) أَخرجَهُ عن أَبي هُريرة رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلإمامُ أَحمدَ رحمَهُ ٱلله تعالىٰ في « مسنده » (٨٦٢٥) . وابنُ أَبي شيبة رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَيضاً في « مصنَّفه » (٣٦٥٧٤) بلفظ : « هَٰذِهِ ٱلشَّيَاطِيْنَ يَحُوْمُوْنَ عَلَىٰ أَعْيُنِ بَنِيْ آدَمَ . . لاَ يَتَفَكَّرُوْنَ فِيْ مَلَكُوْتِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَرَأَوْا ٱلعَجَائِبَ » .

وحُجُبُ ٱلفهمِ أَربعةٌ :

أَوَّلُها : أَن يكونَ ٱلهَمُّ منصرِفاً إِلىٰ تَحقيقِ ٱلحروفِ وإِخراجِها مِنْ مخارِجها ، وهـٰذا يتَوَلَّىٰ حفظَهُ شيطانٌ وُكِّلَ بٱلقُرَّاءِ ؛ ليصرِفَهُم عَنْ فَهمِ معاني كلامِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا يزالُ يحمِلُهُم علىٰ تَرديدِ ٱلحروفِ ، ويخيِّلُ إِليهم أَنَّ ٱلحروفَ لَمْ تخرُجْ مِنْ مخارِجها ، فهـٰذا يكونُ تأَمُّلُهُ مقصوراً علىٰ مخارجِ ٱلحروفِ ، فأَنَّىٰ تنكشِفُ لَهُ ٱلمعاني ؟!

وأَعظمُ ضُحْكَةٍ[1] للشَّياطينِ . . مَنْ كانَ مُطيعاً لمثلِ هـٰذا ٱلتَّلبيسِ .

ثانيها : أَنْ يكونَ مُقَلِّداً لمذهبٍ سمعَهُ بٱلتَّقليدِ وَجَمَدَ عليهِ ، وثبتَ في نَفْسهِ ٱلتَّعصُّبُ لَهُ بمجرَّدِ ٱلاتِّباعِ للمسموعِ مِنْ غيرِ وصولٍ إِليهِ بنصٍّ ومشاهدةٍ ، فهـٰذا شخصٌ قَيَّدَهُ معتقَدُهُ عَنْ أَنْ يتجاوزَهُ ، فلا يُمكِنهُ أَنْ يخطرَ ببالِهِ غير مُعتقدِهِ ، فصارَ نظرُهُ موقوفاً علىٰ مسموعِهِ ، فإِنْ لَمَعَ برقٌ علىٰ بُعدٍ ، أَو بدا لَهُ معنىً مِنَ ٱلمعاني ٱلَّتي تُباينُ مسموعَهُ . . حَمَلَ عليهِ شيطانُ ٱلتَّقليدِ حملةً ، وقالَ لَهُ : كيفَ يخطُرُ ببالِكَ هـٰذا وهوَ خلافُ معتقدِكَ ومعتقَدِ آبائِكَ ؟! فيرىٰ أَنَّ ذلكَ غُرورٌ مِنَ ٱلشَّيطانِ ، فيتباعدُ منهُ ، ويحترزُ عَنْ

---

(1) ضُحكةٌ : ٱلشَّيءُ ٱلَّذي يُضحَكُ منهُ . « لسان العرب » (١٠/٤٥٩) .

مثلِهِ ، ولهـٰذَا قالَتِ ٱلصُّوفيَّةُ : (إِنَّ ٱلعلمَ حجابٌ) ، وأرادوا بـ(ٱلعلـمِ) : ٱلعقـائـدَ ٱلَّتـي ٱستمـرَّ عليهـا أَكثرُ ٱلنَّـاسِ بمجـرَّدِ ٱلتَّقليدِ ، أَو بمُجرَّدِ كلماتٍ جَدَلِيَّةٍ ، حَرَّرَها ٱلمُتعصِّبونَ للمذاهبِ وَأَلقَوْها إِليهِم .

فأَمَّا ٱلعلمُ ٱلحقيقيُّ ٱلَّذي هوَ ٱلكشفُ وٱلمشاهدةُ بنورِ ٱلبصيرةِ ؛ فكيفَ يكونُ حجاباً وهوَ مُنتهىٰ ٱلطَّلبِ ؟!

وهـٰذا ٱلتَّقليدُ قد يكونُ باطِلاً فيكونُ مانعاً ؛ كمنْ يَعتقِدُ في ٱلاستواءِ علىٰ ٱلعَرشِ ٱلتَّمكُّنَ وٱلاستقرارَ ؛ فإِنْ خطرَ ببالِهِ مثلاً في ٱلقدُّوسِ أَنَّهُ ٱلمقدَّسُ عَنْ كُلِّ ما يجوزُ علىٰ خَلْقِهِ . . لَمْ يمكِّنْهُ تقليدُهُ مِنْ أَنْ يَستقرَّ ذلكَ في نفسهِ ، ولوِ ٱستقرَّ في نفسهِ . . لانجَرَّ إِلىٰ كَشفٍ ثانٍ وثالثٍ ولتَواصلَ ، ولـٰكنْ يُسارعُ إِلىٰ دفع ذلكَ عنْ خاطرِهِ ؛ لمناقضةِ تقليدِهِ ٱلباطلِ ، وقد يكونُ حقّاً ، ويكونُ أَيضاً مانعاً مِنَ ٱلفهمِ وٱلكشفِ ؛ لأَنَّ ٱلحقَّ ٱلَّذي كُلِّفَ ٱلخَلْقُ ٱعتقادَهُ لَهُ مراتبٌ ودرجاتٌ ، ولَهُ مبدأٌ ظاهرٌ وغَورٌ باطنٌ ، وجمودُ ٱلطَّبعِ علىٰ ٱلظَّاهِرِ يمنعُ مِنَ ٱلوصولِ إِلىٰ ٱلغورِ ٱلباطنِ ، كما ذكرناهُ في ٱلفرقِ بينَ ٱلعلمِ ٱلباطنِ وٱلظَّاهرِ في كتابِ (قواعدِ ٱلعقائدِ)[1] .

ثالثُها : أَنْ يكونَ مُصِرّاً علىٰ ذنبٍ ، أَو مُتَّصِفاً بِكِبْرٍ ، أَوْ مُبْتَلَىً علىٰ ٱلجُملةِ بهوىً في ٱلدُّنيا مطاعٍ ، فإِنَّ ذلكَ سببُ ظُلمةِ ٱلقلبِ

---

(١) أي : من كتاب « إِحياء علوم ٱلدِّين » .

وَصَدَئِهِ ، وهوَ كَٱلخَبَثِ علىٰ ٱلمِرآةِ ، فيمنعُ جليّةَ ٱلحقِّ مِنْ أَنْ يتجلَّىٰ فيهِ ، وهوَ أَعظمُ حجابٍ للقلبِ ، وبهِ حُجِبَ ٱلأَكثرونَ ، وكلَّما كانتِ ٱلشَّهواتُ أَشدَّ تراكُماً . . كانتْ معاني ٱلكلامِ أَشدَّ ٱحتجاباً ، وكُلَّما خفَّتْ عَنِ ٱلقلبِ أثقالُ ٱلدُّنيا . . قَرُبَ تجلِّي ٱلمعنىٰ فيهِ .

فٱلقلبُ مثلُ ٱلمِرآةِ ، وٱلشَّهواتُ مثلُ ٱلصَّدإِ ، ومعاني ٱلقرآنِ مثلُ ٱلصُّوَرِ ٱلَّتي تتراءىٰ في ٱلمِرآةِ ، وٱلرِّياضَةُ للقلبِ بإماطةِ ٱلشَّهواتِ مثلُ تصقيلِ ٱلجلاءِ لِلْمِرآةِ .

ولذلكَ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِذَا عَظَّمَتْ أُمَّتِيْ ٱلدِّيْنَارَ وَٱلدِّرْهَمَ . . نُزِعَتْ مِنْهَا هَيْبَةُ ٱلإِسْلاَمِ ، وَإِذَا تَرَكُوْا ٱلأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوْفِ وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . . حُرِمُوْا بَرَكَةَ ٱلْوَحْيِ »[1] ، قالَ ٱلفُضَيْلُ رَحِمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (يَعني حُرِموا فهمَ ٱلقُرآنِ) .

وقد شَرَطَ ٱللهُ عزَّ وجلَّ ٱلإنابَةَ في ٱلفَهمِ والتَذكُّرِ ، فقالَ : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[2] .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾[3] .

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ : رحمه الله تعالىٰ : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الأمر بالمعروفِ » . والحكيم التِّرمذيّ أيضاً في « نوادر الأُصول » .

(٢) سورة ق : (٨) .

(٣) سورة غافر : (١٣) .

وقالَ ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ . . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] .

والَّذي آثرَ غرورَ ٱلدُّنيا علىٰ نَعيمِ ٱلآخِرَةِ . . فليسَ مِنْ ذوي ٱلألبابِ ؛ فلذلكَ لا ينكشفُ لَهُ أَسرارُ ٱلكتابِ .

رابعُها : أَنْ يكونَ قد قرأَ تفسيراً ظاهراً ، وٱعتقدَ أَنَّهُ لا معنىٰ لكلماتِ ٱلقُرآنِ إِلاَّ ما يتناولُهُ ٱلنَّقلُ عَنِ ٱبنِ عبَّاسٍ ، ومُجاهدٍ ، وغيرِهما رحمَهُمُ ٱللهُ تعالىٰ ، وأَنَّ ما وراءَ ذلكَ تفسيرٌ بٱلرَّأْيِ ، وأَنَّ مَنْ فَسَّرَ ٱلقُرآنَ برأْيِهِ . . فقد تبوَّأَ مقعدَهُ مِنَ ٱلنَّارِ ، وهٰذا أَيضاً مِنَ ٱلحُجُبِ ٱلعظيمةِ ، وسنُبيِّنُ معنىٰ ٱلتَّفسيرِ بٱلرَّأْيِ في ٱلبابِ ٱلرَّابعِ ، وإِنَّ ذلكَ يناقضُ قولَ عليٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (إِلاَّ أَنْ يؤتِيَ ٱللهُ عبداً فَهْماً في ٱلقُرآنِ) ، وإِنَّهُ لو كانَ ٱلمعنىٰ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلمنقولُ . . لَمَا ٱختلفَ ٱلنَّاسُ فيهِ .

ٱلسَّابعُ : ٱلتَّخصيصُ ؛ وهوَ أَنْ يُقَدِّرَ أَنَّهُ ٱلمقصودُ بكلِّ خِطابٍ في ٱلقرآنِ ، فإِذا سَمِعَ أَمراً أَو نَهياً . . قَدَّرَ أَنَّهُ ٱلمأمورُ وٱلمنهيُّ ، وإِنْ سَمِعَ وعداً أَو وعيداً . . فكمثلِ ذلكَ ، وإِنْ سَمِعَ قَصَصَ ٱلأَوَّلينَ وٱلأَنبياءِ عليهِمُ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ . . عَلِمَ أَنَّ ٱلسَّمَرَ[2] غيرُ مقصودٍ ، وإِنَّما ٱلمقصودُ ليَعتبِرَ بهِ وليأْخُذَ مِنْ تضاعيفِهِ ما يَحتاجُ إِليهِ ، فما مِنْ قِصَّةٍ في ٱلقرآنِ . . إِلاَّ وسياقُها لفائدةٍ جديدةٍ في حقِّ

---

(١) سورة الرعد : (١٩) .

(٢) أَي : ٱلحديث بحكايتهم فقط دونَ ٱعتبارٍ وٱتِّعاظٍ .

ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وأُمَّتِهِ ، ولذلكَ قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ . . ﴾[1] .

فليقدِّرِ ٱلعبدُ أَنَّ ٱللهَ يُثبِّتُ فؤادَهُ بما يَقُصُّهُ عليهِ مِنْ أَحوالِ ٱلأَنبياءِ ، وصبرِهِمْ علىٰ ٱلإيذاءِ ، وثباتِهِمْ في ٱلدِّينِ لانتظارِ نصرِ ٱللهِ تعالىٰ .

ٱلثَّامنُ : ٱلتَّأَثُّرُ ؛ وهوَ أَنْ يتأَثَّرَ قلبُهُ بآثارٍ مختلفةٍ بحسَبِ ٱختلافِ ٱلآياتِ ، فيكونُ لَهُ بحَسَبِ كُلِّ فهمٍ حالٌ وَجدٍ يَتَّصِفُ بهِ قلبُهُ ، مِنَ ٱلحزنِ ، وٱلخوفِ ، وٱلرَّجاءِ ، وغيرِهِ .

وقالَ بعدَ كلامٍ طويلٍ مُفيدٍ [كما في « الإحياء » ٣/ ٥٢٠] :

وإِنَّما ٱلقَصدُ مثلُ تلكَ ٱلحالةِ ٱلَّتي يَمُنُّ ٱللهُ عزَّ وجلَّ بها علىٰ قلبِ ٱلعبدِ عَقِيبَ فَهْمِ ٱلآيةِ ، فأَمَّا مُجرَّدُ حركةِ ٱللِّسانِ . . فقليلُ ٱلجدوىٰ .

ٱلتَّاسِعُ : ٱلتَّرقِّي ، وأَعني بهِ : أَنْ يترقَّىٰ إِلىٰ أَنْ يسمعَ ٱلكلامَ مِنَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ لا مِنْ نفسهِ .

فدرجاتُ ٱلقراءةِ ثلاثٌ :

أَدناها : يقدِّرُ كأَنَّهُ يقرأُ علىٰ ٱللهِ عزَّ وجلَّ واقفاً بينَ يديهِ ، وهُوَ ناظرٌ إِليهِ ، ومستمعٌ منهُ ، فيكونُ حالُهُ عندَ هـٰذا ٱلتَّقديرِ . .

---

(١) سورة هود : (١٢٠) .

ٱلسُّؤَالَ ، وٱلتَّملُّقَ ، وٱلتَّضرُّعَ ، وٱلابتهالَ .

وٱلثَّانيةُ : أَنْ يشهَدَ بقلبهِ كأَنَّ ربَّهُ عزَّ وجلَّ يخاطبُهُ بأَلطافهِ ، ويناجيهِ بإِنعامهِ وإِحسانهِ ، فمقامُهُ عندَ هـٰذا ٱلتَّقديرِ . . ٱلحياءُ ، وٱلتَّعظيمُ ، وٱلإِصغاءُ ، وٱلفهمُ .

ٱلثَّالثةُ : أَنْ يرىٰ في ٱلكلامِ . . ٱلمُتكلِّمَ ، وفي ٱلكلماتِ . . ٱلصِّفاتِ ، ولا ينظرَ إِلىٰ نفسهِ ، ولا إِلىٰ قراءَتِهِ ، ولا إِلىٰ تعلُّقِ ٱلإِنعامِ بهِ مِنْ حَيثُ إِنَّهُ يكونُ مُنْعِماً عليهِ ، بلْ يكونُ مقصورَ ٱلهمِّ علىٰ ٱلمُتكلِّمِ ، موقوفَ ٱلفِكْرِ عليهِ ، كأَنَّهُ مُستغرِقٌ بمشاهدةِ ٱلمُتكلِّمِ عَنْ غيرهِ ، وهـٰذهِ درجةُ ٱلمُقرَّبينَ ، وما قبلها درجاتُ أَصحابِ ٱليمينِ ، وما خرجَ عنها فهيَ درجاتُ ٱلغافلينَ .

وعَنِ الدَّرجةِ ٱلعليا أَخبرَ جعفرٌ الصَّادقُ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عَنْهُ فقالَ : (وٱللهِ لقد تجلَّىٰ ٱللهُ سُبحانَهُ لِخَلْقِهِ في كلامِهِ ، ولـٰكنَّهُمْ لا يُبصرونَ)(١) .

وقالَ أَيضاً رضيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ ، وقد سأَلُوهُ عَنْ حالةٍ لَحِقَتْهُ في ٱلصَّلاةِ حتَّىٰ خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فلمَّا سُرِّيَ عنهُ . . قيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : (ما زلتُ أُرَدِّدُ ٱلآيَةَ علىٰ قَلبي حتَّىٰ سَمِعتُها مِنَ ٱلمُتكلِّمِ بها ، فلَمْ يثبتْ جسمي لمعاينةِ قُدرَتهِ) .

(١) وكذا أَوردهُ في « قوتِ ٱلقلوبِ » .

ففي مثلِ هـٰذِهِ ٱلدَّرَجةِ تعظُمُ ٱلحلاوةُ ولَذَّةُ ٱلمناجاةِ .

وقالَ بعدَ ذلكَ بعدَ سياقِ كلامٍ :

وبمشاهَدِةِ ٱلمُتكلِّمِ دونَ ما سواهُ يكونُ ٱلعبدُ مُمتثِلاً لِقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[1] .

فمَنْ لَمْ يَرَهُ في كلِّ شيءٍ[2] . . فقد رأىٰ غيرَهُ ، وكلَّما ٱلتفتَ إليهِ ٱلعبدُ . . تضمَّنَ ٱلتفاتُهُ شيئاً مِنَ ٱلشِّرْكِ ٱلخفِيِّ ، بَلِ ٱلتَّوحيدُ ٱلخالِصُ أَلاَّ يرىٰ في كُلِّ شيءٍ إلاَّ ٱللهَ وحدَهُ .

ٱلعاشرُ : ٱلتَّبرِّي ، وأَعني بهِ : أَنْ يتبرَّأَ مِنْ حَولهِ وقوَّتهِ ، وٱلالتفاتِ إلىٰ نفسهِ بعينِ ٱلرِّضا وٱلتَّزكيةِ .

فإذا تلا آياتِ ٱلوعدِ وٱلمدحِ للصَّالحينَ . . فلا يَشهدُ نفسَهُ هناكَ ، بلْ يشهدُ ٱلموقنينَ وٱلصِّدِّيقينَ فيها ، ويتشوَّفُ أَن يُلحِقَهُ ٱللهُ تعالىٰ بهمْ .

وإذا تلا آياتِ ٱلمَقتِ وذمِّ ٱلعُصاةِ وٱلمُصرِّينَ . . شهدَ نفسَهُ هناكَ ، وقدَّرَ أَنَّهُ ٱلمخاطَبُ خوفاً وإشفاقاً .

---

(١) سورة الذَّاريات : (٥٠ـ٥١) .

(٢) أَي : فاعِلاً في كلِّ شيءٍ ، وكلُّ شيءٍ مفتقرٌ إليهِ .

فإِذا رأىٰ نفسَهُ بصورةِ ٱلتَّقصيرِ في ٱلقرآنِ . . كانت رؤيتُهُ سببَ قُربهِ .

فإِنَّ مَنْ أُشهدَ ٱلبُعدَ في ٱلقُربِ[1] . . لُطِفَ بهِ بٱلخوف حتَّىٰ يَسُوقَهُ إِلىٰ دَرجةٍ أُخرىٰ في ٱلقُربِ وراءَها ، ومَنْ أُشهِدَ ٱلقُربَ في ٱلبُعدِ[2] . . مُكِرَ بهِ بٱلأَمنِ ٱلَّذي يُقْصِيهِ إِلىٰ درجةٍ أُخرىٰ في ٱلبُعدِ أَسفلَ ممَّا هوَ فيهِ .

ومهما كانَ مُشاهِداً نفسَهُ بعينِ ٱلرِّضا . . صارَ محجوباً بنفسهِ ، فإِذا جاوزَ حَدَّ ٱلالتفاتِ إِلىٰ نفسهِ ولَمْ يشاهِد إِلاَّ ٱللهَ تعالىٰ في قراءَتِهِ . . ٱنكشفَ لَهُ ٱلمَلكوتُ .

* * *

---

(١) يعني : مَنْ رأىٰ نفسَهُ بعيداً حالةَ كونِهِ قريباً في ٱلواقعِ .
(٢) يعني : مَنْ رأىٰ نفسَهُ قريباً وهوَ بعيدٌ حقيقةً .

وَمِنْ كتابِ ٱلعلمِ[1]

قولُهُ :

فإنْ قلتَ : لِمَ أَلحقتَ ٱلفقهَ بعلمِ ٱلدُّنيا ، وأَلحقتَ ٱلفُقهاءَ بعُلماءِ ٱلدُّنيا ؟

.. فٱعلَمْ : أَنَّ ٱللهَ تعالىٰ أَخرجَ آدمَ عليهِ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ مِنَ ٱلتُّرابِ ، وأَخرجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ سُلالةٍ مِنْ ماءٍ دافِقٍ ، فأَخرجَهُم مِنَ ٱلأَصلابِ إِلىٰ ٱلأَرحامِ ، ومنها إِلىٰ ٱلدُّنيا ، ثُمَّ إِلىٰ ٱلقبرِ ، ثُمَّ إِلىٰ ٱلعَرضِ ، ثُمَّ إِلىٰ ٱلجَنَّةِ أَو إِلىٰ ٱلنَّارِ ، فهٰذا مبدؤُهُم ، وهٰذهِ غايتهُم ، وهٰذهِ منازِلُهُم .

وخَلَقَ ٱلدُّنيا زاداً للمعادِ ؛ ليتناولَ منها ما يصلُحُ للتَّزوُّدِ .

فلو تناوَلوها بٱلعدلِ .. لانقطعتِ ٱلخصوماتُ ، وتعطَّلَ ٱلفقهاءُ ، ولٰكنَّهُم تناوَلوها بٱلشَّهواتِ ، فتولَّدتْ منها ٱلخصوماتُ ، فمسَّتِ ٱلحاجَةُ إِلىٰ سُلطانٍ يَسوسُهُمْ ، وٱحتاجَ ٱلسُّلطانُ إِلىٰ قانونٍ يَسوسُهُمْ بهِ .

فٱلفقيهُ : هوَ ٱلعالِمُ بقانونِ ٱلسِّياسَةِ وطريقِ ٱلتَّوسُّطِ بينَ ٱلخَلْقِ إِذا تَنازَعوا بحُكْمِ ٱلشَّهواتِ ، فكانَ ٱلفقيهُ معلِّماً للسُّلطانِ ،

---

(١) كما في « الإحياء » (١/ ٣٠) .

ومرشِدَهُ إلىٰ طريقِ ٱلسِّياسَةِ للخَلْقِ وضبطِهِمْ ؛ لتنتَظِمَ بٱستقامَتِهِمْ أُمورُهُمْ في ٱلدُّنيا .

وَلَعَمْري إِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ أَيضاً بِٱلدِّيْنِ ، ولـٰكِنْ لا بنفسهِ ، بلْ بواسِطَةِ ٱلدُّنيا ، فإِنَّ ٱلدُّنيا مزرعةُ ٱلآخرةِ ، ولا يتمُّ ٱلدِّينُ إِلاَّ بٱلدُّنيا ، وٱلمُلْكُ وٱلدِّينُ توأَمانِ ، وٱلدِّينُ أَصلٌ وٱلسُّلطانُ حارسٌ ، وما لا أَصلَ لَهُ . . فمهدومٌ ، وما لا حارسَ لَهُ . . فضائعٌ ، ولا يتمُّ ٱلمُلْكُ وٱلضَّبطُ إِلاَّ بٱلسُّلطانِ ، وطريقُ الضَّبطِ في فصلِ ٱلخصوماتِ بِٱلفقْهِ[1] .

وكما أَنَّ سياسةَ ٱلخَلْقِ بٱلسَّلطنةِ ليسَ مِنْ علمِ ٱلدِّينِ في ٱلدَّرجَةِ ٱلأُولىٰ ، بل هوَ مُعيَّنٌ علىٰ ما لا يتمُّ ٱلدِّينُ إِلاَّ بهِ . . فكذلكَ معرفةُ طريقِ ٱلسِّياسَةِ .

فمعلومٌ أَنَّ ٱلحجَّ لا يتمُّ إِلاَّ بِمَذْرَقَةٍ[2] تَحرُسُ مِنَ ٱلعربِ في الطَّريقِ[3] .

---

(١) أي : في أُمورُ ٱلدُّنيا وٱلدِّينِ .

(٢) المذرقَةُ ـ بالدَّالِ ٱلمهملةِ ، وقيلَ بٱلمعجمةِ ـ : ٱلخفارةُ ؛ يعني : ٱلحراسة ، فارسيٌّ معرَّبٌ ، كما في « ٱلمحكم » ، وهوَ قولُ ٱبنِ دُريدٍ ، ومثلهُ لابنِ خَالويه ، إِلاَّ أَنَّهُ أَنكرَ إِهمالَ الدَّال . « إتحاف » (١/١٥٣) بتصرُّفٍ . وفي « ٱلإحياء » بذرقة : وهي الجماعة . اهـ « قاموس » .

(٣) أَي : مِنْ ذُعَّارِ ٱلعربِ وشياطِينِهِم ٱلَّذينَ يُغيرونَ علىٰ رَكْبِ ٱلحجِّ في ٱلطَّريقِ . « إتحاف » (١/١٥٣) .

ولٰكِنَّ ٱلحجَّ شيءٌ وسلوكُ ٱلطَّريقِ إلىٰ ٱلحجِّ شيءٌ ثانٍ ، وٱلقيامُ بٱلحراسةِ ٱلَّتي لا يتمُّ ٱلحجُّ إلاَّ بهِ شيءٌ ثالثٌ ، ومعرفةُ طريقِ ٱلحِراسَةِ وحيَلِها وقوانِينها شيءٌ رابعٌ .

وحاصلُ فَنِّ ٱلفِقهِ : معرفةُ طريقِ ٱلسِّياسَةِ وٱلحراسَةِ ، ويدلُّ علىٰ ذلكَ ما رُوِيَ مُسنَداً : « لاَ يُفْتِي ٱلنَّاسَ إلاَّ ثَلاَثَةٌ : أَمِيرٌ ، أَوْ مَأْمُورٌ ، أَوْ مُتَكَلِّفٌ »[1] .

فٱلأَميرُ هوَ ٱلإمامُ ، وقد كانوا هُمُ ٱلمُفْتِينَ ، والمأْمورُ نائبُهُ ، وٱلمتكلِّفُ غيرُهُما ؛ وهوَ ٱلَّذي يتقلَّدُ تلكَ ٱلعُهْدَةَ مِنْ غيرِ حاجةٍ .

وقد كانَ ٱلصَّحابةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم يَحترزونَ عَنِ ٱلفتوىٰ حتَّىٰ كانَ يُحِيلُ كلُّ واحدٍ منهُم علىٰ صاحبهِ ، وكانوا لا يَحترزونَ إذا سُئلوا عَنْ عِلْمِ ٱلقُرآنِ وطريقِ ٱلآخرةِ . وفي بعضِ ٱلرِّواياتِ بدَلَ ٱلمُتكلِّفِ : ٱلمرائي ، فإِنَّ مَنْ تقلَّدَ خَطَرَ ٱلفتوىٰ وهوَ غيرُ متعيِّنٍ للحاجةِ . . فلا يقصِدُ بهِ[2] إلاَّ طَلَبَ ٱلجاهِ وٱلمالِ .

فإنْ قلتَ : فإِنِ ٱستقامَ لكَ هٰذا في أَحكامِ ٱلحدودِ وٱلجراحاتِ وٱلغراماتِ وفصلِ ٱلخصوماتِ . . فلا يستقيمُ فيما يشتمِلُ عليهِ ربعُ ٱلعباداتِ مِنَ ٱلصَّومِ وٱلصَّلاةِ ، ولا فيما يشتمِلُ

---

(١) أَخرجَهُ ٱلدَّارميُّ (٢٧٧٩) ، وٱلبزَّار (٢٧٦٢) ، وأَحمد (٦٦٦١) ، وٱلطَّبراني في « ٱلأَوسط » (٩٧٦) .

(٢) أَي : بٱستمالةِ قلوبِ أَهلِ ٱلدُّنيا ، بكلامِهِ ووعظِهِ . « إتحاف » (٣/ ١٥٤) .

عليهِ ربعُ ٱلمعاملاتِ مِنْ بيانِ ٱلحلالِ وٱلحرامِ . .

فٱعلَمْ : أَنَّ أقربَ ما يتكلَّمُ فيهِ ٱلفقيهُ مِنَ ٱلأعمالَ ٱلَّتي هيَ أَعمالُ ٱلآخِرَةِ ثلاثةٌ : ١ـ ٱلإسلامُ ، ٢ـ وٱلصَّلاَةُ ، ٣ـ وٱلحلالُ وٱلحرامُ .

فإذا تأمَّلتَ مُنتهىٰ نظرِ ٱلفقيهِ فيها . . عَلِمتَ أَنَّهُ لا يُجاوِزُ حدودَ ٱلدُّنيا إِلىٰ ٱلآخرةِ ، وإذا عرفتَ هـٰذا في هـٰذهِ ٱلثَّلاثةِ . . فهيَ في غيرِها أَظهرُ .

أَمَّا ٱلإِسلامُ : فيتكلَّمُ ٱلفقيهُ فيما يَصِحُّ منهُ ، وفيما يَفْسُدُ ، وفي شُروطهِ . وليسَ يُلتفَتُ فيهِ إلاَّ إِلىٰ ٱللِّسانِ .

وأَمَّا ٱلقلبُ : فخارجٌ عَنْ ولايةِ ٱلفقيهِ ؛ لعزلِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَربابَ ٱلسُّيوفِ وٱلسَّلطنةِ عنهُ ، حيثُ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « هَلاَّ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ »(١) في ٱلَّذي قَتَلَ مَنْ تكلَّمَ بكلمةِ ٱلإسلام مُعتذراً بأَنَّهُ قالَ ذلكَ مِنْ خوفِ ٱلسَّيفِ ، بَلْ يَحكُمُ ٱلفقيهُ بصحَّةِ ٱلإسلامِ تحتَ ظلالِ ٱلسُّيوفِ ، معَ أَنَّهُ يعلمُ أَنَّ ٱلسَّيفَ لَمْ يكشِفْ لَهُ عنْ عِلْمٍ ، ولَمْ يرفَعْ عَنْ قلبهِ غِشاوةَ ٱلجهلِ وٱلحَيرةِ ، ولـٰكنَّهُ مشيرٌ علىٰ صاحبِ ٱلسَّيفِ ، فإِنَّ ٱلسَّيفَ يمتدُّ إِلىٰ رقبتهِ ، وٱليدَ ممتدَّةٌ إِلىٰ مالهِ ، وهـٰذِهِ ٱلكلمةُ

---

(١) أَخرجَهُ عن أُسامةَ بن زيدٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما ٱلبخاريُّ (٤٢٦٩) ، ومسلم (٩٦) .

بٱللِّسانِ تعصِمُ رقبتَهُ ومالَهُ ، ما دامتْ لَهُ رقبةٌ ومالٌ ، وذلكَ في ٱلدُّنيا ، ولذلكَ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَقُوْلُوْا لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ، فَإِذَا قَالُوْهَا . . فَقَدْ عَصَمُوْا مِنِّيْ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ »[1] .

[فٱنظُر كَيْفَ] جعلَ أَثرَ ذلكَ في ٱلدَّمِ وٱلمالِ ؟

وأَمَّا ٱلآخرَةُ: فلا تنفعُ فيها ٱلأَموالُ ، بلْ أَنوارُ ٱلقلوبِ وأَسرارُها وإِخلاصُها ، وليسَ ذلكَ مِنْ فَنِّ ٱلفقهِ ، فإِنْ خاضَ فيهِ ٱلفقيهُ . . كانَ كما لو خاضَ في ٱلكلامِ وٱلطِّبِّ ، وكانَ خارجاً عَنْ فَنِّهِ .

وأَمَّا ٱلصَّلاةُ : فٱلفقيهُ يُفتي بٱلصِّحَّةِ إِذا أَتىٰ بصورةِ ٱلأَعمالِ معَ ظاهرِ ٱلشُّروطِ ، وإِنْ كانَ غافلاً في جميعِ صلاتِهِ مِنْ أَوَّلِها إِلىٰ آخرِها ، مشغولاً بٱلتَّفكُّرِ في حسابِ مُعاملاتهِ في ٱلسُّوقِ إِلاَّ عندَ ٱلتَّكبيرةِ . . فهـٰذهِ ٱلصَّلاَةُ لا تنفعُ في ٱلآخِرَةِ ، كما أَنَّ ٱلإقرارَ بٱللِّسانِ في ٱلإسلامِ . . لا ينفعُ ، ولـٰكنَّ ٱلفقيهَ يُفتي بٱلصِّحَّةِ ؛ إِذ مَا فعلَهُ حصلَ بهِ ٱمتثالُ صيغةِ ٱلأَمرِ ، وٱنقطعَ عنهُ بهِ ٱلقتلُ وٱلتَّعزيرُ .

وأَمَّا ٱلخشوعُ وإِحضارُ ٱلقلبِ ٱلَّذي هوَ عَمَلُ ٱلآخِرَةِ وبهِ ينفعُ ٱلعملُ ٱلظَّاهِرُ : لا يتعرَّضُ لَهُ ٱلفقيهُ ، ولو تعرَّضَ . . لكانَ خارجاً عَنْ فنِّهِ .

---

(١) أَخرجَهُ عن أَبي هُريرةَ رضيَ ٱللهُ عنهُ البخاري (٢٩٤٦) ، ومسلم (٢١) .

وأَمّا ٱلزَّكاةُ : فٱلفقيهُ ينظُرُ إلىٰ ما يقطعُ مطالبةَ ٱلسُّلطانِ ، حتَّىٰ إنَّهُ إذا ٱمتنعَ مِنْ أَدائِها وأَخذَها ٱلسُّلطانُ قهراً . . حَكَمَ بأَنَّهُ بَرِئَتْ ذمَّتُهُ .

وحُكِيَ : أَنَّ أَبا يوسُفَ رَحِمَهُ ٱللهُ تعالىٰ كانَ يَهَبُ لزوجتهِ مالَهُ في آخِرِ ٱلحَوْلِ ، ويستوهِبُ مالَها ؛ لإسقاطِ ٱلزَّكاةِ ، فحُكِيَ ذلكَ لأَبي حنيفةَ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ فقالَ : (ذلكَ مِنْ فِقْهِهِ)[١] .

وَصَدَقَ ، فإنَّ ذلكَ مِنْ فقهِ ٱلدُّنيا ولـٰكنَّ مضرَّتَهُ في ٱلآخِرَةِ أَعظمُ مِنْ كُلِّ جنايةٍ ، ومثلُ هـٰذا ٱلعِلْمِ هوَ ٱلضَّارُّ .

---

(١) أَي : مِنْ معرفتِهِ ٱلأحكام ، ومِنْ هُنا قولُ صاحبِ « ٱلملتقىٰ » مِنْ عُلمائِنا رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ :

(وتُكرَهُ ٱلحيلةُ لإسقاطها عندَ محمَّدٍ ، خِلافاً لأَبي يوسُفَ رحمَهُما ٱللهُ تعالىٰ) . وقالَ شارِحُهُ محمَّدُ بنُ محمَّدٍ ٱلبَهنسيُّ ٱلحنفيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (إنَّما تُكرَهُ عندَ محمَّدٍ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ لتضمُّنها إبطالَ حقِّ ٱلفُقراءِ بعدَ ٱنعقادِ سببِ ٱلوجوبِ ، وعليهِ ٱلفتوى ، خِلافاً لأَبي يوسفَ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ؛ لأَنَّهُ ٱمتناعٌ عن ٱلوجوبِ) اهـ « إتحاف » (١/ ١٥٧) . وعندَ ٱلشَّافعيَّة أَيضاً : تسقُطُ ٱلزَّكاةُ إذا وُهِبَتْ قبلَ حُلولِ ٱلحَوْلِ عليها مِنْ حيثُ ٱلفتوىٰ ، ولـٰكنَّ فاعِلَهُ يأْثم لذلكَ مِنْ جهةِ ٱلتَّقوىٰ ، وعندَ جميعِ أَهلِ ٱلوَرَعِ : يَحرُمُ ذلكِ ، ولعلَّ ٱلمصنِّفَ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ يتكلَّمُ مِنْ هـٰذا ٱلمقام ـ أَي : ٱلوَرَعِ ـ ٱلَّذي هوَ مقامُ أَمثالِهِ .

والأَحسنُ دفعُ ٱلزَّكاةِ وٱلتَّحيُّلُ لذلكَ ؛ لأَنَّ فيهِ منفعةً لإخوانهِ ٱلفقراء ، أَضِفْ إلىٰ ذلكَ أَنَّ ٱلمؤمنَ يرىٰ أَنَّ ٱلزَّكاةَ نماءٌ لا نقصٌ يقيناً بقولِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ » . وٱللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَعلمُ .

وأمَّا الحلالُ والحرامُ : فالوَرَعُ عَنِ الحرامِ مِنَ الدِّينِ .

ولٰكنَّ الوَرَعَ لَهُ أَربَعُ مَراتِبٍ :

الأُولىٰ : الوَرَعُ الَّذي يُشترَطُ في عَدالةِ الشَّهادةِ ؛ وهوَ الَّذي يَخرُجُ بتركهِ الإنسانُ عَنْ أَهليَّةِ الشَّهادةِ والقضاءِ والولايةِ ؛ وهوَ الاحترازُ عنِ الحرامِ الظَّاهِرِ .

الثَّانيةُ : وَرَعُ الصَّالحينَ ، وهوَ التَّوقِّي عَنِ الشُّبُهاتِ الَّتي تتقابَلُ فيها الاحتمالاتُ ، قالَ صلَّىٰ اللهُ عليه وآلِهِ وسلَّمَ : « دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يَرِيْبُكَ »[1] .

وقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «الإِثْمُ حَزَّازُ[2] الْقُلُوْبِ»[3] .

---

(١) قالَ العراقيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : أخرجَهُ عنِ الحسَنِ رضيَ اللهُ عنهُ التِّرمذيُّ (٢٥١٨) وصحَّحَهُ ، والنَّسائيُّ (٢٦٣٧) ، وابنُ حبَّان (٧٢٢) .

(٢) قالَ الزّبيديُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : هٰكذا في النُّسخ بزاءينِ مكرَّرتينِ ، حكاهُ ابنُ الأثيرِ . ويُروىٰ (حوَازّ القلوبِ) ـ بتخفيفِ الواوِ بعدَ الحاءِ وآخره زايٌ مشدَّدةٌ ـ وبهِ جَزَمَ الهرويُّ ، وصدَّرَ ابن الأثيرِ بهِ كلامَهُ في « النِّهايةِ » ، وقالَ : هيَ الأمورُ الَّتي تؤثِّرُ في الشَّيءِ كما يؤثِّرُ الحَزُّ في الشَّيءِ ، وهوَ ما يخطُرُ فيها مِنْ أَنْ يكونَ معاصيَ ؛ كفقدِ الطُّمأنينةِ إليها ، وحكىٰ الهرويُّ عَنِ اللَّيثِ : (هو ما حَزَّ في صدرِكَ وحكَّ ولَمْ يطمئِنَّ عليهِ القلبُ) .

قالَ ابنُ الأثيرِ : ويُروىٰ بتشديد الواوِ وتخفيفِ الزَّاي ، ومعناه : ما يحوزُ القلبَ ويغلِبُ عليها . « إتحاف » (١/ ١٥٩) بتصُّرفٍ يسيرٍ .

(٣) قالَ العراقيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : رواه البيهقيُّ في « الشُّعب » من طريقِ سعيدِ بن منصورٍ ، حدَّثنا سفيانُ عن منصورٍ ، عن محمَّد بن عبد الرَّحمٰن بن يزيد ، عن=

ٱلثَّالثةُ : وَرَعُ ٱلمتَّقينَ ، وهوَ تَركُ ٱلحلالِ ٱلمَحضِ ٱلَّذي يُخافُ منهُ أَداؤُهُ إِلىٰ ٱلحرامِ ، قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لاَ يَكُوْنُ ٱلرَّجُلُ مِنَ ٱلْمُتَّقِيْنَ . . حَتَّىٰ يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ مَخَافَةً مِمَّا بِهِ بَأْسٌ »[1] .

وذلكَ مثلُ ٱلوَرَعِ عَنِ ٱلتَّحدُّثِ بأَحوالِ ٱلنَّاسِ . . خيفةً مِنَ ٱلانجرارِ إِلىٰ ٱلغِيبةِ ، وٱلتَّورُّعِ مِنْ أَكلِ ٱلشُّبهاتِ . . خيفةً مِنْ هَيجانِ ٱلنَّشاطِ وٱلبَطَرِ ٱلمُؤَدِّي إِلَىٰ مقارفةِ ٱلمَحظوراتِ .

ٱلرَّابعةُ : وَرَعُ ٱلصِّدِّيقينَ ؛ وهوَ ٱلإِعراضُ عَمَّا سوىٰ ٱللهِ تعالىٰ خوفاً مِنْ صَرفِ ساعةٍ منَ ٱلعُمُرِ إِلىٰ ما لا يُفيدُ زيادةَ قُربٍ عندَ ٱللهِ

= أَبيه قالَ : قالَ عبد ٱلله [بن مسعود] : قالَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱلإِثمُ حَوَّاز ٱلقُلُوْبِ » قالَ : ٱلمعروفُ أَنَّهُ مِنْ قولِ ٱبنِ مسعودٍ ، قالَ : « ٱلإِثْمُ حَوَّازُ ٱلقُلُوْبِ وَمَا كَانَ مِنْ نَظِيْرِهِ . . فَإِنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيْهَا مَطْمَعاً » . وإِسنادُهُ صحيحٌ رُوِّيناهُ في « مسند » ٱلمدني عن ٱبنِ مسعودٍ ، وكذا رواهُ ٱلطَّبرانيُّ موقوفاً اهـ .

قلتُ : وأَخرجَهُ أَبو نعيمٍ في « ٱلحليةِ » ، كذلكَ موقوفاً على عبدِ ٱللهِ بلفظ : « إِيَّاكُمْ وَحَزَائِزَ ٱلقُلُوْبِ ، وَمَا حَزَّ فِيْ قَلْبِكَ شَيْءٌ . . فَدَعْهُ » ، قالَ ٱلعراقيُّ : وقد وردَ معناهُ مرفوعاً في عدَّةِ أَحاديثَ . « إتحاف » (١/ ١٥٩) بتصرُّفٍ يسيرٍ . ويدلُّ عليهِ حديثُ ٱلنَّواسِ رضيَ ٱللهُ عنهُ عندَ مسلمٍ (٢٥٥٣) ، وٱلتِّرمذيّ (٢٣٨٩) : « ٱلإِثْمُ مَا حَاكَ فِيْ نَفْسِكَ » .

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : رواه عن عطية السعدي ٱلتِّرمذيُّ وحسَّنَهُ ، وٱبنُ ماجه ، وٱلحاكم وصحَّحَهُ .

تعالىٰ وإنْ كانَ يعلَمُ ويتحقَّقُ أنَّهُ لا يُفضي إلىٰ حرامٍ .

فهٰذِهِ ٱلدَّرجاتُ كلُّها خارجةٌ عَن نظرِ ٱلفقيهِ إلاَّ ٱلدَّرجةَ ٱلأُولىٰ ، وهوَ ورعُ ٱلشُّهودِ وٱلقُضاةِ ، وما يقدَحُ في ٱلعدالةِ ، وٱلقيامُ بذلكَ لا ينفي ٱلإثمَ في ٱلآخِرَةِ ، قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لوابصةَ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُ : « ٱسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، وَإِنْ أَفْتَوْكَ وأَفْتَوْكَ »[1] .

وٱلفقيهُ لا يتكلَّمُ في حَزَازاتِ ٱلقلوبِ وكيفيَّةِ ٱلعملِ بها ، بل فيما يقدَحُ في ٱلعدالةِ فقط .

فإذاً : جميعُ نظرِ ٱلفقيهِ مرتبطٌ بٱلدُّنيا ٱلَّتي بها صلاحُ طريقِ ٱلآخرةِ فإنْ تكلَّمَ في ٱلإثمِ وصفاتِ ٱلقلبِ وأحكامِ ٱلآخِرَةِ . . فذلكَ يَدخلُ في كلامهِ علىٰ سبيلِ ٱلتَّطفُّلِ ، كما قد يَدخلُ بكلامهِ في شيءٍ مِنَ ٱلطِّبِّ وٱلحسابِ وٱلنُّجومِ وعِلْمِ ٱلكلامِ ، وكما قد تدخلُ ٱلحِكمةُ في ٱلشِّعرِ وٱلنَّحوِ .

وكانَ سُفيانُ ٱلثَّوريُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ وهوَ إمامٌ في عِلْمِ ٱلظَّاهرِ يقولُ : (إنَّ طلبَ هٰذا ليسَ مِنْ زادِ ٱلآخرةِ) .

---

(١) أخرجَهُ عن وابصةَ بنِ معبدٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ أحمد في « مسنده » (٤/٢٢٨) ، والدَّارميّ (٢٤٣٨) ، وأبو يَعلىٰ في « المسند » (١٥٨٦) و(١٨٥٧) ، والطَّبرانيُّ في « الكبير » (٢٢/٤٠٣) .

كيفَ ، وقدِ ٱتَّفقوا علىٰ أَنَّ ٱلشَّرفَ[1] في ٱلعِلْمِ لِيُعمَلَ بهِ ، فكيفَ يُظَنُّ أَنَّهُ عِلْمُ ٱللِّعانِ وٱلظِّهارِ وٱلسَّلَمِ وٱلإجارةِ وٱلصَّرفِ ؟!

فمَنْ تعلَّمَ هـٰذهِ ٱلأُمورَ ليتقرَّبَ بتعاطيها إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ . . فهوَ مجنونٌ .

وإِنَّما ٱلعملُ بٱلقلبِ وٱلجوارحِ في ٱلطَّاعاتِ ، وٱلشَّريفُ هوَ عِلْمُ تلكَ ٱلأَعمالِ .

فإِنْ قلتَ : فقد سَوَّيتَ بينَ ٱلفقهِ وٱلطِّبِّ ، إِذِ ٱلطِّبُّ أَيضاً يتعلَّقُ بٱلدُّنيا وهوَ لصحَّةِ ٱلجسدِ ، وذلكَ يتعلَّقُ بهِ أَيضاً صلاحُ ٱلدِّينِ ، وهـٰذهِ ٱلتَّسويةُ تخالِفُ إِجماعَ ٱلمسلمينَ ؟

. . **فٱعلَمْ** : أَنَّ ٱلتَّسويةَ غيرُ لازمةٍ ، بلْ بينَهُما فرقٌ ، فإِنَّ ٱلفقهَ أَشرفُ منهُ مِنْ ثلاثةِ أَوجُهٍ :

أَحدُها : أَنَّهُ عِلْمٌ شرعيٌّ ؛ أَي : هوَ مُستفادٌ مِنَ ٱلنُّبوَّةِ ، بخلافِ ٱلطِّبِّ[2] فإِنَّهُ ليسَ مِنْ عِلمِ ٱلشَّرعِ .

ٱلثَّاني : أَنَّهُ لا يستغني عنهُ أَحَدٌ مِنْ سالكِيْ طريقِ ٱلآخرةِ ، لا ٱلصَّحيحُ ، ولا ٱلمريضُ ، وأَمَّا ٱلطِّبُّ : فلا يَحتاجُ إِليهِ إِلاَّ ٱلمرضىٰ ؛ وهُمُ ٱلأَقلُّونَ .

---

(١) أَي : ٱلمقصودَ .

(٢) لذا قيلَ : شتَّانَ بينَ عِلمِ ٱلأَديانِ وعِلمِ ٱلأَبدانِ ، وفي كلٍّ خيرٌ .

ٱلثَّالثُ : أَنَّ عِلْمَ ٱلفقهِ مُجاورٌ لعِلْمِ طريقِ ٱلآخرةِ ؛ لأَنَّهُ نظرٌ في عِلْمِ ٱلجوارحِ ، ومنشأُ أعمالِ ٱلجوارحِ ، ومصدرُها . . صفاتُ ٱلقلبِ ، وٱلمحمودُ مِنَ ٱلأَعمالِ تَصدُرُ عَنِ ٱلأَخلاقِ ٱلمحمودَةِ ٱلمُنجيَةِ في ٱلآخِرَةِ ، وٱلمَذمومُ يَصدُرُ مِنَ ٱلمذمومِ ، وليسَ يخفىٰ ٱتِّصالُ ٱلجوارحِ بٱلقلبِ ، وأمَّا ٱلصِّحَّةُ وٱلمرضُ : فمنشؤهما صفاتٌ في ٱلمِزاجِ[1] وٱلأَخلاطِ ، وذلكَ مِنْ أَوصافِ ٱلبَدَنِ لا مِنْ أَوصافِ ٱلقلبِ ، ومهما أُضيفَ ٱلفقهُ إِلىٰ ٱلطِّبِّ . . ظَهَرَ شرفُهُ ، وإِذا أُضيفَ عِلْمُ طريقِ ٱلآخرةِ إِلىٰ ٱلفقهِ . . ظَهَرَ أَيضاً شرفُ عِلْمِ ٱلآخرةِ .

فإِنْ قلتَ : فَصِّل لي عِلْمَ طريقِ ٱلآخرةِ تفصيلاً يشيرُ إِلىٰ تراجمهِ ، وإِنْ لَمْ يمكنِ ٱستقصاءُ تفاصيلهِ . .

فٱعلَمْ : أَنَّهُ قسمان : عِلْمُ مكاشفةٍ ، وعِلْمُ معاملةٍ .

فٱلقسمُ ٱلأَوَّلُ[2] : **عِلْمُ ٱلمُكاشفةِ** ؛ وهوَ عِلْمُ ٱلباطنِ ، وذلكَ غايةُ ٱلعلومِ ، فقد قالَ بعضُ ٱلعارفينَ : (مَنْ لَمْ يكُنْ لَهُ نصيبٌ مِنْ هٰذا ٱلعِلْمِ . . أَخافُ عليهِ سُوءَ ٱلخاتمةِ ، وأَدنىٰ ٱلنَّصيبِ منهُ ٱلتَّصديقُ بهِ ، وتسليمُهُ لأَهلهِ) .

---

(١) ٱلمِزَاجُ للبدنِ : ما رُكِّبَ عليهِ مِنَ ٱلطبَّائعِ .

(٢) فصَّلَ ٱلمصنِّفُ ٱلقسمَ ٱلأَوَّلَ ؛ وهوَ عِلْمُ ٱلمكاشفةِ ، وٱكتفىٰ بذكرِ ٱلقسمِ ٱلثَّاني وهوَ عِلْمُ ٱلمعاملةِ .

وقالَ آخرُ : (مَنْ كانَ فيهِ خَصلتانِ . . لَمْ يُفتَح عليهِ بشيءٍ مِن هـٰذا ٱلعِلْمِ : بدعةٌ أَو كِبْرٌ) .

وقيلَ : (مَنْ كانَ مُحِبّاً للدُّنيا ، أَو مُصِرّاً علىٰ هوىً . . لَمْ يتحقَقْ بهِ) ، وقد يتحقَّقُ بسائرِ ٱلعُلوم ، فأَقلُّ عقوبةِ مَنْ يُنكِرُهُ . . أَلاَّ يُرزقَ منهُ بشيءٍ ، ويُنْشَدُ علىٰ قوله (لا يُرزقُ منهُ شيئاً) :

وَٱرْضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبَتَهُ فَـذَاكَ ذَنْـبٌ عِقَـابُـهُ فِيْـهِ

وهوَ عِلمُ ٱلصِّدِّيقينَ وٱلمُقرَّبينَ ؛ أَعني عِلْمَ ٱلمكاشفةِ : وهوَ عبارةٌ عَنْ نورٍ يَظهرُ في ٱلقلبِ عندَ تطهيرِهِ وتزكيتهِ مِنَ ٱلصِّفاتِ ٱلمذمومةِ ، وتنكشِفُ مِنْ ذلكَ ٱلنُّورِ أُمورٌ كانَ يَسمَعُ مِنْ قَبلُ أَسماءَها فيتوهَّمُ لها معانيَ مُجملَةً غيرَ متَّضِحَةٍ . . وتتَّضِحُ إِذ ذاكَ حتَّىٰ تَحصُلَ ٱلمعرفةُ ٱلحقيقيَّةُ بذاتِ ٱللهِ ، وصفاتهِ ٱلتَّامَّاتِ ٱلباقياتِ ، وبأَفعالهِ ، وبحكمتهِ في خَلْقِ ٱلدُّنيا وٱلآخِرَةِ ووجهِ ترتيبهِ ٱلآخِرَةَ علىٰ ٱلدُّنيا ، وٱلمعرفةُ بمعنىٰ ٱلنُّبوَّةِ وٱلنَّبيِّ ، ومعنىٰ ٱلوحي ، ومعنىٰ لفظِ ٱلملائكةِ وٱلشَّياطينِ ، وكيفيَّةِ مُعاداةِ ٱلشيطانِ للإِنسانِ ، وكيفيَّةِ ظهورِ ٱلمَلَكِ للأَنبياءِ ، وكيفيَّةِ وصولِ ٱلوحي إِليهِم ، وٱلمعرفةُ بملكوتِ ٱلسَّماواتِ وَٱلأَرضِ ، ومعرفةُ ٱلقلبِ ، وكيفيَّةِ تصادُمِ جنودِ ٱلملائكةِ وٱلشَّياطينِ فيهِ ، ومعرفةُ ٱلفرقِ بينَ لَمَّةِ[1] ٱلمَلَكِ ولَمَّةِ ٱلشَّيطانِ ، ومعرفةُ ٱلآخرةِ ،

---

(١) اللَّمَّةُ : ٱلمسُّ وٱلشَّيءُ ٱلقليلُ ، يُقالُ : رجلٌ ملمومٌ ؛ أَي : به لَمَمٌ ، ويُقالُ : =

وٱلجنَّةِ ، وٱلنَّارِ ، وعذابِ ٱلقبرِ ، والصِّراطِ ، وٱلميزانِ ، وٱلحسابِ، ومعنىٰ قولِهِ: ﴿ . . كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1] .

ومعنىٰ قولهِ : ﴿ . . وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

ومعنىٰ لقاءِ ٱللهِ تعالىٰ وٱلنَّظرِ إلىٰ وجههِ ٱلكريمِ ، ومعنىٰ ٱلقربِ منهُ وٱلنُّزولِ في جوارِهِ ، ومعنىٰ حصولِ ٱلسَّعادةِ بمرافقةِ ٱلمَلأِ ٱلأعلىٰ ومقاربةِ ٱلملائكةِ وٱلنَّبيِّينَ ، ومعنىٰ تفاوُتِ درجاتِ أَهلِ ٱلجنانِ حتَّىٰ يُرىٰ بعضُهُم لبعضٍ كما يُرىٰ ٱلكوكبُ ٱلدُّرِّيُّ في جوفِ ٱلسَّماءِ[3] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا يطولُ تفصيلهُ .

إذ للنَّاسِ في معاني هـٰذهِ ٱلأُمورِ بعدَ ٱلتَّصديقِ بأُصولها . . مقاماتٌ شتَّىٰ ، وبعضُهُم يرىٰ أَنَّ جميعَ ذلكَ أَمثلةٌ ، وأَنَّ ٱلَّذي أَعَدَّ ٱللهُ لعبادِهِ ٱلصَّالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ ،

= أَصابت فلاناً مِنَ ٱلجنِّ لَمَّةٌ .

(١) سورة الإسراء : (١٤) .

(٢) سورة العنكبوت : (٦٤) .

(٣) كما جاءَ في ٱلحديثِ ٱلشَّريفِ عن أَبي سعيدٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ عندَ أَحمد (٣/ ٥٠) وفيهِ : « إِنَّ أَهْلَ عِلِيِّيْنَ لَيَرَاهُمْ مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُمْ كَمَا يُرَىٰ ٱلْكَوْكَبُ فِي أُفُقِ ٱلسَّمَاءِ » ولفظُ ٱلبخاريِّ (٣٢٥٦) ، ومسلمٍ (٢٨٣١) : « إِنَّ أَهْلَ ٱلْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ ٱلْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ ٱلْكَوْكَبَ ٱلدُّرِّيَّ ٱلْغَابِرَ مِنَ ٱلأُفُقِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ أَوِ ٱلْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ . . . » .

ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشَرٍ[1] ، وأَنَّهُ ليسَ معَ ٱلخَلْقِ مِنَ ٱلجنَّةِ إلاَّ ٱلصِّفاتِ وٱلأَسماءَ ، وبعضُهم يرىٰ أَنَّ بعضَها أَمثلةٌ ، وبعضَها يوافقُ حقائِقَها ٱلمفهومةَ مِنْ أَلفاظِها .

وكذلكَ يَرىٰ بعضُهُم أَنَّ منتهىٰ مَعرفةِ ٱللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ٱلاعترافُ بٱلعجزِ عَنْ معرفتهِ ، وبعضُهُمْ يدَّعي أُموراً عظيمةً في ٱلمعرفةِ بٱللهِ عزَّ وجلَّ وبعضُهُم يقولُ : حَدُّ معرفةِ ٱللهِ ما ٱنتهىٰ إِليهِ ٱعتقادُهُ جميعُ ٱلعوامِّ ، وهوَ أَنَّهُ موجودٌ ، عالِمٌ ، قادرٌ ، سَميعٌ ، بصيرٌ ، متكلِّمٌ ، فيعني بِعِلْمِ ٱلمكاشفةِ أَنْ يرتفعَ ٱلغطاءُ حتَّىٰ يتَّضحَ لَهُ جليَّةُ ٱلحقِّ مِنْ هـٰذهِ ٱلأُمورِ ٱتِّضاحاً يَجري مجرىٰ ٱلعِيانِ ٱلَّذي لا شكَّ فيهِ[2] ، وهـٰذا مُمكِنٌ في جَوْهَرِ ٱلإنسانِ ، لولا أَنَّ

---

(1) لِمَا أَخرجَ عن أَبي هُريرةَ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلبخاريُّ (٤٧٧٩) ، ومسلمٌ (٢٨٢٤) ، وأَحمد (٢/٤٣٨ و٤٩٥) ، وٱلتِّرمذيُّ (٣٢٩٢) وغيرهم وفيهِ : « قالَ ربُّكم عزَّ وجلَّ : ﴿أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ ٱلصَّالِحِيْنَ ، مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ﴾ » . هـٰذا نوعُ إِكرامٍ مِنَ ٱللهِ تعالىٰ لعبادهِ ٱلَّذينَ ٱصطفاهُم ، فمنحَهُم ما لا يعلمونَ من قبلُ ، مِنَ ٱلخيرِ ٱلوفيرِ وٱلنِّعَمِ ٱلجليلةِ .

(2) ومِنْ هـٰذا ٱلنَّحوِ ما قالَهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ لحارثةَ وقد سأَلَهُ : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ » ، قالَ : أَصبحتُ مؤمناً حقّاً . قالَ : « إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيْقَةٌ ، فَمَا حَقِيْقَةُ إِيْمَانِكَ ؟ » قالَ : عَزَفَتْ نَفسي عنِ ٱلدُّنيا ، فأَسهرتُ ليلي ، وأَظمأْتُ نهاري ، وكأَنِّي أَنظُر إِلىٰ عرشي ربِّي بارزاً ، وإِلىٰ أَهلِ ٱلجنَّةِ يتزاورونَ فيها ، وإِلىٰ أَهلِ ٱلنَّارِ يعذَّبونَ فيها ، فقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « عَبْدٌ=

مِرآةَ ٱلقلبِ قد تَراكمَ صَدَؤها وخبثُها بقاذوراتِ الدُّنيا .

وإنَّما نَعني بِعِلْم طريقِ ٱلآخِرَةِ : ٱلعلمَ بكيفيَّةِ تَصقيلِ هٰذهِ ٱلمِرآةِ عَنْ هٰذهِ ٱلخبائِثِ ٱلَّتي هيَ ٱلحجابُ عَنِ ٱللهِ سُبحانَهُ وتعالىٰ ، وعَن معرفةِ صفاتِهِ وَأَفعالِهِ ، وإنَّما تصفيَتُها وتطهيرُها بٱلكَفِّ عَنْ ٱلشَّهواتِ ، وٱلاقتداءِ بٱلأَنبياءِ عليهِمُ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ في جميعِ أَحوالِهم .

فبقدرِ ما ينجلي عَنِ ٱلقلبِ ، ويحاذي بهِ شَطرَ ٱلحقِّ . . تتلألأُ فيهِ حقائقهُ ، ولا سبيلَ إِليهِ إِلاَّ بٱلرِّياضةِ ٱلَّتي يأتي تفصيلُها في مواضعِها ، وبٱلتَّعلُّمِ ، وهٰذهِ هيَ ٱلعلومُ ٱلَّتي لا تُسَطَّرُ في ٱلكُتبِ[1] ، ولا يَتحدَّثُ بها مَنْ أَنعمَ ٱللهُ عليهِ بشيءٍ منها إِلاَّ معَ أَهلِها ، وهوَ ٱلمشاركُ فيهِ علىٰ سبيلِ ٱلمذاكرةِ وبطريقِ ٱلإسرارِ .

وهٰذا هوَ ٱلعِلْمُ ٱلخفيُّ ٱلَّذي أَرادَهُ بقولهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ

= نَوَّرَ ٱللهُ قَلْبَهُ » أَخرجَهُ عن أَنسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلبَزّارُ في « كشف ٱلأَستارِ » (٣٢) .

(١) لأَنَّها علومٌ ذوقيَّةٌ كشفيَّةٌ ، تُدرَكُ عَنْ مشاهدةٍ لا عَنْ دليلٍ وبُرهانٍ ، وكتابُنا ٱلمسطورُ قد يقعُ في يدِ مَن كانَ أَهلاً لقراءتِهِ فيستفيد منه ، لكن إِنْ وَقَعَ في يدِ مَنْ لَمْ يكُنْ أَهلاً لمعرفتِهِ . . فقد يقعُ في حَيرةٍ عظيمةٍ يترتَّبُ عليها مفاسد ، نسأَلُهُ تعالىٰ ٱلعافيةَ . « إتحاف » (١/١٦٦) بتصرُّفٍ .

وسلَّمَ : « إِنَّ مِنَ ٱلْعِلْمِ . . كَهَيْئَةِ ٱلْمَكْنُوْنِ لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ أَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ بِٱللهِ تَعَالَىٰ »[1] .

فإذا نطقوا بهِ لَمْ يجهلْهُ إِلاَّ أَهلُ ٱلاغترارِ بٱللهِ تعالىٰ .

فلا تُحَقِّروا عالِماً آتاهُ ٱللهُ عِلْماً منهُ ، فإِنَّ ٱللهَ تعالىٰ لَمْ يُحَقِّرْهُ إِذْ آتاهُ إِيَّاهُ .

* * *

(١) قالَ ٱلعراقيُّ : رواهُ أَبو عبد ٱلرَّحمٰن ٱلسُّلميّ في « ٱلأَربعين » بإسنادٍ ضعيفٍ . كما في « إتحاف » (١/ ١٦٦) .

وَمِنْ كتابِ ٱلعِلْمِ[1] :

وٱلثَّالثُ - أَي : وٱلتَّوحيدُ ٱلثَّالثُ[2] - : وهوَ ٱللُّبابُ ، أَنْ يَرىٰ ٱلأُمورَ كلَّها مِنَ ٱللهِ تعالىٰ رؤيةً تقطعُ ٱلتفاتَهُ عَنِ ٱلوسائِطِ ، وأَنْ يعبُدَهُ عبادةً يُفرِدُهُ ، بها فلا يعبُدُ غيرَهُ .

ويخرجُ عَنْ هـٰذا ٱلتَّوحيدِ : ٱتِّباعُ ٱلهوىٰ ، فكلُّ متَّبعٍ هواهُ فقدِ ٱتَّخذَ هواهُ معبودَهُ .

قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ . . ﴾[3] .

---

(١) كما في « الإحياء » (١/٥٦) .

(٢) ٱلتَّوحيدُ : جوهَرٌ نفيس ، ولَهُ قِشرانِ ، أَحدُهُما أَبعدُ عَنِ ٱللُّبِّ مِنَ ٱلآخَرِ ، فخصَّصَ ٱلنَّاسُ ٱلاسمَ بٱلقشرِ ، وبصنعةِ ٱلحراسةِ للقشرِ ، وأَهملوا ٱللُّبَّ بٱلكُلِّيَّةِ .
فٱلقِشرُ ٱلأَوَّلُ : هوَ أَنْ تقولَ بلسانِكَ (لا إِلَٰهَ إِلاَّ ٱللهُ) ، وهـٰذا يسمَّىٰ توحيداً مناقِضاً للتَّثليثِ ٱلَّذي صرَّحَ بهِ النصَّارىٰ ، ولـٰكنَّهُ قد يصدُرُ مِنَ ٱلمنافِقِ ٱلَّذي يُخالِفُ سرَّهُ جهرُهُ .
وٱلقِشرُ ٱلثَّاني : أَنْ لايكونَ في ٱلقلبِ مخالفةٌ وإنكارٌ لمفهومِ هـٰذا ٱلقولِ ، بل يشتمِلُ ظاهِرُ ٱلقلبِ علىٰ ٱعتقادِهِ ، وكذلكَ ٱلتَّصديقُ بهِ ؛ وهوَ توحيدُ عوامِّ ٱلخَلْقِ ، وٱلمتكلِّمونَ كما سبقَ حُرَّاسُ هـٰذا ٱلقِشرِ عَنْ تشويشِ ٱلمبتدعَةِ .
وٱلثَّالثُ : وهوَ ٱللُّبابُ ، وهوَ ما ذكرَهُ ٱلمصنِّفُ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَعلاهُ .

(٣) سورة الجاثية : (٢٣) .

وقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَبْغَضُ إِلَـٰهٍ عُبِدَ فِيْ ٱلأَرْضِ عِنْدَ ٱللهِ هُوَ ٱلْهَوَىٰ »[١] .

وعلىٰ ٱلتَّحقيقِ : مَنْ تأَمَّلَ . . عَرَفَ أَنَّ عابدَ ٱلصَّنمِ ليسَ يعبُدُ ٱلصَّنمَ ، إِنَّما يعبُدُ هواهُ ، إِذ نفسُهُ مائِلةٌ إِلىٰ دينِ آبائِهِ ، فيتَّبعُ ذلكَ ٱلميلَ ، وميلُ ٱلنَّفسِ إِلىٰ ٱلمألوفِ أَحدُ ٱلمعاني ٱلَّتي يعبَّرُ عنها بٱلهوىٰ .

ويخرُجُ مِنْ هـٰذا ٱلتَّوحيدِ : ٱلتَّسخُّطُ علىٰ ٱلخَلْقِ ، وٱلالتفاتُ إِليهم، فإِنَّ مَنْ يرىٰ ٱلكُلَّ مِنَ ٱللهِ تعالىٰ . . كيفَ يسخَطُ علىٰ غيرِهِ؟!

فلقد كانَ هـٰذا ٱلتَّوحيدُ عبارةً عَنْ هـٰذا ٱلمَقامِ ، وهوَ مَقامُ ٱلصِّدِّيقينَ .

فٱنظُر إِلىٰ ماذا حُوِّلَ ؟! وبأَيِّ قِشْرٍ قُنِعَ منهُ ؟! وكيفَ ٱتَّخذوا هـٰذا مُعْتَصَماً في ٱلتَّمدُّحِ وٱلتَّفاخُرِ بما ٱسمُهُ محمودٌ معَ ٱلإِفلاسِ عَنِ ٱلمعنىٰ ٱلَّذي يَستحِقُّ ٱلحَمدَ ٱلحقيقيَّ ؟!

وذلكَ كإِفلاسِ مَنْ يُصبحُ بُكرةً ويتوجَّهُ إِلىٰ ٱلقِبلةِ ، ويقولُ : (وجهتُ وجهيَ للَّذي فَطَرَ ٱلسَّماواتِ وٱلأَرضَ) وهوَ أَوَّلُ كذبٍ يُفاتحُ ٱللهَ تعالىٰ بهِ كلَّ يومٍ ، إِنْ لَمْ يكُنْ وجهُ قلبهِ متوجِّهاً إِلىٰ ٱللهِ

---

(١) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أَخرجَهُ من روايةِ أَبي أُمامةَ رضيَ ٱللهُ عنهُ الطَّبرانيُّ ، كما في « الإتحاف » (١/٢٣٨) .

تعالىٰ علىٰ ٱلخصوصِ ، فإِنَّهُ إِنْ أَرادَ بٱلوجهِ وجْهَ ٱلظَّاهِرِ . . فما وجَّهَ وجهَهُ إِلاَّ إِلىٰ ٱلكعبةِ ، وما صَرَفَهُ إِلاَّ عَنْ سائرِ ٱلجهاتِ ، وٱلكعبةُ ليست جهةً للَّذي فَطَرَ ٱلسَّماواتِ وٱلأَرضَ حتَّىٰ يكونَ ٱلمتوجِّهُ إِليها متوجِّهاً إِليهِ .

تعالىٰ عَنْ أَنْ تحدَّهُ ٱلجهاتُ وٱلأَقطارُ .

وإِنْ أَرادَ بهِ وجهَ ٱلقلبِ وهوَ ٱلمطلوبُ ٱلمتعبَّدُ بهِ . . فكيفَ يَصْدُقُ في قولهِ ، وقلبُهُ مُتَردِّدٌ في أَوطارِهِ وحاجاتِهِ ٱلدُّنيويَّةِ ، ومُتَصرِّفٌ في طلبِ ٱلحِيَلِ في جَمْعِ ٱلأَموالِ وٱلجاهِ وٱستكثارِ ٱلأَسبابِ ، ومتوجِّهٌ بٱلكُلِّيَّةِ إِليها؟!

فمتىٰ وجَّهَ وجهَهُ للَّذي فطَرَ ٱلسَّماواتِ وَٱلأَرضَ ؟!

وهٰذهِ ٱلكلمةُ هيَ خَبَرٌ عَنْ حقيقةِ ٱلتَّوحيدِ[1] .

فٱلموحِّدُ : هوَ ٱلَّذي لا يرىٰ إِلاَّ ٱلواحدَ[2] ، ولا يوجِّهُ وجهَهُ إِلاَّ إِليهِ ، وهوَ ٱمتثالُ قولهِ تعالىٰ : ﴿ . . قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[3] .

---

(١) لكونها مشيرةً إِلىٰ ٱلإِخلاصِ في ٱلتَّوجُّهِ وٱلإِمحاضِ في ٱلعبوديَّةِ وٱلتَّحرِّي في ٱلاستقامةِ . « إتحاف » (١/ ٢٣٩) .

(٢) أَي : لا يرىٰ ٱلشَّيءَ مِنْ حيثُ هوَ ، وإِنَّما يراهُ مِنْ حيثُ أَوجدَهُ ٱللهُ تعالىٰ بٱلقدرَةِ ، وميَّزَهُ بٱلإِرادةِ علىٰ سابقِ ٱلعِلْمِ ٱلقديمِ . « إتحاف » (١/ ٢٣٩) .

(٣) سورة الأنعام : (٩١) .

وليسَ ٱلمرادُ بهِ ٱلقولَ بٱللِّسانِ ، فإِنَّما ٱللِّسانُ تُرجُمانٌ ، يَصْدُقُ مرَّةً ويَكْذِبُ أُخرىٰ ، وإِنَّما موقعُ نَظَرِ ٱللهِ هوَ المُترجِمُ عنهُ ، وهوَ ٱلقلبُ ، وهوَ مَعْدِنُ التَّوحيدِ ومنبعُهُ .

* * *

وَمِنْ كتابِ ٱلحجِّ[1] :

بيانُ ٱلأَعمالِ ٱلباطنةِ ، ووجهُ ٱلإخلاصِ في ٱلنِّيَّةِ ، وطرقُ ٱلاعتبارِ بٱلمشَاهدِ ٱلشَّريفةِ ، وكيفيَّةُ ٱلافتكارِ فيها ، وٱلتَّذكُّرِ لأَسرارِها ومعانيها مِنْ أَوَّلِ ٱلحجِّ إِلىٰ آخرِهِ .

اِعلَمْ : أَنَّ أَوَّلَ ٱلحجِّ : ٱلفهمُ ، أَعني فهمَ ٱلحجِّ مِنَ ٱلدِّينِ ، ثُمَّ ٱلشَّوقُ إِليهِ ، ثُمَّ ٱلعزمُ عليهِ ، ثُمَّ قطعُ ٱلعلائِقِ ٱلمانعةِ منهُ ، ثُمَّ شراءُ ثوبَي ٱلإحرامِ ، ثُمَّ شراءُ الزَّادِ ، ثُمَّ ٱكتراءُ[2] ٱلدَّابَّةِ ٱلرَّاحِلَةِ ، ثُمَّ ٱلخروجُ ، ثُمَّ ٱلسَّيرُ في ٱلباديةِ ، ثُمَّ ٱلإحرامُ مِنَ ٱلميقاتِ بٱلتَّلبيةِ ، ثُمَّ دخُولُ (مكَّةَ) ، ثُمَّ ٱستتمامُ ٱلأَفعالِ كما سَبَقَ .

وفي كلِّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ ٱلأُمورِ تذكِرةٌ للمُتَذكِّرِ ، وعبرةٌ للمُعتبرِ ، وتنبيهٌ للمريدِ ٱلصَّادقِ ، وتعريفٌ وإِشارةٌ للفَطِنِ ، فلنَرمِزْ إِلى مفاتِحها ، حتَّىٰ إِذا ٱنفتحَ بابُها ، وَعُرِفَتْ أَسبابُها . ٱنكشَفَ لكلِّ حاجٍّ مِنْ أَسرارِها ما يقتضيهِ صفاءُ قلبِهِ ، وطهارةُ باطنِهِ ، وغزارةُ علمِهِ .

أَمَّا ٱلفهمُ : فٱعلَمْ أَنَّهُ لا وصولَ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ إِلاَّ بٱلتَّنَزُّهِ عَنِ

---

(١) كما في « الإحياء » (٣/ ٤٨١) .

(٢) ٱلاكتراءُ : ٱلاستئجارُ .

ٱلشَّهواتِ ، وٱلكَفِّ عَنِ ٱللَّذَّاتِ ، وٱلاقتصارِ علىٰ ٱلضَّروراتِ فيها ، وٱلتَّجرُّدِ إلىٰ ٱللهِ سُبحانهُ وتعالىٰ في جميعِ ٱلحركاتِ وٱلسَّكناتِ ، ولأَجلِ هـٰذا ٱنفردَ ٱلرُّهبانُ في ٱلمِلَلِ ٱلسَّالفةِ عَنِ ٱلخَلْقِ ، وٱنحازوا إلىٰ قِمَمِ ٱلجبالِ ، وآثروا ٱلتَّوحُّشَ عَنِ ٱلخَلْقِ ؛ لطلبِ ٱلأُنسِ بٱللهِ عزَّ وجلَّ ، فتَركوا للهِ عزَّ وجلَّ ٱللَّذَّاتِ ٱلحاضِرةَ ، وأَلزموا أَنفسَهُمْ ٱلمجاهداتِ ٱلشَّاقَّةَ طمعاً في ٱلآخِرَةِ ، فأَثنىٰ ٱللهُ عزَّ وجلَّ عليهِم في كتابهِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ .. ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1] .

فلمَّا ٱندرسَ ذلكَ ، وأَقبلَ ٱلخَلْقُ علىٰ ٱتِّباعِ ٱلشَّهواتِ ، وهَجَروا ٱلتَّجرُّدَ لعبادةِ ٱلله تعالىٰ ، وفتروا عنها .. بعثَ ٱللهُ تعالىٰ مُحمَّداً صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ؛ لإحياءِ طريقِ ٱلآخرةِ ، وتجديدِ سُنَّةِ ٱلمُرسلينَ في سلوكها ، فسأَلَهُ أَهلُ ٱلمِلَلِ عَنِ ٱلرَّهبانيَّةِ وٱلسِّياحةِ في دينِهِ ، فقالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَبْدَلَنَا ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ ٱلْجِهَادَ وَٱلتَّكْبِيْرَ عَلَىٰ كُلِّ شَرَفٍ »[2] ، يعني ٱلحجَّ .

---

(١) سورة المائدة : (٨٢) .

(٢) أخرجَهُ من حديثِ أَبي أُمامة رضيَ ٱللهُ عنهُ أبو داوود ، والبيهقي في « الشُّعب » (٩٧٦١) ونحوه (٤٢٢٧) من حديثِ أَنسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ : « رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِيْ ٱلْجِهَادُ فِيْ سَبِيْلِ ٱللهِ » .

وسُئِلَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَنِ ٱلسَّائحينَ فقالَ : « هُمُ ٱلصَّائمونَ »[1] .

فأَنعمَ ٱللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ هـٰذهِ ٱلأُمَّةِ بأَنْ جعلَ ٱلحجَّ رهبانيةً[2] لَهُم ، وشرَّفَ ٱلبيتَ ٱلعتيقَ بٱلإضافةِ إلىٰ نفسهِ ، وَنَصَبَهُ مقصداً للعبادةِ ، وجعلَ ما حواليهِ حَرَماً لبيتهِ تفخيماً لأَمرهِ ، وجعلَ عرفاتٍ كٱلمَيْدانِ علىٰ فِناءِ حَرَمِهِ ، وأَكَّدَ حُرمَةَ ٱلموضعِ بتحريمِ صَيْدِهِ وشجرِهِ ، وَوَضَعَهُ علىٰ مثالِ حضرةِ ٱلملوكِ ، يقصدُهُ ٱلزُّوَّارُ مِنْ كُلِّ فجٍّ عميقٍ ، ومِنْ كلِّ أَوْبٍ سَحيقٍ ، شُعُثاً غُبراً ، متواضعينَ لربِّ ٱلبيتِ ، ومُستكينينَ لَهُ خُضُوعاً لجلالهِ ، وٱستكانةً لِعزَّتهِ معَ ٱلاعترافِ بتنزُّهِهِ عَنْ أَنْ يحويَهُ بيتٌ أَو يكتنِفَهُ بلدٌ ؛ ليكونَ ذلكَ أَبلغَ في رِقِّهم وعبوديَّتِهِم ، وأَتَمَّ في إِذْعانِهم وٱنقيادِهم ، ولذلكَ وظَّفَ عليهِم فيها أَعمالاً لا تأْنَسُ لها ٱلنُّفوسُ ، ولا تهتدي إلىٰ معانيها ٱلعقولُ ، كرمي ٱلجِمَارِ بٱلأَحجارِ ، وٱلتَّردُّدِ بينَ ٱلصَّفا وٱلمَروةَ علىٰ سبيلِ ٱلتَّكرارِ ، وبمثلِ هـٰذهِ ٱلأَعمالِ يظهرُ كمالُ

---

(١) أخرجهُ عن أبي هريرة رضيَ ٱللهُ عنهُ البيهقيُّ في « ٱلشُّعَب » (٣٥٧٨) ، روى موصولاً والمحفوظ عن عبيد بن عمير عن النبي صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّم مرسلاً ، والحاكم في « المستدرك » وهو صحيح .

(٢) أَي : بمنزلتِها ؛ لِمَا في كلٍّ منهُما مِنْ قطعِ المألوفاتِ والمستلذَّاتِ مِنَ سائِرِ ٱلأنواعِ . « إتحاف » (٤/ ٤٤٣) .

ٱلرِّقِّ وٱلعبوديةِ ، فإِنَّ ٱلزَّكاةَ إِرفاقٌ[1] ، ووجهُها مفهومٌ ، وللعقلِ إِليها مَيْلٌ ، وٱلصَّومُ كَسرٌ للشَّهوةِ ٱلَّتي هيَ آلةُ ٱلشَّيطانِ عدوِّ ٱللهِ عزَّ وجلَّ وتفرُّغٌ للعباداتِ بٱلكفِّ عَنِ ٱلشَّواغِلِ ، وٱلرُّكوعُ وٱلسُّجودُ في ٱلصَّلاَةِ . . تواضعٌ للهِ سبحانَهُ بأَفعالٍ هيَ هيئاتُ ٱلتَّواضُعِ ، وللنُّفوسِ أُنسٌ بتعظيمِ ٱللهِ تعالىٰ بذلكَ .

فأَمَّا تَرَدُّدُ ٱلسَّعيِ ورَميُ ٱلجِمارِ وأَمثالُ هـٰذهِ ٱلأَفعالِ : فلا حَظَّ للنَّفسِ فيها ، ولا أُنسَ للطَّبعِ فيها ، ولا ٱهتداءَ للعقلِ إِلىٰ معانيها ، فلا يكونُ في ٱلإِقدامِ عليها باعثٌ إِلاَّ ٱلأَمرَ ٱلمجرَّدَ ، وقصدَ ٱلامتثالِ للأَمرِ مِنْ حيثُ إِنَّهُ أَمرٌ واجبُ ٱلاتِّباعِ فقط ، وفيهِ عَزْلُ ٱلعقلِ تَصَرُّفَهُ ، وصرفُ ٱلنَّفسِ وٱلطَّبعِ عَنْ محلِّ أُنسهِ .

فإِنَّ كلَّ ما أَدركَ ٱلعقلُ معناهُ . . مالَ ٱلطَّبعُ إِليهِ مَيْلاً ما ، فيكونُ ذلكَ ٱلمَيلُ مُعيناً للأَمرِ وباعثاً معهُ علىٰ ٱلفعلِ ، فلا يَكادُ يَظهرُ بهِ كمالُ ٱلرِّقِّ وٱلانقيادِ .

ولذلكَ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ في ٱلحجِّ علىٰ ٱلخُصوصِ : « لَبَّيْكَ بِحَجَّةٍ حَقّاً ، تَعَبُّداً وَرِقّاً »[2] ، وَلَمْ يقُلْ ذلكَ في صلاةٍ ولا غيرِها .

---

(١) أَي : بذلُ ما فيهِ ٱلرِّفقُ لفقراءِ ٱلمسلمينَ .

(٢) قالَ ٱلعراقيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : أَخرجه من حديثِ أنسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلبزَّار والدارقطني في « ٱلعِلَل » كما في « مجمع ٱلزَّوائد » (٣/ ٢٢٣) ، وٱلحاكمُ في=

فإذا ٱقتضت حِكمتُهُ سبحانَهُ ربطَ نجاةِ ٱلخَلْقِ بأَنْ يكونَ أَعمالَهم علىٰ خلافِ هوىٰ طباعِهم ، وأَن يكونَ زِمامُها بيدِ ٱلشَّرعِ ، فيتردَّدونَ في أَعمالِهِمْ علىٰ سَنَنِ ٱلانقيادِ ، وعلىٰ مُقتضىٰ ٱلاستعبادِ . . كانَ ما يُهتدىٰ إِلىٰ معانيهِ أَبلغَ أَنواعِ ٱلتَّعبُّداتِ في تزكيةِ ٱلنُّفوسِ وصرفِها عَنْ مقتضىٰ ٱلطِّباعِ وٱلأَخلاقِ إِلىٰ مُقتضىٰ ٱلاسترقاقِ ، وإِذا تفطَّنْتَ لهـٰذا . . فهِمْتَ أَنَّ تعجُّبَ ٱلنُّفوسِ مِنْ هـٰذهِ ٱلأَفعالِ ٱلعجيبةِ مصدرُهُ ٱلذُّهولُ عَنْ أَسرارِ ٱلتَّعبُّداتِ .

وهـٰذَا ٱلقدرُ كافٍ في تَفهُّمِ أَصلِ ٱلحجِّ .

أَمَّا ٱلشَّوقُ : فإِنَّما يُبْعَثُ بعدَ ٱلفهمِ وٱلتَّحقيقِ بأَنَّ ٱلبيتَ بيتُ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وأَنَّهُ وُضِعَ علىٰ مثالِ حضرةِ ٱلملوكِ ، فقاصِدُهُ قاصِدٌ إِلىٰ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وزائرٌ لَهُ ، وأَنَّ مَنْ قصدَ ٱلبيتَ في ٱلدُّنيا . . جديرٌ بأَنْ لا تضيعَ زيارتُهُ ، فيُرزَقُ مقصودَ ٱلزِّيارةِ في ميعادِهِ ٱلمضروبِ لَهُ ، وهوَ ٱلنَّظرُ إِلىٰ وجهِ ٱللهِ ٱلكريمِ في دارِ ٱلقرارِ ، مِنْ حيثُ إِنَّ ٱلعينَ ٱلقاصرةَ ٱلفانيةَ في دارِ ٱلدُّنيا لا تتهيَّأُ لقَبولِ نورِ ٱلنَّظرِ إِلىٰ وجهِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا تُطيقُ ٱحتمالَهُ ، ولا تستعِدُّ للاكتحالِ بهِ ؛ لقصورِها ، فإِنَّها إِنْ أُمِدَّتْ في ٱلدَّارِ ٱلآخِرَةِ بٱلبقاءِ ، ونُزِّهَتْ عَنْ أَسبابِ ٱلتَّغييرِ وٱلفناءِ . . ٱستعدَّتْ

= « معرفة علوم الحديث » (ص/ ٣١٢) ، و« تلخيص الحبير » (٢/ ٢٥٦) ، و« كنز العمَّال » (١٢٤١٦) وزاد عزوه لابن عساكر وابن النجار .

للنَّظرِ والإبصارِ ، ولـٰكنَّها تقصِدُ البيتَ والنَّظرَ إليهِ ؛ لتستحقَّ لقاءَ ربِّ البيتِ بحُكمِ الوعدِ الكريمِ .

والشَّوقُ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، يسوقُهُ إلىٰ أسبابِ اللِّقاءِ لا محالةَ ، هـٰذا معَ أنَّ المُحِبَّ مشتاقٌ إلىٰ كُلِّ ما لَهُ إلىٰ محبوبهِ إضافةٌ ، والبيتُ مضافٌ إلىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فما أحرىٰ أنْ يشتاقَ إليهِ بمجرَّدِ هـٰذهِ الإضافةِ ، فضلاً عَنِ الطَّلبِ ، لينالَ ما وُعِدَ عليهِ مِنَ الثَّوابِ الجزيلِ .

وأمَّا العزمُ : فليَعلمْ أنَّهُ بعزمهِ قاصدٌ إلىٰ مُفارقةِ الأهلِ والوطنِ ، ومُهاجَرةِ الشَّهواتِ واللَّذاتِ ، مُتوجِّهٌ إلىٰ زيارةِ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فليُعظِّمْ في نفسهِ قَدرَ البيتِ ؛ لقدرِ رَبِّ البيتِ ، وليَعلَمْ أنَّهُ عَزَمَ علىٰ أمرٍ رفيعٍ شأْنُهُ ، خطيرٍ أَمرُهُ ، وأَنَّ مَنْ طَلَبَ عظيماً خاطرَ بعظيمهِ ، وليَجعَلْ عزمَهُ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بعيداً عَنْ شوائِبِ الرِّياءِ والسُّمعةِ ، وليتحقَّقْ أنَّهُ لا يُقبَلُ مِنْ قصدِهِ وعملهِ إلاَّ الخالِصُ لوجهِ اللهِ تعالىٰ وأَنَّ مِنْ أفحشِ الفواحشِ أَنْ يقصِدَ بيتَ المَلِكِ وَحَرَمَهُ والمقصودُ غيرُهُ .

فليُصحِّح معَ نفسهِ العزمَ ، وتصحيحُهُ بالإخلاصِ ، وإخلاصُهُ باجتنابِ كُلِّ ما فيهِ رِياءٌ وسُمعةٌ ، وليَحذَرْ أَنْ يستبدِلَ الَّذي هوَ أَدنىٰ بالَّذي هوَ خيرٌ .

وأمَّا قطعُ العلائِقِ : فمعناهُ رَدُّ المظالمِ ، والتَّوبةُ الخالصةُ للهِ

تعالىٰ عَنْ جُملةِ ٱلمعاصي ، فكلُّ مظلمةٍ عَلاقةٌ ، وكلُّ علاقةٍ مِثْلُ غريمٍ حاضرٍ متعلِّقٍ بتلابيبهِ[1] ، يُنادي عليهِ ويقولُ لهُ : أَينَ تتوجَّهُ ؟ أَتقصِدُ بيتَ مَلِكِ ٱلملوكِ وأَنتَ مضيِّعٌ أَمْرَهُ في منزِلكَ هٰذا ، ومستهينٌ بهِ ومُهمِلٌ له[2] ؟

أَوَلاَ تستحي أَنْ تَقْدُمَ عليهِ قُدومَ ٱلعبدِ ٱلعاصي فيرُدَّكَ ولا يقبلَكَ ؟!

وإِنْ كُنتَ راغِباً في قَبولِ زيارتِكَ . . فنفِّذ أَوامرَهُ ، ورُدَّ ٱلمَظالمَ ، وتُبْ إِليهِ أَوَّلاً مِنْ جميعِ ٱلمعاصي ، وٱقطَعْ علائقَ قلبِكَ عَنِ ٱلالتفاتِ إِلىٰ ما وراءَكَ ؛ لتكونَ متوجِّهاً إِليهِ بوجهِ قلبكَ ، كما أَنَّكَ متوجِّهٌ إِلىٰ بيتهِ بوجهِ ظاهركَ ، فإِنْ لَمْ تفعَلْ ذلكَ لَمْ يكُنْ لكَ مِنْ سفرِكَ أَوَّلاً إِلاَّ ٱلنَّصَبُ وٱلشَّقاءُ ، وآخِراً إِلاَّ ٱلطَّردُ وٱلرَّدُّ .

ولْيقطعِ ٱلعلائِقَ عَنْ وطنهِ قَطْعَ مَنِ ٱنقطعَ عنهُ ، وقدَّرَ أَلاَّ يعودَ إِليهِ ، وليَكتُبْ وصيَّةً لأَهلهِ وأَولادهِ ، فإِنَّ ٱلمسافِرَ ومالَهُ لعَلىٰ قَلَتٍ[3] إِلاَّ مَنْ وَقاهُ ٱللهُ تعالىٰ .

وليتذكَّرْ عِندَ قطعِهِ ٱلعلائِقَ لِسفرِ ٱلحجِّ . . قطعَ ٱلعلائِقِ لسفرِ

---

(١) ٱلتَّلابيبُ ، يقالُ : لببهُ تلبيباً : جمَع ثيابَهُ عندَ نحرِهِ في ٱلخصومةِ ثُمَّ جرَّهُ .

(٢) أَي : بٱرتكابِ محظوراتِهِ ومنهيَّاتِهِ ومخالفةِ مأموراتهِ .

(٣) أَي : هلاك .

ٱلآخرةِ ، فإِنَّ ذلكَ بينَ يديهِ علىٰ ٱلقُربِ ، وما تقدَّمَهُ مِنْ هـٰذا ٱلسَّفرِ فهوَ طمعٌ في تيسيرِ ذلكَ ٱلسَّفرِ ، فهوَ ٱلمستقرُّ وإِليهِ ٱلمصيرُ .

ولا يَنبغي أَنْ يغفُلَ عَنْ ذلكَ ٱلسَّفرِ عندَ ٱلاستعدادِ لهـٰذا ٱلسَّفرِ .

وأَمَّا ٱلزَّادُ : فيطلُبَهُ مِنْ مَوْضِعِ ٱلحلالِ إِذا أَحسَّ مِنْ نفسهِ ٱلحِرصَ علىٰ ٱستكثارِهِ ، وطلبَ ما يبقىٰ مِنهُ علىٰ طولِ ٱلسَّفرِ ، ولا يتغيَّرُ ولا يفسدُ قبلَ بلوغِ ٱلمقصدِ ، فليتذكَّرْ أَنَّ سفرَ ٱلآخِرَةِ أَطولُ مِنْ هـٰذا ٱلسَّفرِ ، وأَنَّ زادَهُ ٱلتَّقوىٰ ، وأَنَّ ما عداهُ ممَّا يُظَنُّ أَنَّهُ زادٌ يتخلَّفُ عنهُ عِندَ ٱلموتِ ، ويخونُهُ ولاَ يبقىٰ معهُ ، كٱلطَّعامِ ٱلرَّطْبِ ٱلَّذي يَفْسُدُ في أَوَّلِ منازِلِ ٱلسَّفرِ ، فيبقىٰ وقتَ ٱلحاجةِ متحيِّراً مُحتاجاً لا حيلةَ لهُ ، فليَحذَرْ أَنْ تكونَ أَعمالُهُ ٱلَّتي هيَ زادُهُ إِلىٰ ٱلآخِرَةِ لا تصحبُهُ بعدَ ٱلموتِ ؛ لِما أَفسدَها بهِ مِنْ شوائِبِ ٱلرِّياءِ ، وكُدوراتِ ٱلتَّقصيرِ .

وأَمَّا ٱلرَّاحلةُ : إِذا أَحضرَها فلْيَشكُرِ ٱللهَ تعالىٰ علىٰ تسخيرِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ لَهُ ٱلدَّوابَّ ؛ لتحمِلَ عنهُ ٱلأَذىٰ ، وتخفِّفَ عنهُ ٱلمشقَّةَ ، وليتذكَّرْ عندَ ٱلمركَبِ ٱلَّذي يركبُهُ مركوبَهُ إِلىٰ ٱلدَّارِ ٱلآخِرَةِ ، وهيَ ٱلجِنازةُ ٱلَّتي يُحمَلُ عليها .

فإِنَّ أَمرَ ٱلحجِّ مِنْ وجهٍ يُوازي أَمرَ ٱلسَّفرِ إِلىٰ ٱلآخِرَةِ ، ولينظُرْ

أَيَصْلُحُ سفرُهُ علىٰ هـٰذا ٱلمركبِ لأَنْ يكونَ زاداً لذلكَ ٱلسَّفرِ علىٰ ذلكَ ٱلمركبِ ؟

وما أَقربَ ذلكَ منهُ وما يُدريهِ لعلَّ ٱلموتَ قريبٌ ، فيكونُ ركوبُهُ للجِنازةِ قبلَ رُكوبهِ للحمارِ ، وركوبُ ٱلجِنازةِ مقطوعٌ بهِ ، وتيسيرُ أَسبابِ ٱلسَّفرِ مشكوكٌ فيهِ .

فكيفَ يَحتاطُ في أَسبابِ ٱلسَّفرِ ٱلمشكوكِ فيهِ ، ويستظهِرُ في زادهِ وراحلتهِ ويُهمِلُ أَمرَ ٱلسَّفَرِ ٱلمستبينِ ؟!

وأَمَّا شراءُ ثَوبَيِ ٱلإحرام : فلْيتذكَّر عِندهُ ٱلكَفَنَ ، ولَفَّهُ فيهِ ، فإِنَّهُ سَيَرتدي ويأْتزرُ بثوبيِ ٱلإحرام عندَ ٱلقُربِ مِنْ بيتِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، وربَّما لا يتمِّمُ سَفَرَهُ إِليهِ ، فَإِنَّهُ سيَلقىٰ ٱللهَ عزَّ وجلَّ مَلفوفاً في ثيابِ ٱلكَفَنِ لا محالةَ .

فكما لا يَلقىٰ بيتَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ إِلاَّ مُخالفاً عادتَهُ في ٱلزِّيِّ وٱلهيئةِ . . فلا يَلقىٰ ٱللهَ عزَّ وجلَّ بعدَ ٱلموتِ إِلاَّ في زِيٍّ مُخالفٍ لزيِّ ٱلدُّنيا ، وهـٰذا ٱلثَّوبُ قريبٌ مِنْ ذلكَ ٱلثَّوبِ ، إِذ ليسَ فيهِ عمامةٌ ومخيطٌ كما في ٱلكَفَنِ .

وأَمَّا ٱلخروجُ مِنَ ٱلبلدِ : فليَعلَم عندَهُ بأَنَّهُ فَارقَ ٱلأَهلَ وٱلوطنَ مُتوجِّهاً إِلىٰ ٱللهِ عزَّ وجلَّ في سَفَرٍ لا يُضاهي[1] أَسفارَ ٱلدُّنيا .

---

(١) أَي : لا يُشابِهُ .

فليُحضِرْ في قلبهِ أَنَّهُ ماذا يُريدُ ؟ وأَينَ يتوجَّهُ ؟ وزيارةَ مَنْ يقصِدُ ؟

وأَنَّهُ متوجِّهٌ إِلىٰ مَلِكِ ٱلمُلوكِ في زُمْرَةِ ٱلزَّائِرينَ لَهُ ، ٱلَّذيْنَ نُودُوا فأَجابوا ، وشُوِّقوا فٱشتاقوا ، وٱستُنهِضوا فقطعوا ٱلعلائِقَ ، وفارقُوا ٱلخلائِقَ ، وأَقبلوا علىٰ بيتِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، ٱلَّذي فَخَّمَ أَمْرَهُ ، وعَظَّمَ شَأْنَهُ ، ورفعَ قدرَهُ ، تَسَلِّياً بِلقاءِ ٱلبيتِ عَنْ لقاءِ ربِّ ٱلبيتِ ، إِلىٰ أَنْ يُرزَقوا مُنتهىٰ مُناهُم ، ويَسْتَعِدُّوا بالنَّظرِ إِلىٰ مولاهُم .

وَلْيُحضِرْ في نفسهِ رجاءَ ٱلوصولِ وٱلقَبولِ ، لا إِدلالاً بأَعمالهِ في ٱلارتحالِ ومُفارقةِ ٱلأَهلِ وٱلمالِ ، ولٰكن ثِقةً بفضلِ ٱللهِ تعالىٰ ، ورجاءً لتحقيقهِ وَعْدَهُ لِمَنْ زارَ بيتَه[1] .

وليَرجُ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَصِلْ إِلىٰ (مكَّةَ) وأَدركتْهُ ٱلمَنيَّةُ في ٱلطَّريقِ . لَقِيَ ٱللهَ تعالىٰ وافداً إِليهِ، إِذ قالَ جلَّ جلالُهُ: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ . . ﴾[2] .

وأَمَّا دخولُ ٱلباديةِ إِلىٰ حينِ وصولهِ إِلىٰ ٱلميقاتِ ، ومشاهدةِ

---

(١) أَي : مِنْ رجوعهِ مغفورَ ٱلذُّنوبِ ، ورفعِ ٱلدَّرجاتِ بكلِّ خطوةٍ .
(٢) سورة النساء : (١٠٠) .

تلكَ ٱلعقباتِ . . فليَتَذكَّر مِنها ما بينَ ٱلخروجِ مِنَ ٱلدُّنيا بٱلموتِ إِلىٰ ميقاتِ ٱلقيامةِ ، ومَا بينَهُما مِنَ ٱلأَهوالِ وٱلمُطالباتِ .

وليَتذكَّر مِنْ هَولِ قُطَّاعِ ٱلطَّريقِ . . هولَ سؤالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ ، وَمِنْ سِباعِ ٱلوادي . . عقارِبَ ٱلقبرِ وديدَانَهُ ، وما فيهِ مِنَ ٱلأَفاعيْ وٱلحيَّاتِ ، ومِنِ ٱنفرادِهِ عَنْ أَهلهِ وأَقاربِهِ . . وحشةَ ٱلقبرِ وكُربتَهُ ووَحدَتَهُ .

ولْيَكُن في هـٰذِهِ ٱلمخاوفِ في أَعمالهِ . . واثقاً أَنَّهُ مُتَزَوِّدٌ لِمَخَاوفِ ٱلقبرِ .

وأَمَّا ٱلإِحرامُ وٱلتَّلبيةُ مِنَ ٱلميقاتِ : فليَعلَمْ أَنَّ معناهُ إِجابةُ نداءِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ .

فٱرجُ أَنْ تكونَ مَقبولاً ، وٱخشَ أَنْ يُقالَ لكَ : (لا لبيّكَ ولا سعدَيْكَ) .

ولْتكُنْ بينَ ٱلرَّجاءِ وٱلخوفِ مُتردِّداً ، وعَنْ حَوْلِكَ وقوَّتِكَ متبرِّئاً ، وعلىٰ فضلِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ وكرَمِهِ مُتَّكِلاً ، فإِنَّ وقتَ ٱلتَّلبيةِ هوَ بدايةُ ٱلأَمرِ ، وهوَ محلُّ ٱلخَطَرِ .

قالَ سُفيانُ بنُ عُيينَةَ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (حَجَّ عليُّ بنُ ٱلحُسينِ رضيَ ٱللهُ عنهُ ، فلمَّا أَحرمَ وٱستوتْ بهِ راحلَتُهُ . . ٱصفَرَّ لونُهُ ، وٱنتفَضَ ، ووقعتْ عليهِ ٱلرِّعدَةُ ، ولَمْ يستطع أَنْ يُلبِّيَ ، فقيلَ لَهُ : أَلا تُلَبِّي ؟ فقالَ : أَخشىٰ أَنْ أَقُولَ : لبَّيكَ ، فيقولُ لي : لا لبَّيكَ

ولاَ سعْدَيكَ ، فلمَّا لَبَّىٰ . . غُشِيَ عليهِ ، ووقعَ مِنْ راحلَتِهِ ، ولَمْ يَزَلْ يعتَريْهِ ذلكَ حتَّىٰ قَضىٰ حَجَّهُ) .

وقالَ أَحمدُ ٱبنُ أَبي ٱلحواري رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ : (كُنتُ معَ أَبي سُليمانَ ٱلدَّارانيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ حينَ أَرادَ ٱلإِحرامَ فلَمْ يُلَبِّ حتَّىٰ سِرنا مِيلاً ، وأَخذتْهُ ٱلغَشْيَةُ ، ثُمَّ أَفاقَ ، فقالَ : يا أَحمدُ ، إِنَّ ٱللهَ عزَّ وجلَّ أَوحىٰ إِلىٰ موسىٰ عليهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ : ﴿مُرْ ظَلَمَةَ بني إِسرائيلَ أَنْ يُقِلُّوا مِنْ ذِكْرِي ، فإِنِّي أَذْكُرُ مَنْ ذَكَرَني مِنهمْ بٱللَّعنةِ﴾ ، وَيْحَكَ يا أَحمدُ ، بَلغني أَنَّ مَنْ حَجَّ مِنْ غيرِ حِلِّهِ[1] ثُمَّ لَبَّىٰ . . قالَ ٱللهُ عزَّ وجلَّ [لَهُ] : ﴿لا لبَّيكَ ولاَ سَعْدَيكَ حتَّىٰ تَرُدَّ ما في يَديكَ﴾ ، فما نأَمنُ أَنْ يُقالَ لنا ذلكَ .

وليَذكُرِ ٱلمُلبِّي عِنْدَ رَفْعِ ٱلأَصواتِ بِٱلتَّلبيةِ في ٱلميقاتِ إِجابةً لنداءِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ؛ إِذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ . . ﴾[2] . . نداءَ ٱلخَلْقِ بنفخِ ٱلصُّورِ ، وحَشرَهُمْ مِنَ ٱلقُبورِ ، وإِخراجَهُم ، وٱزدحامَهُم في عَرَصاتِ[3]

---

(١) أي : مالِهِ ٱلحلالِ .

(٢) سورة الحج : (٢٧) .

(٣) ٱلعَرْصةُ ـ بوزن الضَّرْبة ـ : كلُّ بقعةٍ بين ٱلدُّورِ واسعةٍ ليسَ فيها بناءٌ ، وٱلجمعُ : العِراصُ والعَرَصَاتُ . « مختار ٱلصحاح » (٧٨) .

ٱلقيامةِ مجيبينَ لنداءِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ومُنقسمينَ إِلىٰ مقرَّبينَ وممقُوتينَ ومَقبولينَ ومَردُودينَ ، ومُرَدَّدينَ في أَوَّلِ ٱلأَمرِ بينَ ٱلخوفِ وٱلرَّجاءِ تردُّدَ ٱلحاجِّ في ٱلميقاتِ ، حيثُ لا يدرونَ أَيتيسَّرُ لَهُم تمامُ ٱلحجِّ وقَبولُه؟ .

وأَمَّا دخولُ (مكَّةَ) : فليتذكَّر عِندها أَنَّهُ قدِ ٱنتهىٰ إِلىٰ حَرَمِ ٱللهِ تعالىٰ وأَمنهِ ، وليَرجُ عندَهُ أَنْ يأَمنَ بدخولِهِ مِنْ عذابِ ٱللهِ تعالىٰ .

وليَخشَ أَلاَّ يكونَ أَهلاً للقُربِ ، فيكونَ بدخولِ ٱلحَرَمِ خائِباً مُستحِقّاً لِلمَقْتِ ، وليَكُنْ رجاؤُهُ في جميعِ ٱلأَوقاتِ غالباً ، فَٱلكَرَمُ عميمٌ ، وشرفُ ٱلبيتِ عظيمٌ ، وحَقُّ ٱلزَّائرِ مَرعِيٌّ ، وذِمامُ ٱلمستجيرِ ٱللاَّئذِ غيرُ مُضيَّعٍ .

وأَمَّا وقوعُ ٱلبَصَرِ علىٰ ٱلبيتِ : فينبغي أَنْ تُحضِرَ عندَهُ عَظَمَةَ ٱلبيتِ في ٱلقلبِ ، وتُقَدِّرَ كأَنَّكَ تُشاهِدُ رَبَّ ٱلبيتِ لِشدَّةِ تَعظيمكَ .

وٱرْجُ أَنْ يَرْزُقَكَ ٱللهُ تعالىٰ ٱلنَّظرَ إِلىٰ وجههِ ٱلكريمِ ، كَما رَزَقَكَ النَّظرَ إِلىٰ بيتهِ ٱلعظيمِ .

وٱشكُرِ ٱللهَ تعالىٰ علىٰ تبليغهِ إِيَّاكَ هـٰذهِ ٱلرُّتبةَ ، وإِلحاقهِ إِيَّاكَ بزُمرَةِ ٱلوافِدينَ إِليهِ .

وٱذكُرْ عندَ ذلكَ ٱنصبابَ ٱلنَّاسِ في ٱلقيامةِ إِلىٰ جِهَةِ ٱلجنَّةِ ، آملينَ لدُخولِها كافَّةً ، ثُمَّ ٱنقسامَهُم إِلىٰ مَأْذونينَ في ٱلدُّخولِ ومَصرُوفينَ ، ٱنقسامَ ٱلحاجِّ إِلىٰ مقبولينَ ومَردُودينَ ، فلا تغفُلْ

عَنْ تذكُّرِ أُمورِ ٱلآخرةِ في شيءٍ ممَّا تراهُ ، فإِنَّ كلَّ أَحوالِ ٱلحاجِّ دليلٌ علىٰ أَحوالِ ٱلآخرةِ .

وأَمَّا ٱلطَّوافُ بٱلبيتِ : فٱعلَمْ أَنَّهُ صلاةٌ ، فأَحضِرْ [في] قلبكَ فيهِ مِنَ ٱلتَّعظيمِ وٱلخوفِ وٱلرَّجاءِ وٱلمحبَّةِ ما فصَّلنا في (كتابِ ٱلصَّلاةِ)[1] .

وٱعلمْ : أَنَّكَ بٱلطَّوافِ مُتَشبِّهٌ بٱلملائِكَةِ ٱلمُقرَّبينَ ٱلحافِّينَ حولَ ٱلعرشِ ، فلاَ تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱلمقصودَ طوافُ جَسَدِكَ بٱلبيتِ ، بَلِ ٱلمقصودُ طوافُ قلبكَ بِذكرِ رَبِّ ٱلبيتِ ، حتَّىٰ لا يبتدِىءَ ٱلذِّكرَ إِلاَّ منهُ ، ولا يَخْتِمَ إِلاَّ بهِ ، كما تبتدىءُ ٱلطَّوافَ بٱلبيتِ[2] ، وتختمُهُ بٱلبيتِ .

وٱعلَمْ أَنَّ ٱلطَّوافَ ٱلشَّريفَ : هوَ تَطوافُ ٱلقلبِ بحضرةِ ٱلرُّبوبيَّةِ[3] ، وأَنَّ ٱلبيتَ مِثالٌ ظاهرٌ في عالَمِ ٱلمُلْكِ لتلكَ ٱلحضرةِ ٱلَّتي لا تُشاهَدُ بٱلبَصَرِ ، وهيَ في عالَمِ ٱلمَلكوتِ ، كَما أَنَّ ٱلبَدَنَ مثالٌ ظاهِرٌ في عالَمِ ٱلشَّهادةِ للقلبِ ٱلَّذي لا يُشاهَدُ بٱلبَصَرِ ، وهوَ في عالَمِ ٱلغيبِ ، وأَنَّ عالَمَ ٱلمُلكِ وٱلشَّهادَةِ مَدرَجَةٌ إِلىٰ عالَمِ

---

(١) أي : من كتاب « إحياء علوم الدين » .

(٢) أي : بٱلحجرِ ٱلأَسودِ مِنَ ٱلمكانِ ٱلمعروفِ .

(٣) لذلكَ لَزِمَ ٱلحاجَّ ٱلأَدبُ بحضرة ٱللهِ تعالىٰ وٱستشعارِ ٱطِّلاعِ ٱلحقِّ سبحانَهُ عليهِ حالَ عبادتِهِ .

ٱلغيبِ وٱلملكوتِ لِمَنْ فتحَ ٱللهُ تعالىٰ لَهُ ٱلبابَ ، وإِلىٰ هـٰذهِ ٱلموازنةِ وقعتِ ٱلإشارةُ بأَنَّ ٱلبيتَ ٱلمعمورَ في ٱلسَّماواتِ بإزاءِ ٱلكعبةِ ، وأَنَّ طوافَ ٱلملائكةِ كطوافِ ٱلإنسِ بهـٰذا ٱلبيتِ ، ولمَّا قصُرَت رُتبةُ أَكثرِ ٱلخَلْقِ عَنْ مِثْلِ ذلكَ ٱلطَّوافِ . . أُمِروا بٱلتَّشَبُّهِ بهم بحَسَبِ ٱلإمكانِ ، ووُعِدوا بأَنَّ مَنْ تَشَبَّهَ بقوم . . فهوَ مِنْهُمْ[1] ، وٱلَّذي يَقْدِرُ علىٰ مِثْلِ ذلكَ ٱلطَّوافِ هوَ ٱلَّذي يُقالَ لَهُ : إِنَّ ٱلكعبةَ تزُورُهُ وتطوفُ بهِ ، علىٰ ما رآهُ بَعْضُ ٱلمُكاشفينَ لبعضِ أَولياءِ ٱللهِ تعالىٰ .

وأَمَّا ٱلاستلامُ : فٱعتقِدْ عندَهُ أَنَّكَ مُصافِحٌ للهِ تعالىٰ علىٰ طاعَتِهِ ، فَصَمِّمْ عِندَ ذلكَ عَزيمَتَكَ بٱلوفاءِ ببيعَتِكَ ، فَمَنْ غَدَرَ في ٱلمبايعةِ . . ٱستحقَّ ٱلمَقْتَ .

وقد رَوىٰ ٱبنُ عبَّاسٍ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُما عنهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « ٱلْحَجَرُ يَمِيْنُ ٱللهِ فِيْ ٱلأَرْضِ ، يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ كَمَا يُصَافِحُ ٱلرَّجُلُ أَخَاهُ »[2] .

وأَمَّا ٱلتَّعلُّقُ بأَستارِ ٱلكعبةِ ، وٱلالتصاقُ بٱلمُلتَزمِ : فلْتكُنْ نيَّتُكَ

---

(١) إشارةً إلى حديثِ ٱلمصطفى صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ . . فَهُوَ مِنهُمْ » .

(٢) أخرجه من حديثِ عبدِ ٱللهِ بن عمرَ رضيَ ٱللهُ عنهُما ٱلحاكم ، وصحَّحهُ ، وروىٰ عن ٱبنِ عبَّاسٍ ٱلتِّرمذيُّ (٩٦١) أَنَّهُ قالَ عنِ ٱلحجرِ : « وَٱللهِ لَيَبْعَثَنَّهُ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ ، يَشْهَدُ عَلَىٰ مَنِ ٱسْتَلَمَهُ » .

في ٱلالتزام طلبَ ٱلقُرْبِ حُبّاً وشوقاً إِلىٰ ٱلبيتِ ، ولِرَبِّ ٱلبيتِ ، وتبرُّكاً بٱلمُمَاسَّةِ ، ورجاءً للتَّحصُّنِ مِنَ ٱلنَّارِ في كلِّ جُزءٍ يُلاقي ٱلبيتَ .

ولتكُن نيَّتُكَ في ٱلتَّعلُّقِ بٱلسِّترِ : ٱلإلحاحَ في طلبِ ٱلمغفرةِ ، وسؤَالِ ٱلأمانِ ، كٱلمُذْنِبِ ٱلمُتعلِّقِ بثيابِ مَنْ أَذنبَ إِليهِ ، ٱلمُتضرِّعِ إِليهِ في عفوهِ عنهُ ، ٱلمُظهِرِ لَهُ أَنَّهُ لا ملجأَ لهُ مِنْهُ إِلاَّ إِليهِ ، ولَا مفزَعَ لَهُ إِلاَّ عفوُهُ وكرمُهُ ، وأَنَّهُ لا يُفارِقُ ذَيْلَهُ إِلاَّ بٱلعفوِ وبَذلِ ٱلأَمنِ في ٱلمُستَقبلِ .

وأَمَّا ٱلسَّعيُ بينَ ٱلصَّفا وٱلمَروةَ في فِناءِ ٱلبيتِ : فإِنَّهُ يُضاهي تَردُّدَ ٱلعبدِ بفناءِ ٱلمَلِكِ جِيئَةً وذَهاباً مَرَّةً بعدَ أُخرىٰ إِظهاراً للخُلوصِ في ٱلخدمةِ ، ورجاءَ ٱلمُلاحظةِ بعينِ ٱلرَّحمةِ ، كٱلَّذي دَخَلَ علىٰ ٱلمَلِكِ وخرجَ وهوَ لا يَدري ما ٱلَّذي يَقضيْ بِهِ ٱلمَلِكُ في حقِّهِ مِنْ قَبولٍ أَو رَدٍّ ، فلا يزالُ يتردَّدُ علىٰ فِناءِ ٱلدَّارِ مرَّةً بعدَ أُخرىٰ ، يَرجو أَنْ يُرحَمَ في ٱلثَّانيةِ إِنْ لَمْ يُرْحَمْ في ٱلأُولىٰ .

وليتذكَّرْ عِندَ تردُّدِهِ بينَ ٱلصَّفا وٱلمَروةِ.. تردُّدَهُ بينَ كِفَّتي ٱلميزانِ في عَرصةِ ٱلقيامةِ ، وليُمثِّلِ ٱلصَّفا بكفَّةِ ٱلحَسَناتِ[1] ، وٱلمَروةَ بكفَّةِ ٱلسَّيِّئاتِ[2] .

---

(١) لأَنَّ ٱللهَ عزَّ وجلَّ ٱهتَمَّ بِها بٱلذِّكْرِ ، فبدأَ بها أَوَّلاً .

(٢) لأَنَّهُ بِها يُختَمُ ٱلسَّعيُ .

وليَذكُرْ تردُّدَهُ بينَ ٱلكِفَّتينِ ، نَاظِراً إِلىٰ ٱلرُّجحانِ وٱلنُّقصانِ ، مُرَدَّداً بينَ ٱلعذابِ وٱلغفرانِ .

وأَمَّا ٱلوقوفُ بعرفةَ : فَيَذكُرُ بما يرىٰ مِنِ ٱزدحامِ ٱلخَلْقِ ، وٱرتفاعِ ٱلأَصواتِ ، وٱختلافِ ٱللُّغاتِ ، وٱتِّباعِ ٱلفِرَقِ أَئِمَّتَهُمْ في ٱلتَّردُّداتِ علىٰ ٱلمَشاعرِ ، ٱقتداءً بهِم وسيراً بسيرهم . . عَرَصَاتِ يومِ ٱلقيامةِ ، وٱجتماعَ ٱلأُممِ مَعَ ٱلأَنبياءِ وٱلأَئِمَّةِ ، وٱقتفاءَ كلِّ أُمَّةٍ نبيَّها ، وطمَعَهُمْ في شفاعتِهمْ ، وتحيُّرَهُم في ذلكَ ٱلصَّعيدِ ٱلواحدِ بينَ ٱلرَّدِّ وٱلقَبولِ .

وإِذا تذكَّرتَ ذلكَ فأَلزِمْ قلبكَ ٱلضَّراعةَ وٱلابتهالَ إِلىٰ ٱللهِ عزَّ وجلَّ أَنْ يَحْشُرَكَ في جُملةِ ٱلفائزينَ ٱلمَرحومينَ ، وحَقِّقْ رجاءَكَ للإِجابةِ ، فٱلموقفُ شريفٌ ، وٱلرَّحمةُ أَيضاً تَصِلُ مِنْ حضرةِ ٱلجلالِ إِلىٰ كافَّةِ ٱلمخلوقينَ بواسطةِ ٱلقلوبِ ٱلعزيزةِ مِنْ أَوتادِ ٱلأَرضِ ، ولا ينفكُّ ٱلمَوقِفُ عَنْ طبقةٍ مِنَ ٱلأَبدالِ وٱلأَوتادِ ، وطَبقاتٍ مِنَ ٱلصَّالحينَ وأَربابِ ٱلقُلوبِ ، فإِذا ٱجتمعتْ هِمَمُهم ، وتجرَّدتْ للضَّراعةِ وٱلابتهالِ قلوبُهُم ، وٱرتفعتْ إِلىٰ ٱللهِ سُبحانَهُ وتعالىٰ أَيديهمْ ، وٱمتدَّتْ إِليهِ أَعناقُهُم ، وشخَصَتْ نحوَ ٱلسَّماءِ أَبصارُهُمْ ، مُجتمعينَ بهمَّةٍ وَاحدةٍ علىٰ ٱلرَّحمةِ . . فَلا تَظُنَّنَّ أَنَّهُ يُخيِّبُ أَمَلَهُم ، وَيُضيِّعُ سَعيَهُم ، ويَدَّخِرُ عَنهُم رحمةً تَغْمُرُهمْ .

ولذلكَ قيلَ : (إنَّ مِنْ أَعظمِ ٱلذُّنوبِ . . أَنْ يَحضُرَ عَرفاتٍ وَيَظُنَّ أَنَّ ٱللهَ لَمْ يَغْفِرْ لهُ) .

وكأَنَّ ٱجتماعَ ٱلهِمَمِ وٱلاستظهارَ بمجاورةِ ٱلأَبدالِ وٱلأَوتادِ ٱلمُجتَمعينَ مِنْ أَقطارِ ٱلبلادِ . . هوَ سِرُّ ٱلحجِّ وغايةُ مَقصودِهِ ، ولا طريقَ إِلىٰ ٱستدرارِ رَحمةِ ٱللهِ تعالىٰ مِثْلُ ٱجتماعِ ٱلهِمَمِ وتَعاونِ ٱلقلوبِ في وقتٍ واحدٍ ، علىٰ صعيدٍ واحدٍ .

وأَمَّا رَميُ ٱلجِمارِ : فٱقصدِ ٱلانقيادَ لِلأَمرِ إِظهاراً للرِّقِ ، وٱلعبوديَّةِ ، وٱنتهاضاً لمجرَّدِ ٱلامتثالِ مِنْ غيرِ حَظٍّ للعقلِ وٱلنَّفسِ فيهِ(١) .

ثُمَّ ٱقصِدْ بهِ ٱلتَّشَبُّهَ بإِبراهيمَ عليهِ ٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ حَيْثُ عَرَضَ لَهُ إِبليسُ في ذلكَ ٱلمكانِ ليُدْخِلَ علىٰ حَجِّهِ شُبهةً ، أَوْ يَفْتِنَهُ بمعصيةٍ ، فأَمَرَهُ ٱللهُ عزَّ وجلَّ أَنْ يَرْمِيَهُ بٱلحجارةِ طرداً لَهُ وقطعاً لأَملِهِ ، فإِنْ خَطَرَ لكَ أَنَّ ٱلشَّيطانَ عَرَضَ لَهُ وشاهدَهُ فلذلكَ رَماهُ ،

---

(١) سبقَ أَنَّهُ أَمرٌ تعبُّديٌّ ، لا مدخلَ فيهِ للعقلِ وٱلنَّفسِ ، وإِنَّما هوَ مجرَّدُ ٱتِّباعٍ ، قالَ ٱللهُ تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ولا شكَّ أَنَّ مَنْ تَرَكَ شيئاً مِنْ ٱتِّباعِ ٱلرَّسولِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . فإِنَّهُ ينقُصُ مِنْ محبَّةِ ٱللهِ إِيَّاهُ علىٰ قدرِ ما نقصَ مِنِ ٱتِّباعِ ٱلرَّسولِ ، وكذَّبَ نفسَهُ في محبَّتِهِ للهِ تعالىٰ بعدمِ تمامِ ٱلاتِّباعِ . « الإتحاف » (٤/ ٤٥٣) . وقال ٱلشَّاعِرُ :

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ ٱلمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وأَمَّا أَنا فليسَ يَعرِضُ لي ٱلشَّيطانُ . . فٱعلَمْ أَنَّ هٰذا ٱلخاطِرَ مِنَ ٱلشَّيطانِ ، وأَنَّهُ ٱلَّذي أَلقاهُ في قلبِكَ ليفْتُرَ عَزْمُكَ في ٱلرَّمي ، ويُخيِّلَ إِليكَ أَنَّهُ فِعلٌ لا فائدةَ فيهِ ، وأَنَّهُ يُضاهِي ٱللَّعبَ ، فَلِمَ تَشْتَغِلْ بهِ ؟

فٱطرُدهُ عَنْ نَفْسِكَ بٱلجِدِّ وٱلتَّشميرِ في ٱلرَّمي ٱلَّذي يُرغِمُ أَنفَ ٱلشَّيطانِ .

وٱعلَمْ : أَنَّكَ في ٱلظَّاهِرِ تَرمي ٱلحصىٰ إِلىٰ ٱلعقبةِ ، وفي ٱلحقيقةِ تَرمي بهِ وَجهَ ٱلشَّيطانِ وتَقصِمَ بهِ ظَهْرَهُ ، إِذْ لا يَحصُلُ إِرغامُ أَنفهِ إِلاَّ بٱمتثالِكَ أَمرَ ٱللهِ تعالىٰ ؛ تعظيماً لِمجرَّدِ ٱلأَمرِ مِنْ غيرِ حَظٍّ للنَّفسِ وٱلعقلِ فيهِ .

وأَمَّا ذَبْحُ ٱلهديِ : فٱعلَمْ أَنَّهُ تقرُّبٌ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ بحُكمِ ٱلامتثالِ ، فأَكْمِلِ ٱلهَديَ وأَجْزِئْهُ ، وٱرجُ أَنْ يَعتِقَ ٱللهُ بكُلِّ جُزءٍ منها جزءاً مِنكَ مِنَ ٱلنَّارِ(١) فهٰكذا وَرَدَ ٱلوَعدُ ، فكلَّما كانَ ٱلهديُ

---

(١) تفضُّلاً وكرماً مِنَ ٱللهِ جلَّ وعزَّ ، فقد وردَ عنهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نحوهُ في العتق عن أَبي هُريرةَ قالَ : قالَ رسول الله صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً . . أَعْتَقَ ٱللهُ بكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْواً مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ ٱلنَّارِ حَتَّىٰ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ » . أخرجَهُ أَحمد في « ٱلمسند » (٢/ ٤٢٠) ، وٱلبخاريُّ (٢٥١٧) ، ومسلمٌ (١٥٠٩) (٢٢) ، وٱلتِّرمذيُّ (١٥٤١) وفي الباب :

عن عائشةَ ، ووائلةَ ، وعمر بن عبسَة ، وٱبنِ عبَّاسٍ ، وأَبي أُمامةَ ، وعقبة بن عامرٍ ، وكعب بن مرَّةَ رضي ٱللهُ عنهُم . =

أَكثرَ أَجزاءً وأَوفرَ . كانَ فِداكَ بهِ مِنَ ٱلنَّارِ أَعمَّ .

وأَمَّا زيارةُ ٱلمدينةِ : فإِذا وقعَ بصرُكَ علىٰ حِيطانِها[1] . . فتذكَّرْ أَنَّها ٱلبلدةُ ٱلَّتي ٱختارَها ٱللهُ لِنبيِّهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وجعلَ إِليها هِجرَتَهُ ، وأَنَّها دارُهُ ٱلَّتي شرَعَ فيها فرائِضَهُ عزَّ وجلَّ وسُنَّتَهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وجاهدَ عدوَّهُ ، وأَظهرَ بها دِينَهُ إِلىٰ أَنْ توفَّاهُ ٱللهُ بها ، ثُمَّ جعلَ تُربَتَهُ فيها وتُربةَ وَزيرَيهِ ٱلقائمينَ بٱلحقِّ مِنْ بعدهِ .

ثُمَّ مَثِّلْ في نَفْسِكَ مواقعَ أَقدامِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عندَ تردُّدَاتِهِ فيها ، ما مِنْ موضعِ قدمٍ تَطؤُهُ إِلاَّ وهوَ موضِعُ قدمهِ ٱلعزيزِ ، فلا تضعْ قَدَمَكَ عليهِ إِلاَّ علىٰ سكينةٍ ووَجلٍ ، وتذكَّرْ مشيَهُ وخُطاهُ في سِكَكِها ، وتصوَّرْ خُشوعَهُ وسَكِينتَهُ في ٱلمشيِ ، وما ٱستودعَ ٱللهُ قلبَهُ مِنْ عظيمِ مَعرفتهِ ، ورفعةِ ذِكْرِهِ[2] معَ ذِكْرِهِ ، حتَّىٰ قَرَنَهُ بذِكْرِ نفسهِ[3] ، وإِحباطَهُ عملَ مَنْ هَتَكَ حُرْمَتَهُ ولَوْ برفعِ صَوْتِهِ فوقَ صَوْتِهِ .

= أَمَّا حديثُ ٱلأُضحيةِ ٱلمارِّ فقد قالَ ٱلعراقيُّ : لَم أقف لَهُ علىٰ أَصلٍ ، وفي كتاب « ٱلضَّحايا » لأَبي ٱلشَّيخ عن أَبي سعيدٍ رضيَ ٱللهُ عنهُ : « فَإِنَّ لَكَ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِهَا أَنْ يُغْفَرَ لَكَ » .

(١) الحيطانُ : ٱلجدرانُ ، أَوِ ٱلبساتينُ ٱلمحيطةُ بٱلمدينةِ ٱلمنوَّرةِ .

(٢) قالَ تعالىٰ : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [سورة الإنشراح : ٤] .

(٣) وذلكَ في ٱلنِّداءِ بٱلأذانِ ، فلا يصحُّ إِلاَّ بٱلشَّهادةِ لَهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ معَ ٱلشَّهادةِ للهِ تعالىٰ بٱلأُلوهيَّةِ .

ثُمَّ تذكَّرْ مَا مَنَّ ٱللهُ تعالىٰ علىٰ ٱلَّذينَ أدركوا صُحبتَهُ ، وسَعِدوا بمُشاهَدَتِهِ وٱستماعِ كلامهِ ، وَأَعْظِمْ تأَسُّفَكَ علىٰ ما فَاتَكَ مِنْ صُحبتهِ ، وصُحبةِ أَصحابهِ رضيَ ٱللهُ تعالىٰ عنهُم .

ثُمَّ ٱذكُرْ أَنَّهُ قَد فاتَتْكَ رؤيتهُ في ٱلدُّنيا ، وأَنَّكَ مِنْ رُؤْيتهِ في ٱلآخِرَةِ علىٰ خَطَرٍ ، وأَنَّكَ رُبَّما لا تَرَاهُ إلاَّ بحسرةٍ ، وقد حِيلَ بينكَ وبينَ قَبولهِ إِيَّاكَ بسوءِ عَمَلِكَ ، كَمَا قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « يُرْفَعُ إِلَيَّ أَقْوَامٌ فَيَقُوْلُوْنَ : يَا مُحَمَّدُ ، يَا مُحَمَّدُ . . فَأَقُوْلُ : يَا رَبِّ أَصْحَابِيْ ، فيَقُوْلُ : إِنَّكَ لاَ تَدْرِيْ مَا أَحْدَثُوْا بَعْدَكَ ، فَأَقُوْلُ : بُعْداً وَسُحْقاً »[1] ، فإِنْ كُنتَ تركتَ حُرمةَ شَريعتهِ ولو في دقيقةٍ مِنَ ٱلدَّقائقِ . . فلاَ تَأْمَنْ أَنْ يُحالَ بينَكَ وبينَهُ لِعُدُوْلِكَ عَنْ محجَّتِهِ[2] .

وليَعْظُم مَعَ ذلكَ رَجاؤُكَ أَلاَّ يَحولَ ٱللهُ بينَكَ وبينَهُ بعدَ أَنْ رَزَقَكَ ٱلإيمانَ بهِ ، وأَشْخَصَكَ[3] مِنْ وَطَنِكَ لأَجلِ زيارَتهِ مِنْ غيرِ تجارةٍ ولا حَظٍّ في دُنيا ، بَلْ لِمحضِ حُبِّكَ لَهُ ، ولِشوقِكَ إِلىٰ أَنْ تَنظُرَ

---

(١) أخرجَهُ عنِ ٱبنِ مسعودٍ وأنسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما البخاريُّ (٦٢١٢) ومسلمٌ (٢٢٩١) . دون قوله : يا محمد يا محمد . اهـ عراقي .

(٢) لأَنَّ ٱلدِّين كلٌّ لا يتجزأُ علىٰ حدِّ قولِهِ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [سورة المائدة ٦٧] .

(٣) أَي : أَخرجكَ مِنْ وطنكَ لأَجلِ زيارتهِ إكراماً لك منه تعالىٰ مِنْ غيرِ داعيةٍ .

إِلىٰ آثارِهِ وإِلىٰ حائِطِ قَبرِهِ ، إِذْ سمَحَتْ نفسُكَ بِٱلسَّفرِ لمجرَّدِ ذلكَ لَمَّا فاتتكَ رؤْيَتُهُ ، فَما أَجدرَكَ بأَنَّ ٱللهَ ينظُرُ إِليكَ بعينِ ٱلرَّحمةِ .

فإِذا بلغْتَ ٱلمسجدَ . . فٱذكُرْ أَنَّها ٱلعَرصَةُ ٱلَّتي ٱختارَها ٱللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ولأَبْرَكِ ٱلمُسلمينَ وأَفضلِهِم عِصابةً ، وأَنَّ فرائضَ ٱللهِ سُبحانَهُ أَوَّلُ ما أُقيمتْ[1] في تِلكَ ٱلعَرصَةِ ، وأَنَّها جَمَعتْ أَفضلَ خَلْقِ ٱللهِ حيّاً ومَيْتاً .

فليَعظُم أَمَلُكَ في ٱللهِ سُبحانَهُ أَنْ يرحمَكَ بدُخولِكَ إِيَّاها ، فٱدْخُلها خاشِعاً مُعَظِّماً ، وما أَجدرَ هٰذا ٱلمكانَ بأَنْ يَستَدعيَ ٱلخُشوعَ مِنْ قلبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، فَما حُكِيَ عَنْ أَبي سُليمانَ ٱلدَّارانيِّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ أَنَّهُ قالَ : (حَجَّ أُويسٌ ٱلقَرنيُّ رحمَهُ ٱللهُ تعالىٰ ودخلَ (ٱلمدينةَ) ، فلمَّا وقفَ علىٰ بابِ ٱلمسجدِ . . قيلَ لَهُ : هٰذا قَبرُ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فَغُشِيَ عليهِ ، فلمَّا أَفاقَ . . قالَ : أَخرجوني فليسَ بلدي بلداً فيها مُحَمَّدٌ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مدفون)[2] .

وأَمَّا زيارةُ رَسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : فينبغي أَنْ تقِفَ بينَ يديهِ كما وَصفناهُ ، وتزورَهُ مَيْتاً كما تزورَهُ حيّاً ،

---

(١) أَي : كاملةً .

(٢) في المطبوع و« ٱلإتحاف » : « فليسَ يلذُّ لي بلدٌ فيه . . . » وٱللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَعلمُ بٱلصَّوابِ .

ولا تَقرُبْ مِنْ قبرهِ إلاَّ كما كُنتَ تقرَبُ مِنْ شخصهِ ٱلكريمِ لو كانَ حيّاً ، وكما كُنتَ ترىٰ ٱلحُرمةَ في ألاَّ تَمَسَّ شخصَهُ ولاَ تُقَبِّلَهُ . . بل تقفُ مِنْ بُعدٍ ماثلاً بينَ يديهِ ، فكذلكَ فٱفعلْ ، فإنَّ ٱللَّمْسَ وٱلتَّقبيلَ للمَشاهِدِ مِنْ عادةِ ٱلنَّصارىٰ وٱليهودِ .

وٱعلَمْ : أنَّهُ عالِمٌ بحضورِكَ ، وقيامِكَ ، وزيارتِكَ ، وأنَّهُ يبلغُهُ سلامُكَ وصلاتُكَ .

فمَثِّلْ صورتَهُ ٱلكريمةَ في خيالِكَ موضوعاً في ٱللَّحْدِ بإزائِكَ ، وأَحْضِرْ عظيمَ مَرتَبَتِهِ في قلبكَ[1] .

فقدْ رُوِيَ عنهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : (أنَّ ٱللهَ تعالىٰ وكَّلَ بقبرِهِ مَلَكاً يُبَلِّغُهُ سلامَ مَنْ سَلَّمَ عليهِ مِنْ أُمَّتهِ)[2] .

هـٰذا في حَقِّ مَنْ لمْ يحضُرْ قبرَهُ ، فكيفَ مَنْ فارقَ ٱلوطنَ وٱلأَهلَ وَقَطَعَ ٱلبوادي شَوْقاً إلىٰ لِقائِهِ ؟! وٱكتفىٰ بمشاهدةِ مَشْهَدِهِ ٱلكريمِ إذ فاتَهُ مُشاهَدةُ غُرَّتِهِ ٱلكريمةِ ؟!

وقدْ قالَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ مَرَّةً . .

---

(١) أي : علىٰ قدرِ معرفتِكَ بهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وبسنَّته ومكانته عند مولاهُ سبحانه وتعالىٰ .

(٢) قالَ ٱلعراقيُّ : أخرجهُ عن ابن مسعود رضيَ ٱللهُ عنهُ ٱلنَّسائيُّ (٣/ ٤٣) و« اليوم والليلة » (٦٦) ، وابن حبَّان (٩١٤) والحاكم (٢/ ٤٢١) وصحَّحه ، وكذلك رواه أحمد (١/ ٤٤١) .

صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً »[1] ، فهٰذا جَزاؤُهُ في ٱلصَّلاَةِ عليهِ بلسانهِ ، فكيفَ في ٱلحضورِ لزيارتهِ ببدَنِهِ ؟!

ثُمَّ ٱئتِ مِنْبَرَ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وتَوهَّمْ صعودَ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ علىٰ ٱلمنبرِ ، ومَثِّلْ في قلبكَ طَلْعَتَهُ ٱلْبَهِيَّةَ ، قائماً علىٰ ٱلمنبرِ وقد أَحدَقَ بهِ ٱلمهاجرونَ وٱلأَنصارُ ، وهوَ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يَحُثُّهُمْ علىٰ طاعةِ ٱللهِ تعالىٰ بِخُطْبَتِهِ .

وٱسْأَلِ ٱللهَ تعالىٰ أَلاَّ يُفرِّقَ في ٱلقيامةِ بينَكَ وبينَهُ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

فهٰذهِ وظيفةُ ٱلقلبِ في أَعمالِ ٱلحجِّ .

فإِذا فرغَ منها كلِّها . . فينبغي أَنْ يُلْزِمَ قلبَهُ ٱلهَمَّ وٱلحُزنَ وٱلخوفَ ، فإِنَّهُ ليسَ يَدري أَقُبِلَ منهُ حَجُّهُ وَأُثْبِتَ فيْ زُمرَةِ ٱلمحبوبينَ ؟ أَمْ رُدَّ عليهِ حَجُّهُ وَأُلْحِقَ بٱلمطرودينَ ؟

ولِيتعرَّفَ ذلكَ في قلبهِ وأَعمالهِ ، فإِنْ صَادفَ قلبَهُ قَدِ ٱزدادَ تجافياً عَنْ دارِ ٱلغُرورِ ، وٱنصرافاً إِلىٰ ٱلأُنْسِ بٱللهِ تعالىٰ ، ووجدَ أَعمالَهُ قدِ ٱتَّزَنَتْ بميزانِ ٱلشَّرعِ . . فليثقْ بٱلقَبولِ ، فإِنَّ ٱللهَ تعالىٰ

---

(١) أخرجَهُ عن أَبي هريرةَ رضيَ ٱللهُ عنهُ مسلم (٤٠٨) وأحمد (٢/ ٣٧٢) والنسائي (٣/ ٥٠) والترمذي (٤٨٥) وأبو داوود (١٥٣٠) .

لا يَقْبَلُ إِلاَّ مَنْ أَحبَّهُ ، ومَنْ أَحبَّهُ . . تولاَّهُ ، وأَظهرَ عليهِ آثارَ محَبَّتِهِ ، وكَفَّ عنهُ سَطْوَةَ عدوِّهِ إبليسَ(١) .

فإِذا ظهرَ ذلكَ عليهِ . . دَلَّ علىٰ ٱلقَبولِ ، وإِنْ كانَ ٱلأَمرُ بخلافهِ . . فيوشِكُ أَنْ يكونَ حظُّهُ مِنْ سَفرِهِ ٱلعناءَ والتَّعَبَ ، نعوذُ بٱللهِ مِنْ ذلكَ .

تَمَّ كتابُ ٱلحجِّ بحمدِ ٱللهِ وعونهِ .

وٱلحمدُ للهِ رَبِّ ٱلعالمينَ .

* * *

---

(١) إذ ولايةُ ٱللهِ تعالىٰ هيَ ٱلحِصنُ ٱلمانعُ مِنْ كيدِهِ ، وهٰذا ٱلمعبَّرُ عنهُ بٱلحفظِ ، فٱلحفظُ لأَوليائهِ كٱلعصمةِ لأَنبيائِهِ . قالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] .

بلغَ مقابلةً وقراءةً علىٰ مُؤلِّفهِ سيِّدنا ومولانا وشيخِنا ٱلعلاَّمةِ وليِّ ٱللهِ تعالىٰ جمالِ ٱلإسلام مُحمَّدِ بنِ ٱلحُسَيْنِ بنِ إبراهيمَ ٱلأَسلافيِّ نفعَ ٱللهُ بحياتهِ ، ونفعنا بهِ وبعلومهِ آمينَ .

وكانَ ٱلفراغُ مِنْ ذلكَ يومَ ٱلإثنينِ سادسَ يوم مِنْ شهرِ مُحرَّمٍ ٱلحرامِ ، سنةَ (١١٦٧) من هجرتهِ عليهِ ٱلصَّلاَةُ وٱلسَّلامُ .

كتبهُ ٱلفقيرُ إلىٰ ٱللهِ تعالىٰ عليُّ بنُ ناصرِ ٱلنُّفيعيّ غفرَ ٱللهُ لَهُ ولوالديهِ ولمشايخهِ وصلَّىٰ ٱللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصَحبهِ [وسلَّمَ](١) .



---

(١) وبفضلِ ٱللهِ ونعمتهِ فقد تمَّ تحقيقُ وتصحيحُ هـٰذا ٱلسِّفرِ ٱلعظيمِ ليلةَ ٱلجمعةِ ٱلثَّالثَ مِنْ شهرِ صفرِ ٱلمكرَّم ، مِنْ عامِ أَلفِ وأَربعِ مئةٍ وٱثنينِ وعشرينَ للهجرةِ ٱلنَّبويَّةِ ، ٱلموافقِ للسَّادسِ وٱلعشرينَ من شهرِ نيسانَ من عامِ أَلفينِ وواحدٍ ، وذلكَ بدمشقَ ٱلشَّامِ ـ زادها ٱللهُ أَمناً وبركةً ـ علىٰ يدِ ٱلعبدينِ ٱلفقيرينِ محمَّد نور عبد الرحمن كنجو ، ومحمَّد غسَّان نصوح عزقول الحُسينيِّ . فللهِ الحمدُ أَوَّلاً وآخِراً .

فهرس التراجم

ـ أ ـ

إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر ، القدوة الإمام العارف ، سيّد الزّهّاد ، أبو إسحاق العجليّ ، وقيل : التميميّ ، الخراساني ، البلخيّ ، نزيل (الشام) ، وُلد في حدود المئة ، وثّقه الدارقطني ، توفي سنة (١٦٢هـ) ، وقبره يُزار .

[سير أعلام النبلاء : ٧/ ٣٨٧] بتصرف .

إبراهيم النخعيّ بن يزيد بن قيس ، أبو عمران ، الإمام الحافظ ، فقيه (العراق) ، أحد الأعلام ، كان مفتي أهل (الكوفة) هو والشعبي في زمانهما ، وكان رجلاً صالحاً فقيهاً ، متوقّياً ، قليل التكلّف ، وهو مختفٍ من الحجّاج .

في سِنِّهِ قولان : أحدهما : أنه عاش تسعاً وأربعين سنة ، والثاني : أنه عاش ثمانيَ وخمسين سنة ، توفي سنة (٩٦هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٥٢٠] بتصرف .

أحمد ابن أبي الحواريِّ عبد الله بن ميمون أبو الحسن ، الثعلبيُّ ، الغَطَفانيّ ، الدمشقيّ ، الإمام ، الحافظ ، القدوة ، شيخ أهل (الشّام) ، الزاهد ، أحد الأعلام ، أصله من (الكوفة) ، ولد سنة (١٦٤هـ) ، صحب الشيخ أبا سليمان الدارانيّ مدّة ، قال فيّاض بن زهير : سمعتُ يحيى بن

معين ، وذكر أحمد ابن أبي الحواريّ ، فقال : (أظنّ أهلَ الشام يسقيهم الله به الغيث) . توفي سنة (٢٤٦هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ١٢/ ٨٥] بتصرف .

الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين ، أبو بحر التميميّ ، الأمير الكبير ، العالم النبيل ، أحدُ من يُضرب بحلمه وسؤدده المثلُ ، اسمه : ضحّاك ، وقيل : صخر ، وشُهر بالأحنف لحنَفِ رجليه ، وهو العوج والميل ، كان سيّد تميم ، أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ووفد علىٰ عمر رضي الله عنه ، حدَّث عن عمر وعليّ وأبي ذر والعباس وابن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم ، وكان من قوّاد جيش عليٍّ يوم صفِّين . قال الفسويّ : مات الأحنف سنة (٦٧هـ) ، وقال غيره : توفّي سنة (٧١هـ) وقال جماعة : مات في إمرة مصعب بن الزبير على (العراق) رحمه الله تعالىٰ .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٨٦] بتصرف .

الأوزاعي = عبد الرحمن بن عمرو

أويسٌ القرنيُّ ابن عامر بن جزء بن مالك ، أبو عمرو ، القرنيّ ، المراديّ ، اليمانيّ ، هو القدوة الزاهد ، سيّد التابعين في زمانه ، وفدَ علىٰ عُمَر ، وروىٰ قليلاً عنه وعن عليّ . طلب منه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاستغفار ، وقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إنَّ خير التابعين رجل يُقال له : أويس ، وله والدةٌ ، وكان به بياض ، فمروه فليستغفر لكم » [مسلم : ٢٥٤٢] فاستغفر لسيدنا عمر رضي الله عنه ، فلما فطن الناسُ له هرب فذهب ، توفي سنة (٣٧هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ١٩] بتصرف .

- ب -

بشرُ بنُ الحارثِ بنِ عبد الرحمن بن عطاء ، أبو نصر المروزي ، ثم البغداديّ ، المشهور بالحافي ، الإمام ، العالمُ ، المحدِّث ، الزاهد ، الربَّاني ، القدوة ، شيخ الإسلام ، ابن عمّ المحدِّث عليّ بن خشرم .

ولد سنة (١٥٢هـ) ، وارتحل في طلب العلم ، وكان رأساً في الورع والإخلاص . قال عنه الدارقطني : (زاهدٌ جبلٌ ثقةٌ ، ليس يروي إلا حديثاً صحيحاً) اهـ ، توفي يوم الجمعة في شهر ربيع الأول سنة (٢٢٧هـ) ، وكان قد عاش خمساً وسبعين سنة .

[سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٤٦٩] بتصرف .

أبو بكر = عبد الله ابن أبي قحافة

بكرُ بنُ عبدِ الله بنِ عمرو ، أبو عبد الله المزَنيّ ، البصريّ ، الإمام ، القدوة ، الواعظ ، الحجّة ، أحد الأعلام ، يُذكر مع الحسن وابن سيرين حدث عن المغيرة بن شعبة ، وابن عبّاس ، وابن عمر ، وأنس بن مالك ، وعدةٍ ، وقد كان مجاب الدعوة . توفي سنة (١٠٨هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٥٣٢] بتصرف .

- ج -

جعفرٌ الصَّادقُ بنُ محمدِ بنِ عليّ ابن الحسين بن عليّ ابن أبي طالب ، أبو عبد الله المدنيّ الصّادق ، القرشيّ ، الهاشميّ ، وأمُّه أمُّ فروة بنت القاسم ، ولد سنة (٨٠هـ) ، روىٰ عن عطاء ابن أبي رباح ، وجدِّه لأمه القاسم بن محمد ابن أبي بكر وأبيه أبي جعفرٍ الباقرِ وغيرهم ، وروىٰ عنه السفيانان ،

ومالك بن أنس ، وغيرهم ، وهو ثقة ولا يُسأل عن مثله كما قالوا ، وهو من أجلاء التابعين . روى له البخاري في « الأدب » وغيره ، توفي سنة (١٤٨هـ) .

[تهذيب الكمال : ٥/ ٧٤] بتصرف .

أبو جهم = عبيد الله بن حذيفة ٱلقرشيّ

- ح -

حاتمٌ الأصمُّ بن عنوان بن يوسف ، أبو عبد الرحمن الأصمّ ، الزاهد ، القدوة ، الرّبانيّ ، البلخي ، الواعظ ، الناطق بالحكمة ، له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحِكَم ، كان يقال له : « لقمان هذه الأمة » .

اجتمع بالإمام أحمد ابن حنبل وشهد بعض معارك الفتوح . توفي بواشجرد سنة (٢٣٧هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ١١/ ٤٨٤] بتصرف .

حذيفة المرعشي بن قتادة ، أحدُ الأولياء ، صحب سفيان الثوريّ ، وروى عنه . قال رفيقه يوسف بن أسباط : سمعته يقول : (لو أصبتُ من يبغضني على الحقيقة في الله . . لأوجبتُ على نفسي حبَّه) . من أقواله : (أعظم المصائب قساوة القلب) .

[سير أعلام النبلاء : ٩/ ٢٨٣] بتصرف .

حذيفة بن اليمان ، من نجباء أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو صاحب السِّرِّ في أحوال المنافقين ، واسم اليمان : حِسْل ، ويُقال : حُسَيْلُ بن جابر العبسيُّ اليمانيّ ، أبو عبد الله ، حليف الأنصار ، ومن أعيان المهاجرين . كان والده « حِسْل » قد أصاب دماً في قومه ، فهرب إلى

(المدينة) ، وحالف بني عبد الأشهل ، فسمّاه قومه اليمان ؛ لحلفِه لليمانية ، وهم الأنصار . شهد هو وابنه حذيفة أُحداً ، فاستُشهد يومئذٍ ، وكان قد قتله بعض الصحابة غلطاً ، وحذيفة هو الذي ندبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الأحزاب ليجسّ له خبر العدوّ . توفي بـ (المدائن) بعد عثمان وله عقب .

[سير أعلام النبلاء : ٢/ ٣٦١] بتصرف .

الحسن البصري = الحسن بن يسار

الحسن بن يسار ابن أبي الحسن يسار ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت الأنصاريّ ، ويقال : مولى أبي اليسَر كعب بن عمرو السَّلَميّ . ولد سنة (٢١هـ) . كان سيّد أهل زمانه علماً وعملاً ، رُوي أنَّ ثديَ أمّ سلمة درَّ عليه ورضعها غير مرة ، رأىٰ عثمانَ وطلحة والكبار .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : (سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا) ، توفي سنة (١١٠هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٥٦٣] بتصرف .

أبو حنيفة النعمان = النعمان بن ثابت

- خ -

خلف بن أيوب ، أبو سعيد العامريّ ، البلخيّ ، الحنفيّ ، الزّاهد ، الإمام ، المحدّث ، الفقيه ، مفتي المشرق ، عالم أهل (بلخ) ، تفقه على القاضي أبي يوسف .

حدَّث عنه : يحيىٰ بن مَعين ، وأحمد ابن حنبل ، وأبو كريب ، وعليّ بن سلمة اللَّبقي ، وأهلُ بلده .

توفي أول شهر رمضان سنة (٢٠٥هـ) ، وقيل عاش تسعاً وستين سنة .

[سير أعلام النبلاء : ٩/ ٥٤١] بتصرف .

- د -

داوُود الطائي أبو سليمان ، داوُود ابن نصير الطَّائيّ الكوفيّ ، الإمام ، الفقيه ، القدوة ، الزاهد ، أحد الأولياء . ولد بعد المئة بسنوات ، وكان من كبار أئمة الفقه والرأي ، برع في العلم بأبي حنيفة ، ثم أقبل على شأنه ، ولزم الصمت ، وفرَّ بدينه . من أقواله : (كفىٰ باليقين زهداً ، وكفى بالعلم عبادةً ، وكفى بالعبادة شغلاً) . كان رأساً في العلم والعمل . توفي سنة (١٦٢هـ) وقيل : (١٦٥هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٧/ ٤٢٢] بتصرف .

أبو الدرداء = عويمر بن عامر

- ر -

الربيع بن خُثَيْم بن عائذ ، أبو يزيد الثوريّ الكوفيّ ، الإمام ، القدوة ، العابد ، أحدُ الأعلام . أدرك زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأرسل عنه . روىٰ عن عبد الله بن مسعود وأبي أيوب الأنصاري ، وعمرو بن ميمون . وهو قليل الرواية ، لكنه كبير الشأن . حدث عنه : الشعبي والنخعيّ وآخرون . قال له ابن مسعود رضي الله عنه : لو رآك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. . لأحبَّك ، وما رأيتُك إلاَّ ذكرتُ المخبتين . توفي الربيع بن خيثم سنة (٦٥هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٢٥٨] بتصرف .

رفيع بن مهران الرياحي ، أبو العالية ، البصريّ ، الإمام ، المقرىء ، الحافظ ، المفسّر ، أحد الأعلام . كان مولىً لامرأةٍ من بني رياح بن يربوع ، ثم من بني تميم ، أدرك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو شاب ، أسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه . حفظ القرآن علىٰ أُبيّ بن كعب ، وتصدَّر لإفادة العلم . قال البخاريّ وغيره : توفي سنة (٩٣هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٢٠٧] بتصرف .

- ز -

ابن الزبير = عبد الله بن الزبير بن العوام

زرارة بن أوفىٰ العامريُّ أبو حاجبٍ العامريّ ، البصريّ ، الإمام ، الكبير ، قاضي (البصرة) ، أحد الأعلام . سمع عمران بن حصين ، وأبا هريرة ، وابن عباس رضي الله عنهم . وثّقه النّسائي وغيره . وعن بَهْز بن حكيم قال : صلّى بنا زرارة في مسجد بني قُشَير ، فقرأ : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر : ٨] فخرَّ ميتاً ، فكنتُ فيمن حمله إلى داره . وكان ذلك في سنة (٩٣هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٥١٥] بتصرف .

زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار ، الخزرجيّ النّجّاريّ صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن بني أخواله ، وأحد أعيان البدريّين ، وأحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة . وقد قال له بنوه : قد غزوت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر ، فنحنُ نغزو عنك ، فأبى ، فغزا في البحر فمات . وكان قد خطب أم سليم فتزوجته علىٰ أن يُسلِم فأسلم حينئذٍ . توفي سنة (٣٤هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٢/ ٢٧] بتصرف .

- س -

سعيدُ التنوخي ابن عبد العزيز ابن أبي يحيىٰ ، أبو محمد الدمشقي ، ويقال : أبو عبد العزيز ، الإمام القدوة ، مفتي (دمشق) ، ولد في حياة سهل بن سعد ، وأنس بن مالك رضي الله عنهما ، وقرأ القرآنَ علىٰ ابن عامر ، ويزيد ابن أبي مالك .

قال أحمد في « المسند » : (ليس بالشّام رجلٌ أصحَّ حديثاً من سعيد بن عبد العزيز) . وقال أبو عبد الله الحاكم : (سعيد بن عبد العزيز لأهل الشام كمالك لأهل المدينة في التقدم والفقه والأمانة) . توفي سنة (١٦٧هـ) .

سفيانُ الثوريُّ بنُ سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أُبيّ بن عبد الله بن منقذ ، أبو عبد الله الكوفيّ المجتهد ، شيخ الإسلام ، إمام الحفّاظ ، سيِّد العلماء العاملين في زمانه . وقال شعبة وابن عيينة وأبو عاصم ويحيى بن معين وغيرهم : سفيان الثوريّ أمير المؤمنين في الحديث .

وقال ابن المبارك : ما أعلم علىٰ وجه الأرض أعلم من سفيان . مات سنة (١٢٦هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٧/ ٢٢٩] بتصرف .

سفيان بن عُيينة ابن أبي عمران ميمون ، مولىٰ محمد بن مزاحم ، أبو محمد الهلاليّ الكوفيّ ثم المكيّ ،الإمام ، الكبير ، حافظ العصر ، شيخ الإسلام ، ولد بـ (الكوفة) سنة (١٠٧هـ) ، لقي الكبار وحمل عنهم علماً جمّاً وهو حَدَث ، وازدحم الخلق عليه . عاش إحدىٰ وتسعين سنة ، وتوفي سنة (١٩٨هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٨/ ٤٥٤] بتصرف .

أبو سليمان الداراني = عبد الرَّحمن بن أحمد

ابن السمَّاك = محمد بن صُبيح

ـ ط ـ

أبو طالب المكي = محمد بن عليّ بن عطية الحارثيّ :

أبو طلحة الأنصاري = زيد بن سهل بن الأسود :

ـ ع ـ

عائشة أبنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أم المؤمنين ، القرشيّة ، التيميّة ، المكيَّة ، زوجة النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وأفقهُ نساء الأمة علىٰ الإطلاق . ولدت سنة (٩ ق . هـ) ، هاجر بعائشة أبواها ، وتزوّجها نبي الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قبل مهاجَرِهِ بعد وفاة الصديقة خديجةَ بنت خويلد ، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً ، وقيل : بعامين ، ودخل بها في شوال سنة اثنتين ، وهي ابنة تسع ، فروت عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم علماً كثيراً ، وقد سئل النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم : أيُّ الناس أحبُّ إليك يا رسول الله؟ قال : « عائشة » . وقد نزل القرآن بتبرئتها من حادثة الإفك المزعومة . توفيت سنة (٥٨هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٢/ ١٣٥] بتصرف .

عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوّام ، أبو الحارث ، الأسديّ ، المدنيّ ، الإمام الربانيّ ، أحد العبّاد . قال أحمد ابن حنبل : حدثنا سفيان : أنَّ عامر بن عبد الله اشترى نفسه من الله ست مرات ؛ يعني يتصدق كل مرة بديته . قلت :

مُجْمَعٌ علىٰ ثقته . قال مصعب : سمع عامرٌ المؤذّن وهو يجودُ بنفسه ، فقال : خذوا بيدي ، فقيلَ : إنَّك عليل ، قال : أسمع داعيَ الله فلا أجيبه؟! فأخذوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب ، فركع ركعة ، ثمّ مات ، وكان ذلك سنة نيّفٍ وعشرين ومئة .

[سير أعلام النبلاء : ٥/ ٢١٩] بتصرف .

أبو العالية = رفيع بن مهران

ابن عباس = عبد الله بن عباس

عبد الرحمن بن أحمد أبو سليمان ، الإمام الكبير ، زاهد العصر ، العنسيّ الداراني . وُلد في حدود الأربعين ومئة ، من شيوخه : سفيان الثوري ، ومن تلاميذه أحمد ابن أبي الحواري . من أقواله : (أفضل الأعمال خلاف هوىٰ النفس) . توفي سنة (٢١٥هـ) . وقال أحمد بن أبي الحواري : مات سنة (٢٠٥هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ١٠/ ١٨٢] بتصرف .

عبد الرحمن بن صخر الدوسيُّ اليمانيُّ ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والإمام ، الفقيه ، المجتهد ، الحافظ ، حمل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه . ولد سنة (٢١ ق .هـ) ، أسلم سنة سبعٍ للهجرة عام خيبر ، كان حفظه رضي الله عنه من معجزات النبوة ؛ إذ كان أحفظَ الصحابة رضي الله عنهم . توفي سنة (٥٩هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٢/ ٥٧٨] بتصرف .

عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمدَ ، أبو عمرو الأوزاعيّ ، شيخ الإسلام ، وعالم أهل (الشّام) ، كان يسكن بمحلة (الأوزاع) ، وهي العُقَيْبَة الصغيرة ظاهر باب الفراديس بـ (دمشق) ، ثم تحول إلى (بيروت) مرابطاً بها إلى أن مات . وقيل : كان مولده بـ (بَعْلَبَكّ) في حياة الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد كان رحمه الله تعالىٰ كبير الشأن . توفي رحمه الله تعالىٰ سنة (١٥٦هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٧/ ١٠٧] بتصرف .

عبد الله ابن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة ولد سنة (٥١ق .هـ) . وهو أول من آمن من الرجال ، قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إنَّ مِن أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربّي لاتخذت أبا بكر خليلاً » . صدَّق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكل ما أتىٰ به ، فلقِّب بـ (الصِّدّيق) ، وهو أول الخلفاء الراشدين المهديّين ، وهو الذي حارب المرتدين وانتصر عليهم ، وهو صاحب رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في الغار والهجرة ، في الحضر والسَّفر . توفي ليلة الثلاثاء لثمانٍ بقين من جمادىٰ الآخرة سنة (١٣هـ) . ودُفن قبل أن يُصبح بجوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

[سير أعلام النبلاء : سير الخلفاء الراشدين/ ٧] بتصرف .

عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّىٰ بن قصيّ بن كلاب ، أبو بكر وأبو خبيب ، القرشيّ ، الأسديّ ، المكّيّ ، ثم المدنيّ . أمير المؤمنين وَلَدُ ابن عمّةِ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وحواريُّه ، وقد كان أولَ مولود للمهاجرين بـ (المدينة) ، وُلد سنة (٢هـ) ، وقيل : سنة (١) هـ . وله صحبةٌ ورواية أحاديث ، عداده في صغار الصحابة وإن كان كبيراً في العلم والشرف والجهاد والعبادة ، وكان فارس قريش في زمانه ، بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة (٦٤هـ) ، قُتِلَ في زمن الحجاج وهو صابر محتسب ، حنطته أمه أسماء ذات النطاقين وصلت عليه ودفنته بـ (المدينة) ، عاش نيفاً وسبعين سنة ، وقتل رضي الله عنه في جمادىٰ الآخرة سنة (٧٣هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٣/ ٣٦٣] بتصرف .

عبد الله بن سلام بن الحارث ، أبو الحارث الإسرائيليّ ، الإمام الحَبر ، المشهود له بالجنّة ، حليف الأنصار ، من خواصّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وهو مِن ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، وكان ممن شهد فتح بيت المقدس ، وقد قال له رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « تموت وأنت مستمسك بالعروة الوثقىٰ » . توفي رضي الله عنه سنة (٤٣هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٢/ ٤١٣] بتصرف .

عبد الله بن عباس أبو العبّاس ابن عمّ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم العباس بن عبد المطلب القرشيّ الهاشميّ ، البحر ، حَبرُ الأمة ، وفقيه العصر ، وإمام التفسير ، ولد بشعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين ، صحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحواً من ثلاثين شهراً ، وقد دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فمسح على رأسه وتفَلَ في فيه ، وقال : « اللهمَّ فقههُ في الدِّين ، وعلِّمهُ التأويل » ، ومسنده ألف وست مئة وستون حديثاً ، وله من ذلك في « الصحيحين » خمسة وسبعون ، وتفرَّد البخاري له بمئة وعشرين حديثاً ، وتفرَّد مسلم بتسعة أحاديث . توفي سنة (٦٨هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٣/ ٣٣١] بتصرف .

عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزَّىٰ ، أبو عبد الرَّحمـٰن القرشيّ العدويّ . الإمام القدوة شيخ الإسلام ، ولد في (مكة) سنة (١٠ ق . هـ) . أسلم وهو صغير ، ثم هاجر مع أبيه ، روى علماً كثيراً نافعاً ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، وشهد فتح (مكة) ، وتوفي فيها سنة (٧٣هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٣/ ٢٠٣] بتصرف .

عبد الله بن المبارك بن واضح ، أبو عبد الرحمن الحنظليّ مولاهم ،

التركيّ ، ثم المروزيّ ، الإمام شيخ الإسلام ، عالم زمانه ، وأمير الأتقياء في وقته . ولد سنة (١١٨هـ) ، فطلب العلم وهو ابن عشرين سنة .

أكثرَ من التّرحال والتطواف إلى أن مات في طلب العلم ، وفي الغزو ، وفي التجارة ، والإنفاق على الإخوان في الله ، وحديثه حجة بالإجماع . توفي سنة (١٨١هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٨/ ٣٨٧] بتصرف .

عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ ، أبو عبد الرحمن الهذليُّ المكيّ المهاجريّ البدريّ ، حليف بني زهرة ، الإمام الحبر ، فقيه الأمة ، كان من السابقين الأولين ، ومن النجباء العالِمين ، شهد بدراً ، وهاجر الهجرتين ، وروى علماً كثيراً ، وكان رجلاً نحيفاً قصيراً ، وقد صعد شجرةً يوماً فنظر أصحابه إلى ساقه فضحكوا من حموشة ساقيه ودقتهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما تضحكون؟ لَرِجْلُ عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة مِن أُحُد » . وقد مرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بابن مسعود وهو يقرأ حرفاً حرفاً فقال : « مَن سرَّه أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل فليسمعه من ابن مسعود » . توفي سنة (٣٢هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ١/ ٤٦١] بتصرف .

عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

روىٰ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرسلاً ، وعن عمّه عبد الله بن عبد الله بن عمر ، وجدّه عبد الله بن عمر ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم . روىٰ له مسلم وأبو داوُد وابن ماجه ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : توفي سنة (١١٩هـ) .

[تهذيب الكمال ١٦/ ٢٥٧] بتصرف .

عبد الواحد بن زيد البصري أبو عبيدة ، الزّاهد ، القدوة ، شيخ العبّاد . حدَّث عن الحسن وعطاء بن أبي رباح وغيرهما . قال ابن حبّان : كان ممن غلب عليه العبادة ، حتى غفل عن الإتقان ، فكثرت المناكير في حديثه . وقال مِسْمَعُ بن عاصم : شهدت عبد الواحد يعظُ فمات في المجلس أربعة . توفي بعد الخمسين ومئة .

عبيد الله بن حذيفة ٱلقرشيّ كان ممّن بنىٰ البيت في ٱلجاهليّةِ ، ثم عُمِّر حتىٰ بنىٰ فيه مع ابن الزُّبير رضي الله عنه ، وكان علاّمةً بالنّسب ، وكان قويَّ النَّفس .

[سير أعلام النبلاء : ٢/ ٥٥٦] بتصرف .

عثمان ابن أبي شيبة محمد بن القاضي أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن خُوَاسْتَىٰ العبسي مولاهم الكوفيّ ، صاحب التصانيف ، وأخو الحافظ أبي بكر . وُلد بعد (١٦٠هـ) ، وقد أكثر عنه البخاري في « صحيحه » . توفي سنة (٢٣٩هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ١١/ ١٥١] بتصرف .

عكرمة مولىٰ ابن عبّاس أبو عبد الله القرشيّ مولاهم ، المدنيّ ، البربريّ الأصل . العلامة الحافظ ، المفسِّر .

كان من أَعلم الناس بالتفسير والمغازي .

توفي في المدينة سنة (١٠٥هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٥/ ١٢] بتصرف .

عليُّ بنُ أبي طالب عبدِ مناف بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد المناف ، أبو الحسن القرشيّ الهاشميّ ، أمير المؤمنين . ولد سنة (٢٣ ق .هـ) عرض القرآن على رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وأقرأه ، وكان أقضى أهل (المدينة) ، نام في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الهجرة ،

وكان رابع الخلفاء الراشدين ، وهو والد الحسنين رضي الله عنهما . قُتِل رضي الله عنه سنة (٤٠هـ) .

[سير أعلام النبلاء : سير الخلفاء الراشدين/ ٢٢٣] بتصرف .

علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . يُكْنىٰ : أبا الحسين ، ويُقال : أبو الحسن ، ويقال : أبو محمّد ، ويقال : أبو عبد الله . السَّيِّد الإمام ، زين العابدين ، الهاشميّ ، العلويّ ، المدنيّ . وُلد في سنة (٣٨هـ) ظنّاً . وحدَّث عن أبيه الحسين الشهيد ، وكان معه يومَ كائنةِ (كربلاء) ، وله ثلاث وعشرون سنة ، وكان يومئذٍ موعوكاً فلم يقاتل ، ولا تعرضوا له ، بل أحضروه مع آله إلى (دمشق) ، فأكرمه يزيد وردّه مع آله إلى المدينة . يُقال له : « عليّ الأصغر » . توفي سنة (٩٤هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٣٨٦/٤] بتصرف .

عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة ، أبو اليقظان العنسيّ المكّيّ مولى بني مخزوم ، الإمام الكبير ، أحد السابقين الأولين ، والأعيان البدريين ، عُذِّب في الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اصبر » ، ثم قال : « اللهمَّ اغفر لآل ياسر وقد فعلتَ » ، وقد تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال له : « تقتلك الفئة الباغية » توفي في (صفّين) سنة (٣٧هـ) ، وصلىٰ عليه عليٌّ كرم الله وجهه ولم يغسله .

[سير أعلام النبلاء : ٤٠٦/١] بتصرف .

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّىٰ بن رياح بن قرط بن رزاح بن عديّ بن كعب بن لؤيّ ، أبو حفص القرشيّ العدويّ ، أمير المؤمنين ، الفاروق ، ثاني الخلفاء الراشدين ، ولد سنة (٤٠ ق . هـ) . وقد صحّ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في رقص ولعب الحبشة لما أتىٰ عمر : « إنّي لأنظر إلىٰ

شياطين الجنّ والإنس قد فرُّوا من عمر » ، وكان شديداً في الحقِّ ، شديد الورع والخشية لله تعالىٰ ، وكان مثلاً في العدل والتواضع ، كثرت الفتوحات في عهده ، طعنه أبو لؤلؤة المجوسيّ ، فاستشهد رضي الله عنه وهو ابن أربع أو خمس وخمسين سنة ، قال قتادة : قتل عمر وهو ابن إحدى وستين ، وقال الواقديّ : أخبرنا هاشم بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه : (توفي عمر وله ستون سنة) قال الواقدي (هذا أثبت الأقوال) .

[سير أعلام النبلاء : سير الخلفاء الراشدين/ ٧١] بتصرف .

عويمر بن عامر ، أبو الدرداء ويقال : عويمر بن زيد بن قيس ، ويقال : ابن عبد الله ، وقيل : ثعلبة بن عبد الله الأنصاريّ الخزرجي ، ويقال : اسمه عامر بن مالك ، الإمام القدوة ، قاضي (دمشق) ، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبو الدرداء ، حكيم هذه الأمة ، وسيّد القراء بـ (دمشق) ، وهو ممن جمع القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتلا عليه صلى الله عليه وآله وسلم وتصدَّر للإقراء بـ (دمشق) في خلافة عثمان رضي الله عنه وقبل ذلك . أسلم يوم بدرٍ ، ثم شهد أحداً . من أقواله رضي الله عنه : (اعبدِ اللهَ كأنك تَراه ، وعُدَّ نفسك من الموتىٰ ، وإيّاك ودعوة المظلوم) . توفي سنة (٣٢هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٢/ ٣٣٥] بتصرف .

ـ ف ـ

الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، أبو عليّ التميميّ اليربوعيّ الخراسانيّ ، الإمام ، القدوة ، الثبت ، شيخ الإسلام ، المجاور بحرم الله تعالىٰ .

ولد بـ (سمرقند) سنة (١٠٥هـ) ، ونشأ بـ (أَبِيْوَرْدَ) ، وارتحل في طلب العلم . حدث عنه ابن المبارك ، والشافعي ، وابن عُيينة ، وبشر الحافي ، والسَّرِيّ السَّقَطيّ وغيرهم . وكان قاطع طريق ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها ، إذ سمع تالياً يتلو : ﴿أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم. . .﴾ [الحديد : ١٦] فلما سمعها . . قال : بلىٰ يا ربّ قد آن ، فرجع وتاب وصار من كبار الأولياء والصالحين . وكان عظيم الورع والتقوىٰ . توفي سنة (١٨٧هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٨/ ٤٢١] بتصرف .

ـ ل ـ

الليث ابن أبي سليم بن زنيم ، مولىٰ آل أبي سفيان بن حرب الأموي ، أبو بكر ، ويقال : أبو بكير الكوفي وفي اسم أبيه أبي سُليم أقوال : أيمن ، و : أنس ، و : زيادة ، و : عيسىٰ ، محدث (الكوفة) ، وأحد علمائها الأعيان ، على لينٍ في حديثه لنقص حفظه . ولد بعد الستين ، لعلَّ في دولة يزيد ، وحدث عن الشعبي ، ومجاهد ، وعطاء ، ونافع .

حدث عنه : الثوري ، والفضيل بن عياض ، وخلق كثير . قال مطيَّنٌ : توفي سنة (١٣٨هـ) . وقال بعضهم : توفي سنة (١٤٣هـ) .

ـ م ـ

مجاهدُ بن جبر مولىٰ السائب ابن أبي السائب ، ويُقال : مولىٰ عبد الله بن السائب القارىءِ ، ويُقال : مولىٰ قيس بن الحارثِ ، المخزوميُّ ، أبو الحجّاج المكّي ، الإمامُ شيخ القراء والمفسّرين ، وروىٰ عن ابن عباس ، وعنه أخذ

القرآن والتفسير والفقه ، قال قتادة : أعلم من بقي بالتفسير مجاهد ، وثّقه يحيىٰ بن مَعين وطائفة . قال أبو نعيم : مات مجاهد وهو ساجد سنة (١٠٢هـ) وقيل : سنة (١٠٤هـ) . وروىٰ محمد بن عمر الواقدي عن ابن جريج ، قال : بلغ مجاهد ثلاثاً وثمانين سنة .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٤٤٩] بتصرف .

محمد بن صبيح أبو العبّاس العجليّ ، مولاهم الكوفيّ ، ابن السَّمَّاك . الزاهد ، القدوة ، سيّد الوعاظ .

من أقواله : (الدنيا كلها قليل ، والذي بقي منها قليل ، والذي لك من الباقي قليل ، ولم يبقَ من قليلك إلا قليل ، وقد أصبحت في دار العزاء ، وغداً تصير إلى دار الجزاء ، فاشترِ نفسك لعلك تنجو) . روىٰ عنه أحمد ابن حنبل وغيره . توفي سنة (١٨٣هـ) ، وقد أسنّ رحمه الله تعالىٰ .

[سير أعلام النبلاء : ٨/ ٣٢٨] بتصرف .

محمد بن علي بن عطية الحارثيّ أبو طالب ، المكيّ المنشأ ، العجميّ الأصل ، الإمام ، الزاهد ، العارف ، شيخ الصُّوفية . وله كثير من المصنّفات في التصوّف والتوحيد ، أهمّها : « قوت القلوب في معاملة المحبوب » و« وصف طريق المريد إلى مقام التوحيد » . توفي في جمادىٰ الآخرة سنة (٣٨٦هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ١٦/ ٥٣٦] بتصرف .

ابن مسعود = عبد الله بن مسعود

مسلم بن يسار أبو عبد الله البصري ، مولى بني أميّة ، وقيل : مولى بني تيم من موالي طلحة رضي الله عنه . القدوة ، الفقيه ، الزاهد . قال ابن عون : (كان لا يفضَّلٍ عليه أحد في زمانه) وروي أنه لما مات.. قال الحسن البصري : وامعلّماه .

توفي سنة (١٠٠هـ) ، وقال الهيثم بن عديّ : توفي سنة (١٠١هـ) .
[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٥١٠] بتصرف .

معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عديّ بن كعب بن عمرو . أبو عبد الرَّحمن الأنصاريّ ، الخزرجيّ ، المدنيّ ، البدريّ ، السيد الإمام ، ولد سنة (٢٠ ق .هـ) ، صحابي جليل ، وهو أحد الستّة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم . أسلم وهو فتىً . توفي سنة (١٨هـ) .
[سير أعلام النبلاء : ٢/ ٣٥٨] بتصرف .

ـ ن ـ

النعمان بن ثابت بن زوطىٰ ، التيميّ الكوفيّ ، مولى بني تيم الله بن ثعلبة ، يُقال : إنه من أبناء الفرس . الإمامُ ، فقيه الملّة ، عالم (العراق) ، أبو حنيفة . وُلد سنة (٨٠هـ) في حياة صغار الصحابة ، ورأى أنس بن مالك لما قدم عليهم (الكوفة) ، ولم يثبت له حرف عن أحد منهم ، روىٰ عن : عطاء ، والشعبي ، وغيرهما . والناس عليه عيال في الفقه كما قال الشافعي رحمه الله تعالىٰ . وهو صاحب المذهب المعروف . توفي شهيداً سنة (١٥٠هـ) .
[سير أعلام النبلاء : ٦/ ٣٩٠] بتصرف .

ـ هـ ـ

أبو هريرة = عبد الرحمن بن صخرٍ

- و -

وابصة بن معبد بن عتبة بن الحارث بن مالك بن الحارث بن قَيس ، ويُقال : بشير بن كعب بن سعد بن الحارث ، أبو سالم ، ويُقال : أبو الشعثاء ، ويقالُ : أبو سعيد ، الأسديُّ . أسلم سنة (٩هـ) مع عشرة رهط من قومه ، نزل (الجزيرة) ، وسكن (الرقّة) ، وقدم (دمشق) ، وكان قارئاً بكاءً لا يملك دمعَهُ . روىٰ له أبو داوُود والترمذي وابن ماجه . توفي بـ (الرقة) .

[تهذيب الكمال : ٣٠/ ٣٩٢] بتصرف .

- ي -

يحيى بن وثاب الأسديّ ، الكاهليّ مولاهم ، الكوفيّ ، الإمام ، القدوة ، المقرىء ، الفقيه ، شيخ القرّاء ، أحد الأئمة الأعلام . تلا علىٰ أصحاب عليٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما حتىٰ صار أقرأ أهل زمانه . حدّث عن : ابن عباس ، وابن عمر ، وروى مرسلاً عن عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهم . توفي سنة (١٠٣هـ) .

[سير أعلام النبلاء : ٤/ ٣٧٩] بتصرف .

يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حُبيش بن سعد بن بُجَير بن معاوية الأنصاريّ الكوفيّ . وُلد سنة (١١٣هـ) . وكان أبوه فقيراً ، له حانوت ضعيف ، فكان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يتعاهد أبا يوسف بالدراهم ، مئة بعد مئة . وصحب أبا حنيفة سبع عشرة سنة . قال أحمد : كان أبو يوسف منصفاً في الحديث . قال بشر بن الوليد : توفي أبو يوسف يوم الخميس ، خامس

ربيع الأول ، سنة (١٨٢هـ) . وقال غيره : مات في غرة ربيع الآخر ، وعاش تسعاً وستين سنة .

[سير أعلام النبلاء : ٨/ ٥٣٥] بتصرف .

يوسف بن أسباط الزاهد ، من سادات المشايخ ، له مواعظ وحكم . وثّقه ابن معين ، وقال البخاريّ : دفن كتبه فكان حديثه لا يجيء كما ينبغي . وقال شعيب بن حرب : ما أُقدِّم علىٰ يوسف بن أسباط أحداً .

أبو يوسف = يعقوب بن إبراهيم :

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *